محمد الغربي عمران

مصحف أحمر

رواية



مصحف أحمر

محمد الغربي عمران

مصحف أحمر

رواية



A RED KORAN

Novel

Mohammed Gharbi Omran

First Published in February 2010

An Imprint of Riad El-Ryyes Books S.A.R.L.
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 457 - 3

الطبعة الأولى: شباط (فبراير) ٢٠١٠

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

شكر

الشكر الجزيل

للدكتور عبد العزيز المقالح

الدكتور عبدالله البار

الدكتور حاتم الصكر

الدكتورة آمنة يوسف

الدكتورة وجدان الصايغ

الأستاذ عبد الوهاب الحراسي

الأستاذ علي ربيع

والأستاذة نجاة باحكيم

والزملاء في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين

والأصدقاء في نادي القصة (إل مقه)

1

حنظلة

«١» وحيدي حنظلة.

هذا هو شهر أغسطس من عام ٢٠٠٠.. فيه حاصرتني مشاعر الوداع.

هي المرة الأولى التي تحس فيها بالرهبة من مقابلة جدك (العطوي).. لحظات الوداع.. تستعد للإقلاع في رحلة إلى بغداد. لم نفكر يوماً بأنك ستتركنا لتغادر خارج اليمن.

المسافة بين (صنعاء) وقرية جدك (حصن عرفطة) سبعة وعشرون كيلو متراً غرباً. أقنعتني بأن تودع جدك دون أن تخبره بسفرك لدراسة الطب. وعدتني بمهاتفته عند وصولك العراق.

أتتذكر حين عدت من القرية؟ حكيت لي مشاعرك. أتخيل اضطراب قلبك لحظة طرق الباب. يطل بوجهه الضاحك، ذقنه

المهندمة، يمد ذراعيه ليحتويك. هي المرّة الأولى التي ترتجف فيها. يرفع صوته: «ما هي أخبارك يا حنظلة؟» هذه هي خطوات الترحيب لديه.. يركز النظر في عينيك.. تتقدم عبر الصالة.. تدخل الغرفة الجنوبية.. المصحف الأحمر الكبير على كرسي القراءة.. تقترب بوجهك من صفحاته.. تقرأ: «وقال داوُد لسليمان ابنه.. تشدد وتشجع واعمل، لا تخف ولا ترتعب لأن الرب الإله إلهي معك لن يخذلك ولن يتركك حتى تكمل كل عمل خدمة لهيكل الرب».. تُقلِّب عدة صفحات لتجد مؤشراً ثانياً على الآية: «وبينما هو يتكلم بهذا رفعت امرأة من بين الجمع صوتها قائلة له: طوبى للبطن الذي حملك.. والثديين اللذين رضعتهما». إلا أنه قال: بل طوبى للذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها». تقلب صفحات أخرى.. لتقرأ: «قال ربِ إني وهن العظمُ مني واشتعلَ الرأسُ شيباً ولم أكن بدعائكَ ربي شقياً» تقفل المصحف، تتأمل، تودع تضاريس غرفة جدك.. رشاش (كلاشنكوف) معلّق فوق النافذة.. عدة صور على الحائط.. مرآة.. مساند.. صندوق خشبي قديم.. سجادة.

أتخيلك تهرب إلى الغرفة الشمالية، غرفتك التي كنت تستذكر دروسك فيها حين تمكث في القرية، تستنطق زواياها.. فوق النافذة تتكئ على (القمرية) صورة لك إلى جوار جدك.. التُقِطت سنة ١٩٩٤. تحتضن باقة من أغصان القات بين ذراعيك، تتأمل وجه جدك.. الملامح الباسمة والشال الملفوف على الرأس شبيهٌ بضمادة هندية، عينان صغيرتان وشارب حليق. قارنت بين ملامحك وملامح وجهه:

العينان.. الأنف.. لون البشرة.. حتى الابتسامة.. نسخة مصغرة

لوجه جدك دون تجاعيد.. يقولون بأنك ورثت عنه الكثير من ملامحه.. في الجدار الآخر لوحة لفتاة مجنحة تطير.. أطرافها حوافر خيل.. عدة كتب على رف علوي.

تتقلب في ظلام غرفتك.. هدوء مطبق إلا من ضجيج أفكارك.. هذا جدك يحتل حيزاً من تفكيرك.. قلقاً من صباح الغد.. تفكر في كيفية إخفاء سرك.

حاولت التخلص من كل ما يشغل تفكيرك.. الاستعاضة باصطياد ذرات النوم.. ملامح جدك ترتسم هلاماً وسط ظلام غرفتك.. نظراته.. ابتسامته، أغمضت جفنيك متلمسا خيوط النعاس.. بعد محاولات أصطادك النوم.. لا تدري كم من الليل مضى حين تهادى إلى سمعك صوت جدك يتلو صلواته.. موسيقى دون أوتار.. تقفز من نشوة إلى أخرى.. يرفعك في معارج النقاء.. حتى لكأنك لم تعد تدرك أأنت في حلم أم أنك لم تنم بعد؟! حاولت استعادة النوم.. جاهدت.. صوت جدك يملأ المكان بمشاعر تبكيك.. رنين أجراس تختلط بصهيل خيول لا تُرى.. تغمض عينيك من جديد.. تفقد القدرة على الرؤية.. لم يمض وقتٌ حين توهج زجاج الفجر.. زقزقة العصافير.. رائحة الخبز.. فتحت النافذة.. أطللت على الوادي السحيق.. بدايات ضوء الأفق.. رياح باردة.. سفوح المنحدر امتلأت بورد أصفر.. زهور الطلح والطنب.. مجرى السيل أخدود تسكنه الحصى.. بقع الوادي.. حقول شجيرات القات تناثرت.. صفوف الجبال تحتضن مشاعرك.. قرى يتنفسها الفجر.. كل شيء ساكن إلاَّ من أعمدة دخان.. فلاحون يسابقون الضوء على منحدرات الوادي.. ينفضون عن أغصان القات قطرات الندى.

في علياء القرية بقايا (حصن عرفطة) يطل من ربوته كشيخٍ طاعنٍ في السن بعد أن فقد معظم أجزائه.. مازالت بقايا جدران بنوافذها وأفاريزها الملونة تقاوم بعد نسفه أجزاءه العلوية في عام ١٩٨١م بإيعاز من شيخنا.

عند بزوغ قرص الشمس ودَّعت جدك متحاشياً النظر في عينيه. حاولت أن تختصر فترة العناق فيما هو يمعن الإطالة. بلعت رغبة البكاء.. سمعت جدك يردد:

ـ الله معك يا حنظلة حافظاً ورفيقاً.

رددت عليه وأنت تخطو خارج البيت:

ـ الله معك يا جد.

لوحت بيدك.. عيناك مغلفتان بالدموع.

شقَّت السيارة طريقها وسط القرية.. نفر الدجاج من حولها.. كلاب.. أطفال وعجائز فاغرون أفواههم.. رائحة المواقد من شقوق الدور العلوية. لم تستطع كبح دموعك.. هدير السيارة خارج أطراف القرية صاعدة تعرجات الطريق نحو الجبال الشرقية.. تمنيت لو أنك تحلِّق تحت سماء القرية لترى جدك الواقف أمام باب بيته. طوال الطريق تحادث نفسك: «لو أني أخبرته بسفري فهل سيتقبل الأمر؟. لو رد عليَّ بالرفض فهل أمتلك القدرة على مخالفته؟ سامحني يا رب! ساعدني في أن أكتب إليه معتذراً.. سأشرح له كل الملابسات.. أنا على يقين من أنه سيغفر لي!».

حين صعدت السيارة المرتفعات التفتَّ، أمعنتَ النظر في القرية..

لسان صخري.. بقايا حصن عرفطة.. وديان غائرة.. جبال عالية تشبه ملامح جدك.. تتداخل لترسم ابتسامته. كل شيء هادئ إلّا من ضوضاء روحك.

أغمضت عينيك تستحضر أيامك الماضية.. لحظات الصباح الباكر حين تهبط الوادي برفقة جدك.. تساعده في قطف أغصان القات وبيعها. ترافقه ليلاً لحراسة الوادي.. تطرب لنباح كلاب الليل.. عواء ذئاب الجبال.. دوي الرصاص بين فينة وأخرى.

أكملَت السيارة الطريق الترابية.. انطلقت شمالاً على طريق معبد باتجاه صنعاء. قرى تأتي مسرعة.. وأخرى عالية تعشش دورها على شفاه المرتفعات.. وتلك تتخذ من السفوح مهاجع لها. على سفوح الجبال مزارع القات تزاحم شجيرات البن الخضراء.. الهضاب احتلتها عرائش الكروم.

مدينة صنعاء تومض بياضاً من بعيد.. سهل مستطيل تحرسه قلاع الجبال العالية.. صفوف سوداء من الغرب والشرق.. سهل موزعةٌ ألوانه بين الأسود والترابي.. مربعات خضراء لحقول البطاطس والبرسيم. المدينة مآذن حجرية باسقة.. بياض قبابها.. في البدء ولدت وثنية.. ثم يهودية خالطتها المسيحية.. لا أحد يجزم ما تخبئ لها الأيام من مسرات.. يحتضنها طقس بارد.. تحاول عيناك اختزال ما تشاهده.. أسوارها الطينية.. دورها الياجورية.. شوارعها المتربة.. الواجهات المزخرفة.. زحام باعة أرصفتها.

عزيزي حنظلة..

حين كنت أنتظرك.. أنظر إلى مؤشر ساعتي.. تبقّى على إقلاع

الطائرة عدة ساعات وأنت لم تصل بعد.. أرتب حقيبتك: كعك بالمكسرات.. زبيب.. زعتر.. بن.. حبة البركة.. علبة زبدة.. برطمان عسل.. عطر.. أمشاط.. كريمات ومعاجين.. أستنشق رائحة ملابسك.

كُنتَ سعيداً لاهتمامي بك.. أستحثك سرعة الانتقال إلى المطار. خرجنا.. أزقة مرصوفة.. دور متراصة.. نسير تحت أقواس حجرية عالية.. بمحاذاة سور طيني طويل.. عبرنا باب اليمن.. قُلتَ لي مبتسماً:

ـ هناك متسع من الوقت يا أماه قبل إقلاع الطائرة.

ـ ماذا تعني؟

ـ بي رغبة لأن أودع صنعاء!

ـ ماذا تقصد؟.. يجب أن نصل إلى المطار مبكرين.. هناك من ينتظرنا!

ـ من تقصدين؟!

ـ خمِّن من يكون!

ـ أصدقائي!

ـ بل من أقرب أقربائك!

ـ أيعقل أن يكون جدي!

ـ لا!!

ـ زوجته!!

ـ لا.. لن تستطيع تخمين من يكون!

نطقت عبارتي وتركتك للحيرة.. بعد صمت قلت لك: ستغادرنا بعد لحظات.. ستجرب قدرتك على مواجهة الحياة.. أناس لا تعرفهم.. سترحل قطعة من روحي.. ولولا حبي لك لما وافقتك على السفر، لن أقول لك إني سأشعر بالوحدة.. وإني أفتقد العالم بمغادرتك.. وإني امرأة دون أجنحة.. وإن سمائي ستكون كئيبة.. وأوقاتي ستفقد بهجتها.. بل سأقول إني أكثر سعادة وأنا أودعك لتعود طبيباً.

أتذكر تلك اللحظات حين صَمتّ تمسح عينيك الغارقتين بدموع مفاجئة.. لم تسعفك الكلمات.. تصنعت الانشغال بالبحث عن شيء ما ناظراً إلى سماء صنعاء.. تتأمل الشوارع المؤدية إلى المطار.. دور المدينة.. قمم الجبال. قلت وأنا أراقب عقارب الساعة:

ـ لا تتذمر.. حديثي لك حديث من امتلأ قلبها سعادة بابنها.. وأنت تحقق أحلامك.. سأظل أصلّي لسلامتك.. أدعو الله أن تعود سالماً غانماً.

ـ لن أنساك لحظة.. وكم أتمنى أن يغفر لي جدي.

ـ ما أنت إلّا قلبه الذي ينبض بالحياة.. وعيناه اللتان يرى بهما الدنيا.. فكيف تقول هذا؟

كان أريج الحديث يتدفق طوال الطريق.. لذة الكلام تتوالد دفع لذيذة.. أحتضنك.. أتأمل عينيك مبتسمة.. أسألك:

ـ كيف سأكون بدونك؟

ـ سأهاتفك حين أصل، وفي كل يوم!

ـ فقط أرجو أن تتذكر بأنك وحيدي.. وأنك أملنا الذي ننتظر عودته.

ـ وأنتِ كل الدنيا.. هي أشهر معدودة وأعود إليكم.

أتتذكر حين طلبت منك أن تسمع بعض حكايات جذور أسلافنا؟ قلت لك:

ـ هل أحكي لك حكايات أسلافك؟

ـ يسعدني ذلك.

ـ إذاً سأحكي لك عدة حكايات.. قد تراها حكايات ساذجة.. لكنني أشعر بمتعة حكايتها:

ـ هيا احكِ.

الحكاية الأولى تقول: إن محارباً قدم من الأناضول ضمن جنود الغزو العثماني الأول لليمن. حارب سنوات.. وحين قرر الأتراك الرحيل، فضّل ذلك المقاتل الاستقرار في صنعاء.. تزوج.. امتهن تجارة السجاد القديم.. ويقال إن ذلك الجندي هو جدك الأول.

وحكاية أخرى أبعد من الأولى زمنياً.. تُحكَى: أن الجد الأول قدم ضمن جيش أبرهة الحبشي كقس يسوعي.. هو صاحب فكرة إنشاء كنيسة في جنوب شبه جزيرة العرب كمركز متقدم للإيمان. أقنع أبرهة.. وسريعاً ما أنشئت كنيسة (القليس) في قلب صنعاء القديمة. أضحى ذلك القس راعياً للكنيسة.. حتى

بعد هزيمة أبرهة وفَيلته في الحجاز.. وعودته إلى صنعاء.. ثم رحيل (الأحباش). كان ذلك الراعي قد اختار الاستقرار وأمسى من سكان صنعاء.. ومن بعده ابنه ثم حفيده.. وحفيد حفيده حتى اليوم.

الحكاية الثالثة، وهي المتداولة، أن الجد الأول، أحد وجهاء (مأرب)، قدم من أطراف الصحراء الشرقية نحو المرتفعات الجبلية بعد أن نفذ خدعة بسيطة. وقع ذلك في أواخر عصر الدولة السبئية.. كان خبيراً بأحاديث النجوم.. ومن ذوي الأطيان التي ترتوي من مخزون سد مأرب.. حدثته النجوم عن قرب انهيار سدهم العظيم.. فكر في حيلة للرحيل قبل الانهيار.. مسرحية لتكن مبرراً لبيع ممتلكاته الثابتة.. اتفق مع أحد أبنائه على أن يعلن العصيان عليه. اختار الأب السوق الشهري لمدينة مأرب.. وعند ذروة الزحام افتعل الابن خلافاً مع أبيه.. شتمه وهوى بكفه على صدغه وسط دهشة الجميع!! أقسم الأب أن لا يبقى في أرض أُهينت فيها أبوته.. معلناً عرض جميع ممتلكاته للبيع. انتشر الخبر.. تنافس الجميع على شرائها.. نجحت الخطة ليرحل الأب بقطعانه نحو المرتفعات.. ومن ثم تبعه أبناؤه بعد حين.. وقد تحولت حيلته إلى لعنة.. مات كل أبنائه عدا أكبرهم.. وهكذا ظلت سلالته قائمة على الذكر الواحد.

الحكاية الأخيرة تقول: إنه قدم من شرق البحر المتوسط في القرن الثاني لميلاد يسوع المسيح هارباً من الاضطهاد الديني هناك. التقاه التبّع أسعد الكامل في شمال يثرب.. وكان عالماً بأصول الكهانة.. استحسن التبّع ضمه إلى كهنته.. ثم رحل به جنوباً حتى عاصمته.. ليتدرج في مراتب الكهانة حتى وسمه أسعد الكامل

بكبير الكهنة. ويقال إنه مَن أعد قواعدَ محاكمة كل من كان على غير اليهودية. وكان (أخدود نجران) ومحرقة من تمسكوا بتعاليم يسوع المسطر في الكتب السماوية من أفكاره.. ولهذا حلت لعنة الذكر الواحد على ذريته حتى اليوم.. فالسلف الأول جاء بولد واحد.. وهكذا الذي يليه.. لتستمر ذريتنا مهددة بالزوال وسط محيط تحكمه القوة والعنف.

وقد تنبأ أحد السالكين بزوال تلك اللعنة.. إذا جُمِعت الكُتب السماوية في حروفها الأولى. أخذ أجدادك بالبحث في خزائن صنعاء لجمعها في مصحف واحد.. قرون من البحث.. استمر الأجداد خلفاً بعد سلف.. حتى جمعت الكتب.. مع شيء من مبادئ الصابئة والبوذية من أسواق صنعاء.. وتقول النبوءة: «ستزول تلك اللعنة في الجيل السابع والسبعين» ولهذا يحمل جدك المصحف الثلاثي أينما ذهب.. فالجزء الأقدم منه التوراة.. وبدايته تعود إلى الجد الأول والذي توارثهُ أحفاده منذ مئات السنين.. والجزء الثاني للإنجيل بالحروف السريانية.. ثم الفرقان بحروف غير منقوطة.. تتكون أوراقه من جلد الماعز الجبلي.

صمتُّ أنظر وقع حكاياتي على نفسك.. كمن خالطك سحر.. قلت وأنت تفكر:

ـ حكايات شيقة لم يحدثني أحد بها، لكني موجود وكفى.. ولن تغير تلك الحكايات ما أنا عليه.

أجبتك مشفقة:

ـ ستدرك يوماً أهمية أن يكون للفرد حكايته الخاصة.. حين تبحث عن ذاتك.. الإنسان بحاجة إلى ما يميزه.. حينها سيتحرك

شيء ما بداخلك لتحكي.

ـ سأتخيل أن ذلك قد حدث.. فأي حكاية أنتسب إليها؟

ـ أن تكون ما تنوي على فعله.

ـ ما الحكمة من أن أنتسب أو لا أنتسب؟

ـ ستعلّمك الأيام.. وستدرك أن الإنسان يظل جاهلاً لذاته.. وعندها يبحث عما يلبي غروره.

ـ كيف؟

ـ كل فرد يظل يؤمن بصفة الاختلاف والتميز.. ولهذا تختلف أقدارنا عن أقدار سوانا.

ـ سأنتظر الغد.

ـ نحن جميعاً رهن الغد.. محكومون بانتظاره.

وصلنا الشارع الأمامي للمطار.. واجهات معدنية. مواقف انتظار السيارات شبيهة ببئر عميقة.. حركة رتيبة.. أزيز.. زوايا معتمة.. ملامح وسِحَن مختلفة.. جنود.. جدران زجاجية.. صالة يملأها الضجيج.. ألوان وروائح جديدة.. عابرون في كل اتجاه. أبحث عن مقعد لخفقان قلبي.. في وجوه الحاضرين.. أحدث نفسي: «لقد وعدني».. لم يتمالك قلبي حين بدأت إجراءات وزن أمتعتك.. أتابع تحركاتك.. عُدت إليَّ مستأذناً:

ـ لا أحد في وداعي غيرك.. أين من قلتِ إنه سينتظرنا؟

ـ حتماً هو بين الزحام.

أحسستُ فجأة بدنو لحظات الفراق.. ارتفع نبض قلبي.. احتضنتني مواسياً:

ـ لن أكمل إجراءات سفري إذا طلبتِ مني ذلك!

ـ سأكون بخير.. هي فقط مشاعر اللحظة.. اطمئن سأكون بخير.

لمحت (تبعة) هناك حين التفتُّ أبحث عنه.. لقد صدق: ملابسه بلون البُن.. نظارة تغطي نصف وجهه.. نهضتُ ملوحة.. أشرتُ عليك:

ـ انظر من أخبرتك أنه سيأتي لوداعك!

التفتّ أنت وقد اقترب نحونا بخطوات مرتبكة.. رجل اقترب من الأربعين.. بوجه صغير.. ضامر الجسد.. انحسر شعر رأسه.. تهتز قامته بشيء من الإعاقة.. لفّ جذعه بفوطة فضفاضة.. اعتصرت أنت ذاكرتك.. يبدو لك وجهه مألوفاً.. أيقنتُ أن ذاكرتكِ خانتك.. مشاعر الإحراج تجتاحك فيما هو يقترب.. مد كفه مصافحاً.. علت وجهي ابتسامة.. التفتّ.أحتضنك وأنا أحدثه:

ـ هذا هو حنظلة ابنك!

وقف يتأملك فارداً ذراعيه متبسماً!

ـ حنظلة.. ابني العزيز.. لقد أصبحت رجلاً!

بادلته بأحضان فاترة.. تحدث نفسك.. أيعقل أن يكون هذا أبي؟ تبحث في تلابيب ذاكرتك.. في حكاياتي.. جدك.. زوجة جدك.. نساء القرية حين يتحدثن عنه. أمطرك بكلمات الثناء.. تراجعت أنت إلى الخلف وابتسامة مصطنعة على ملامحك..

أنكرت أن يكون ذلك الرجل هو (تبعة..) همست في أذني: «أين ما رسمتِهِ يا أمي» تتأمله من جديد.. بقايا إنسان.

جلسنا على مقعد جانبي.. تسترق إليه نظرات عجلى.. أزال تبعة نظارته.. عينان غائرتان.. ملامح مشوشة.. تبحث أنت عن ذلك الفارس الذي تختزنه ذاكرتك.. فرد ذراعيه مرة أخرى.. احتضنك.. أجلسني جوارك.. وقف خطيباً.. بحركات مسرحية يحرك يديه:

ـ ابني العزيز.. يا من سميتك حنظلة.. زوجتي الغالية (سمبرية).. حبيبتي.. فاتنتي.. اليوم أقف بين أيديكم لأعتذر.

توقف عن الحديث.. لحظ الجموع تحاصرنا في صالة الانتظار.. واصل موجهاً حديثه إليهم: أيها الناس أشهدكم.. هذا هو ابني الوحيد.. وهذه هي زوجتي.. إني أعتذر لهم عن تقصيري.. أتصدقون؟ لن تصدقوا إذا قلت لكم إني أقابل ابني لأول مرة.. أنا لا أعرفه.. وهو لم يرني منذ مولده.. لكن أرجوكم انظروا.. أليست ملامحه هي ملامحي..؟ أنا مناضل كبير.. لم أتخلَّ خوفاً أو جبناً.. بل كنت أحاول أن أرسم حلمي.. حلم اليمن الواحد.. الموحد بالحرية والعدالة.. أنا مقاتل وحبيبتي سمبرية تعرف ذلك.. مناضل مخلص لوطني.. ولهذا لم أرَ ابني.. الآن لا أزال مطارداً.. مهدداً بالقتل في أي لحظة..!! هذه إصابات جسدي.

أخذ يخلع ملابسه وهو يتحدث.. يشير إلى مواطن الإصابات. وقفت محاولاً مساعدته.. قال أحدهم:

ـ عجوز مخمور.

شعرت بطعنة في قلبي.. قُلتَ أنت لتبعة مواسياً:

ـ عفواً.. نحن بين الناس؟

ـ ألم تخبرك أمك؟

التفتُّ إلي.. إلى عيون من حولنا.. دوائر الخجل والحيرة تحاصرك:

ـ أمااه؟ بقدر سعادتي لحضوره حزني على ما هو فيه.

رددتُ عليك مرتبكة.

ـ إنهُ والدك!!

حركتْ كلماتي إحساسك.. حاولت تهدئتك.. لاحظت أن تبعة غير متماسك في خطواته.. همست لك:

ـ كثيراً ما سألتني بشوق عنه.. وكثيراً ما حدثتك.. اليوم جاء لوداعك.. عليك أن تعذره.. لم أكن أعلم أن حالته بهذا السوء!!

لاحظ تبعة همسنا.. صرخ:

ـ يبدو أنني أخطأت المجيء!

ثم رفع صوته أكثر موجهاً حديثه لمن في الصالة:

ـ أعترف أن مخاطرتي بالمجيء كانت في غير مكانها.. اشهدوا أيها الجمع أنني أعترف بخطئي!!

2

سمبرية

«٢» ابني الغالي حنظلة

غامت الأضواء أمام عينيّ.. تداخلت الألوان.. الروائح.. إحساس مشوش.. سقطت بين يدي تبعة.. جاهد في إفاقتي.. نطقت بجمل غير مرتبة.. نظرات البعض تضايقني.. حدثته:

ـ الله يخبو بداخلي من جديد، كنت مخطئة حين رجوتك بالمجيء لوداعه.. أراك تبتسم كالأبله لا كمن يفارق ابنه. أنت لست تبعة..! اعترف..!!

ـ فضحتينا.. لست أول من تفارق إِلفها.

ـ أنت من فضَحتّنا.. أنا من ظللت طوال تلك السنين أرسم لك صورة فارس.. ثم تأتينا اليوم مخموراً تترنح!!

ـ توقعت أن تستقبليني بالأحضان بعد كل هذه السنوات!

ـ لقد حاولت.. لكنك لم تعطني فرصة.. أريد أن يتعرف إليك ابنك.. وأنت فاقد التوازن!!

ـ أعتذر لك!

ـ تعتذر لي.. ومن يعتذر له؟

ـ أنتِ من تستحقين الاعتذار.. هيا انهضي.

بدأت أستجمع قواي.. عيني تبحث في محيطها عنك.. ملامح صالة المغادرين.. لا أحد يشبهك.. أحدق في ما حولي: فواصل زجاجية.. أضواء.. أسقف لامعة.. مقاعد.. أقدام.. سيقان.. قامات مختلفة.. مؤخرات.. وجوه.. لوحات إعلانية.. مكبرات صوت.. زحام.. وجوه غير مألوفة.. لف ذراعه يستنهضني.. أنعشتني رائحة جسده.. لأول مرة أسير بين الناس ملتصقة برجل.. كما لو أني لم أعد أنا.. لم يعد يهمني شيء.. عند بوابة الخروج همست أرجوه:

ـ لا أريد مغادرة الصالة، علينا الانتظار.. قد يعود فلا يجدني!

ـ هو الآن في الفضاء.

ـ أخاف أنه لا يزال بالداخل!

كنت أحدثه بصوت لم يعد صوتي.. انظر الشوارع.. لم تعد كما كانت قبل رحيلك.. رجوت تبعة:

ـ نبقى قليلاً؟

ـ سنجول معاً في شوارع صنعاء قبل أن أودعك!

ـ أين ستذهب؟

ـ إلى مكان آمن لدى أحد الرفاق!!

إحساس بالضياع غلف مشاعري.. توغلت لذة الدموع في أعماقي.. أستقللنا سيارة أجرة.. قلت له:

ـ قال لي حنظلة إن الرحلة لن تتجاوز الثلاث ساعات.. وبعدها سيكون في بغداد.

ـ صحيح.

ـ إذن ستكون معي في البيت لنسمع صوته معاً.

ـ لا يمكن المخاطرة.. البيت مراقب.. ينتظرون وصولي منذ سنين!!

ـ إذن خذني معك.. لا تتركني!

ـ أين؟

ـ أينما تريد، المهم أكون معك.

نظر بعينين ذابلتين.. ثم خرج صوته حزيناً:

ـ طوال الطريق من عدن وأنا أخشى هذا الموقف.

ـ المكان الآمن هو البيت.. هيا؟

ـ تنتظرني فوهات بنادقهم.. يمكننا أن نكون معاً في أحد الفنادق الصغيرة!!

ـ سيرتفع جرس هاتف بيتنا ولا يرد عليه أحد.. لماذا تجعلني بعيداً عن صوت ابني.؟ أود أن أسمع صوته.. وعندها أنا على يقين من أني سأشفى من كمدي هذا.

ـ ستكونين غداً في بيتك وستسمعين صوته.

ـ وأنت؟

ـ سأختفي.. كُتب عليَّ التشرد أو الموت.

□ □ □

اختار فندقاً يطل على باب اليمن.. نافذة على الشارع.. انكفأت على السرير أواصل نحيبي.. أمسح عيني.. أواصل النحيب دون هدف.. تبعة مشغول في دورة المياه.. يدندن لحناً قروياً تحت طرطشة الماء.

لاحظت عدم مبالاته حين خرج عارياً.. نحيلاً أكثر مما يجب.. شعر صدره خالطه الشيب.. عروق أطرافه نافرة.. ندوب وآثار جراح غائرة على ظهره.. ساقه اليسرى اعتراها نقص. حدثت نفسي.. هل هذا هو ذلك الفتى الذي سيطر على أحلامي لثلاثة عقود؟ من ظللت أصفه لحنظلة.. من هِمت به عشقاً!!

أحسست بأن عليّ أن أستوعب ما أنا عليه.

سمعت صوته يحدثني وقد انشغل ببسط أوراق جريدة على بلاط الغرفة. أخرج من جوف حقيبته قارورة شراب.. عطر.. لفائف خبز.. بقايا جبن أبيض.. عنقود عنب.. جلس القرفصاء.. التفت مبتسماً:

ـ سمبرية انهضي اللحظة.. سنحتفل بسفر ابننا الجميل.

كنت أرقبه في عطف.. وجه شاحب.. نظرات ضبابية.. عريه

الذي يظهر قوامه الهزيل. كل شيء تغير.. لم يعد له غير صبره الذي يبدو أنه افتقد بعضه. كان يملأ وجودنا أينما حل.. همس مبتسماً وهو يلوّح بكأسه فرحاً:

ـ الليلة سنحتفل. بنخب ابننا الجميل.

ـ اترك تلك القارورة؟

ـ اشربي لتعتريك النشوة وتنسي همومك.

ـ لن نحتفل بهذه الطريقة.

ـ سأشرب وحيداً!

ـ لمَ لا تكون من دون كحول؟

ـ وكيف أفرح؟

ـ ألا يكفي أننا معاً؟!

ـ لا أستطيع إلا إذا شربت!! أرجوكِ شاركيني نخب حنظلة.. أن تكوني سعيدة.. أن نصلّي من أجله.

ـ يكاد قلبي ينفطر حزناً.

ـ لا عليك، هيا تجردي من ملابسك كما كنا نفعل ذلك في جبال القرية زمان، أرى وجهك بهاءً.. وعيناك صفاءً.. وشفتيك لمعاناً.. أراك كما لو أن السنين لم تمر.. بل زدتِ أكثر جاذبية وفتنة.

ـ كلماتك تذكرني بأنك ما زلت تبعة.

ـ اخلعي ما عليك من زيف.

نهض منتشياً.. مد يسراه بكأس.. وبيمناه يرتشف كأساً أخرى.

ارتمى جواري. احتضنني.. أخذ يدندن.. أجلسني على حجره.. أنزل إزاري.. لثم صدري.. حملني.. أزال ما تبقى من ملابسي.. كنت مترددة.. هبطت من السرير.. برودة البلاط لذيذة.. أغمضت عيني أستعيد فتاي القديم.. استحضر اللحظات القديمة تحت عرائش الكروم.. وفي كهوف قريتنا.. مساقط الشلالات.. تركته يشعل ذكرياتي.. أظهرت تمنعي.

عاريان بلوعتنا.. تأجج جوعي الكامن منذ زمن.. احتضن عريي هامساً:

ـ دعيني أقبل قدميك.

بعث فيَّ شعور من تستعيد فتاها.. نثر لساني كلمات شبقة.. تصاعدت رغبتي باحتوائه.. لا أستطيع السيطرة على نفسي.. صدرت مني آهة طويلة.

استسلم لعبثي.. أتحسس بلساني أطراف شفتيه.. طعم الدم اللزج.. حاولت إثارته.. تجاوب مع رغبتي.. واصل خلق اللذة.. اعتصرت جسده الناحل.. واصلت جنوني.. التحمت وسط عواء آهاته.. مرت اللحظات..

انفجر نشيجه وقد اختلط بصراخ قوي! انقبض قلبي!!

حاول التراجع من على جسدي.. تشبثت.. حاولت استبقاءه.. إبقاء نشوتي متوهجة.. انسحب بعيداً.. صرخت كما لو أني ألفظ أنفاسي الأخيرة.. أجهشت باكية.. تمتم معتذراً.. هدأ كل شيء.

اكتفى بالصمت.. خالجني حزن نازف.. شعرت بعجزه عن مجاراتي.. فيما تدفق على قلبي طغيان اليأس.. تركني كعادته من دون اكتراث.. عاد لاحتساء قارورته.

كان غارقاً في نشوة الشراب.. نظراته الضبابية.. العينان الضيقتان.. لا أدري هل هو ذلك الفتى أم أنه شيء آخر.. عريه يحيله إلى طفل كسير.. كل شيء تغير.. لم يعد له غير ذلك الشراب ليصنع فرحته الخاصة.. أخذ يهتز طرباً على إيقاع لحن تنفثه شفتاه.. قال لي بعد أن عبّ من فم القارورة:

ـ اليوم نلتقي بعد فراق عشرين سنة.. هيا دعيني أتأمل بهاء وجهك.. لمعان شفتيك.. أراك كما لو كُنت حلماً.. الجنس لم يعد مهماً لدي.

صعدت سريري.. استلقيت عارية من دون اكتراث.. استمر يحتسي شرابه مرحاً.

اقترب بياض الفجر.

عاود محاولاته.. استسلمت دون تجاوب.. كلماته تخرج باكية.. أصابعه تنوح على ما تبقى من صدري.. سرتي.. عشب دُغلي.

شفتاه لم تتوقفا.. تركته يعبث.. انهار باكياً من جديد.. يجلد

ذاته بكلمات تخدش الحياء.. نهضت.. ضممته إلى صدري.. أواسيه بذكريات الماضي.

ارتفعت أدعية التهجد من مآذن مجاورة.. صوت صلاة الفجر.. نهضت أتأمل آثار أظافره.. تخثّر بقايا عضاته.. صدى مفرداته التي جعلت عواء جسدي أكثر جوعاً.. صوت نحيبه.

لم يكمل معي ما تبقى.. لبس في صمت.. حاولت أن أثنيه.. كان عنيفاً.. انصرف دون أن ينظر في عيني.. لم أستجدِ تواصله.. أدركت أن رغبته بالحب تعودت على البراري.

أشعر بفقدانه.. ألفت أن أعيش على الذكرى.. حل صمت وحدتي.. خرجت أهيم في شوارع صنعاء وحيدة.. ضاق بي إحساسي.

□ □ □

وليدي حنظلة..

عدت إلى البيت وحيدة.. أحمل جسداً لا أعرفه. فتحت غرفتك كنت على يقين من أني سأجدك تنتظرني.. غرفة صامتة.. كتبك.. دفاترك على الرف.. صورتك مع عدد من أصدقائك.. صور لنجوم الرقص.. شهادة كرتونية معلّقة.. سرير مبعثر كما تركته.. جهاز كاسيت.. أشرطة الموسيقى.. دببة ودمى ألبستها بعض ملابس طفولتك.

جلست على طرف فراشك أبحث وجودك في المكان. التقطت أحد دفاترك.. فردت أوراقك.. قلبتها. خطك المحبب إلى نفسي.. استنشقت رائحته.. التقطت قلم الرصاص (hb2).. أكتب إليك ضيق روحي.. إحساس الفراق. أنا على يقين من أنك ستبتسم حين تقرأ ما أكتبه إليك، لكنني وعدتك.. وها أنا أكتب إليك أولى رسائلي بعد ثاني ليلة غادرتنا. أنا أعلم بأنك ستحاول أن تتفهم ما قمت به حين جمعتك بأبيك.. أب تسمع عنه.. لم تقابله منذ خلقت.. ستقدر حرصي على جمعه بك قبيل مغادرتك.. أن يكون في وداعك.. كان علي أن أتخلص من هم ظل يلاحقني.. أنا لست مسؤولة عن تصرفاته.. ولا أتحمل وزر نزواته.. أعتبر لقاءكما انتصاراً لي.. لقد نجحت في آخر لحظة.. الآن لا يهمني شيء.

أنتظر مهاتفتك كما وعدت. قد تكون ظروف وصولك منعتك من الاتصال. أعتذر إن كنت قد بالغت في وصف (تبعة) طيلة سنوات خلت.. أكرر اعتذاري.. أرجو أن تعرف بأنني لم أبالغ.. لكنها السنين.. إضافة إلى ظروف حياته القاسية.. أو قد تكون عين المحب!!

لكن يجب أن تعلم أننا عشنا طفولة واحدة.. وعلاقتنا علاقة عضوية.. وعلي أن أعود بذاكرتي إلى سنوات طفولتي وتبعة في (حصن عرفطة) حتى تعرف.. أكره أن أقف موقف عزاء لحياة عشتها. اليوم أنت شاب مكتمل النضج.. ولهذا سأكتب إليك مشاعري بكل صدق.

بعد أن اختفيت في صالات المغادرة اكتشفت ضعفي الشديد. هذه الليلة الثانية من وداعك دون نوم. أحس بوجودك في بيتنا..

أبحث عنك.. أشعر بأنك ستظهر فجأة أمامي.. أجلس على حافة فراشك.. أضع الشراك لقلقي.. ومن خلال الكتابة إليك أروض أحاسيسي بقبول الواقع.. تغلبني عاطفة الأمومة.. أرجو أن تتواطأ مع أمومتي. اليوم عرفت أنك لم تكن ابني فقط.. بل صديقي، سأتغلب على خجلي وأكتب إليك كما لو كنت أكتب إلى نفسي. أجدني مُنساقة للكتابة دون توقف.

عزيزي

حصن عرفطة يوم ولدت.. حصن يضم عشرات الأسر. يقف وحيداً على لسان صخري، يشرف على فضاء وادي سحيق، تتفرع حوله الوديان الغائرة. سكانه في تكاثر دائم منذ مئات السنين.. مساكنهم شبيهة بأعشاش الطيور.. تتداخل في جهات وتتبعثر في جهات أخرى. دور متلاصقة، طوابق متداخلة، أسطح في مناسيب مختلفة. يدخل السكان ويخرجون من بابه الكبير. يسيرون في أوردته المتعددة.. أزقة وزرائب.. سلالم حجرية في كل اتجاه.

قبل أن أخرج إلى الدنيا بعقود وفد إليهم رجلٌ غريب.. تتبعه نساؤه ومواشيه الكثيرة. استضافوه سبعة أيام، طلب البقاء.. رفض السكان بقاءه داخل الحصن. استأذنهم ليبني داره على نتوء قبالة بوابة الحصن.. أعد وليمة كبيرة بعد أن أكمل بناءه.. دعا إليها كل سكان حصن عرفطة.. ثم أخذ يتقرب إلى بعضهم.. يقرض البعض.. يحل نزاعات البعض.

تطورت علاقته بسكان الحصن. أضحى ذلك الغريب أقرب الناس

إليهم.. نصبوه شيخاً عليهم. خلال سنوات أمست كلمته هي النافذة.. لم يلبث أن مد نفوذه إلى القرى المجاورة.

منزلنا في غرة الحصن.. يعلو منزل جدك بسطحين. حين نزوره. نهبط من سطح إلى آخر.. ثم إلى سطح جدك.. سبع درجات حجرية هبوطا إلى فسحة مشمسة. للحصن عدة دروب داخلية وعدة سلالم.. ظل يمثل لي متاهة حقيقية.

مات أبي قبل أن أستوعب ملامح وجهه. ترملت أمي ولم يتقدم لها أحد، وكثيراً ما تردد أنها نذرت حياتها لتربيتي.. والوفاء لذكرى أبي. تكرر رفضها لعشرات العرسان.. وأنها.. وأنها.. والحقيقة أن السبب في ترملها طبيعتها التي لا تطاق.. ثرثرتها وعدم كتم أي سر.. تُسيرها رغبة دائمة لنشر ما تسمعه.. حتى الكلام العابر.

دربتني أمي على بعض أعمال البيت.. جلب الماء.. أعمال الحقل.. ثم رعي غنيماتنا. (تبعة) يكبرني قليلاً.. نتعلم فك الخط على يدي فقيه القرية.. في البداية عارضت أمي أن أكون البنت الوحيدة بين مجموعة من الصبيان.. لكن جدك أقنعها بأن تبعة سيهتم بي.

وحيدي الغالي

في العام الثاني للقحط. واجهتنا محنة سجن جدك.. الذي كان في شتاء عام ١٩٧٧م حين بلغ الجوع مبلغه.. سكان حصن عرفطة لا يجدون ما يأكلون.. المواشي تنفق.. حتى الكلاب والحمير.. قصد السكان وبينهم جدك باب شيخنا الذي خرج مبتسماً:

ـ أتيتم في طلب الطعام أليس كذلك!؟

تقدم جدك مخاطباً الشيخ في خضوع:

ـ اشتد القحط ولا يملك رعيتك قوت يومهم.

ـ وما هو المطلوب مني؟

ـ أتيناك لتقرضنا بعض الحبوب.

ـ وكيف تسددونها!

ـ نتعهد أن نعيد ما ستقرضنا إياه مضاعفاً!

ـ ظلم أن تعيدوها مضاعفة.. ما أريده مقابل الحبوب أرضاً!

ـ أرضاً!

ـ نعم حقٌّ بحق!

ـ لكننا رجالك ورعيتك.

ـ إذاً تريدون سرقتي!

ـ لا نفكر بذلك.. فلا تظلمنا!

حين سمع شيخنا من جدك تلك العبارة غضب رافعاً صوته:

ـ تتهمني بالظلم.. أنت من تقودهم لسرقتي!!

صمت الجميع.. فيما تقدم شيخنا مهتاجاً.. هوى بعصاه عالياً ليهوي بها على رأس جدك. تصارخت الحناجر مستنكرة.. أمر شيخنا عسكره بتفريقهم.. ارتفعت السياط.. تعارك الجميع مع الجميع. كان تبعة يقف مذهولاً، لم يتمالك نفسه.. أخذ يبحث عن الشيخ بين المتعاركين.. قفز تحت دهشة الجميع ممسكاً برقبته.. بطحه أرضاً.. أمطر وجهه صفعات.. فر البعض هلعاً.. تعاون العسكر على سحبه.. ألقوه أرضاً.. التفوا يحاصرونه بسياطهم.. أدخلوه مع من أدخلوا سجن شيخنا.. غطت وجهه الكدمات.. آثار السياط على جسده.. استمر نزيف فمه.. يتأمل المكان.

جدار فاصل بين زريبة المواشي والبهائم. روائح مخلفات البهائم تتسرب من عدة شروخ.. ضوء خجول. يعرف تبعة من معه واحداً واحداً.. همس لأحدهم:

ـ متى يخرجوننا من هنا؟

تعمد أن لا يسمع رده أحد!

ـ الجميع خائفون عليك!

ـ ولمَ الخوف؟

ـ قد يأتي العسكر ويقتصون لفعلتك.

ـ أكثر مما أنا فيه. هل ستتركونهم؟!

ـ وماذا في أيدينا فعله؟

ـ لِمَ لا نخطط للهروب؟

ـ أعوذ بالله من أفكارك!

ألجمه منطق السجين. بعد صمت.. همس ذلك السجين لتبعة مرشداً وناصحاً:

ـ عليك أن تعود إلى صوابك.. ولا تفكر البتة بالهرب.. الصبر أجدى.. ألا تعلم أن الملائكة حين يستقبلونك بعد وفاتك.. سيسألونك عمن هو ربك ونبيك وشيخك.؟ وإن أخطأت في الجواب.. حلت عليك لعنة الله وسخطه.

ثم أخذ يستشهد: «وأطيعوا الله والرسول وأولِي الأمر منكم» وشيخنا هو المعني بأولي الأمر في الآية الكريمة.. وطاعته من طاعة الله ورسوله.. كيف تفكر بذلك؟ الهرب عصيان! ثم أين ستذهب إذا هربت؟ يجب عليك أن تعرف أن سجن شيخنا طاعة وولاء!

اكتشف تبعة فتحة في أعلى الجدار الفاصل لزريبة المواشي.. بطول السقف.

فكر بتسلق ذلك الجدار ليلاً. رسم في مخيلته ذلك الجدار.. اختزن نتوءاته.. شروخه.. المسافة الفاصلة إلى السقف. هدأ حتى غمر الجميع النوم.. تأكد من سباتهم.. ليل طويل.. أرهف السمع.. الصمت يحاصر المكان.. ظلام ناضج.. نهض.. تسلق في بطء شديد.. تخيل نفسه سحلية ضخمة.. استمر بطيئاً.. لم يحدث ما يعكر تسلقه.. اكتشف أن المسافة أقصر مما كان يتوقع..

خفق قلبه فرحاً حين لامست أصابعه السقف.. الفتحة مناسبة لعبور جسمه الناحل.. دس رأسه أعلى الجدار.. روائح عطنة.. ظلام دامس.. يتخيل تضاريس الجانب الآخر.. عبر بجسمه.. أمسك بأعلى الجدار.. تدلى بجسمه في فراغ.. تلمست إصبع قدميه عن فراغات.. شفاه أحجار الجدار.. أخذ يهبط حذراً.. بعد جهد لامست قدماه كتلة لدنة.. تبين أنه حيوان رابض.. سريعاً ما نهض.. هاجت الزريبة.. هدأ قليلاً حتى هدأ كل شيء.. لامست أقدامه أكوام روث.. بدأ يبحث عن باب.. سار في هدوء تستدلّ أصابع كفيه الحائط. وصل أولى زوايا الزريبة.. قدماه تغوصان بطبقة لزجة من الروث.. صادف عدة أركان وزوايا صخرية.. يدور في حلقة مفرغة.. متاهة مظلمة.. الليل يمر.. عيناه في أوسع اتساعهما.. لم يصدِّق أن كفه قد لامست خشباً لا صخراً.. باباً على ما يبدو.. تعرفت أصابعه على الباب.. زادت ضربات قلبه.. إنه ما يريده.. بحث عن المزاليج.. عاد إلى الوراء.. اصطدم بجسم حيوان كبير اقترب منه للتو.. في البدء خمن أنه ثور.. تملكه الذعر من المجهول.. ابتعد بهدوء.. بحث في عجالة عما تبقى من مزاليج.. مرَّ الوقت وقد مسح الباب.. تسلق أعلاه.. كان للباب فرخ يتوسطه.. أخيراً اكتشف مزلاجاً ضخماً ينغرس في كوَّة صخرية.. أزاحه بعد جهد.. بدأ الباب العملاق يتحرك.. سحب أكثر.. أكمل فتح الباب.. أمامه خطوة ليكون في الخارج.. وهج لبني في سماء القرية.. صفعه تيار بارد.. شبح الحصن يقف على ربوته.. سواد الجبال البعيدة.. ضوء الفجر يصعد الجبال الشرقية.. تذكر ما قاله له ذلك السجين ليلة البارحة: «أين ستذهب إذا ما هربت؟».. كان متردداً.. لم يفكر من ذي قبل في المكان الذي سيلجأ إليه.. اكتشف أن الحرية صعبة.. قرر أن يعرج على أبيه.. تسلل في حذر عبر بوابة الحصن.. ما أن طرق الباب حتى فتح..

احتضنه.. سأله بصوت مرعوب:

ـ كيف هربت؟ وجودك هنا خطر على حياتك.

ـ أنا في حيرة من أمري.. لقد أتيت إليك كي تُخبئني!

ـ سيأتون فوراً إلى هنا للبحث عنك!

ـ إذاً أين أهرب؟

ـ اخرج من هنا الآن.. اتجه نحو الجبال الجنوبية.. أنت تعرف (مغارة الجن..) هناك عند قمم الجبال الجنوبية.

ـ نعم.

ـ يمكنك أن تختبئ هناك حتى نرى ما يكون.

خرج متسلّلاً.. هبط منحدرات الوادي.. عبر مجرى السيل.. المزارع الترابية.. صعد التلال.. السفوح.. الجروف.. كان ضوء الفجر أكثر قوة.. ونجيمات السماء تختفي واحدة إثر أخرى. وصل قمة الجبل.. دخل مغارة الجن.. أخذ يكتشف زواياها.. موحشة ببقايا من سبقوه إليها.. وضع لحافه وصرة الخبز.. عاد إلى حلق المغارة. اقتعد حجراً.. أخذ يراقب قمم الجبال البعيدة تلامسها خيوط الشمس الآخذة ببسط لحافها على الحصن ووادي القرية.

3

العطوي

«٣» صغيري حنظلة..

بعد مغادرتك إلى العراق حل بقلبي الشعور بالفقد. أبحث حولي عن شيء ينقصني. عن أنفاسك صوتك. تيقنت أن أسرتنا مصابة بآفة الفراق.. سؤال ينخر عقلي: لمَ كُتب أن نعيش الشتات؟ هذا أنت تسافر.. تمر الأيام ولا تفكر برفع سماعة الهاتف.. أنتظر مكالمة منك تطمئننا عن أحوالك.. أتخيل صوتك يتدفق.. أهرول مسرعة لسماع جرس الهاتف.. أكتشفه شخصاً آخر وقد أخطأ الرقم.. كل الأصوات لا تشبه صوتك.. تبعة، حين حضر لوداعك غادرني دون صدى.. زوجة جدك وحيدة في قرية الحصن منذ اقتياد جدك إلى سجن لا نعرف عنوانه.. وإن كان الجميع يعرف بأن شيخنا وراء احتجازه. أمي تلك الثرثارة العجوز تركتنا إلى صمت لم نعهده.. لم تعد تهتم لشيء.. تفضل أن تركن إلى نفسها.

ابني الغالي..

أنا لا أحدثك في رسالتي هذه عن سجن جدك القديم. أنا أكتب إليك عن سجنه الأخير.. فبعد وداعك له بأسابيع هطلت أمطار لم تعرفها قريتنا من ذي قبل.

يردد سكان قريتنا أن العصافير اختفت من فضاء الوادي فجأة.. صمتَ الكلاب ليحل أزيز ريح العاصفة. تطاير ورود التين الشوكي.. أشجار السفوح.. حُجبت الشمس خلف سحب أرجوانية هبطت لتغمر الجبال والوديان. عاش الناس في ظلام دامس إلا من لمعان البروق وأصوات الرعود. سكبت السماء مياهاً غزيرة، تهدر السيول جارفة كل ما في طريقها.. اقتلعت الأشجار.. صخور المرتفعات.. طين الأرض.

في اليوم الأخير خرج الرجال باتجاه منحدرات الوادي. أطلّت النساء من أسطح الدور.. شلالات لبنية تملأ أخاديد الجبال الجنوبية.. لم يجد جدك من يساعده في خراب الوادي.. كان يعزي وحدته وعجزه باستحضارك.

أغمض عينيه يتأمل حيرته.. يبتسم بمرارة.. يرقب تدفق السيول العالية وهو يتلو: « ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون».. تمتم: لو كان حنظلة هنا لاختلف الأمر.

ينشد: «وفي الصباح.. في ميعاد تقديم المحرقة دوّى هدير مياه متدفقة من طريق أدوم.. ففاضت الأرض بالمياه».

تسللت خيوط شمس ذاوية في استحياء. صعد جدك وزوجته سطح المنزل، خرج سكان القرية.. البعض تجمع عند أطراف اللسان الصخري المطلّ على الوادي. عادت أسراب العصافير تنفض أجنحتها.. شلالات ناصعة البياض تخضب الجبال.. كلاب القرية تتسكع.. الوادي تغمره المياه.. نهر واسع بلون الطمي.. أجداث الأشجار تطفو يحملها إلى المجهول.. صوت جريان السيل يصم الآذان.

ـ أين ذهب الوادي؟

نطقت زوجة جدك بسؤالها وهي تتدثر بستارتها.. ليجيبها جدك بصوت حزين:

ـ سنعرف بعد أن ينخفض منسوب السيل.

ـ لم يحدث هذا من ذي قبل.. أليس كذلك؟!

ـ بل حدث خراب شبيه بهذا قبل خمسين عاماً.

غابت الشمس خلف الجبال البعيدة.. خيَّمت ظلمة حالكة من جديد.. عاد السكان إلى مواجعهم.. استمر هدير السيل حتى فجر اليوم التالي.

خيوط الشمس تنير الكون من جديد.. الوادي أصبح أخاديد غائرة.. بدأت النسوة بالنواح.. السيل جرف طبقة الطمي وتركه عارياً إلا من بقايا صخور وجذوع أشجار. روائح الخراب عمَّت الوادي.. بكاء جماعي يتعالى.. الأطفال يصرخون فزعاً.. الكلاب

تعوي.. جلس خلف النافذة.. ارتد نظره إلى مصحفه الأحمر يقرأ: «طوبى للمساكين بالروح.. فإن لهم ملكوت السموات.. طوبى للحزانى.. لأنهم يعزّون.. طوبى للودعاء فإنهم سيرثون الأرض.. طوبى للجياع والعِطَاش إلى البر فإنهم سيشبعون.. طوبى للرحماء لأنهم يرحمون.. طوبى لأنقياء القلب لأنهم سيرون الله.. طوبى لصانعي السلام فإنهم سيدعون أبناء الله». دمعة هاربة على خده المتغضن.. أنين رياح المنحدرات والجبال البعيدة.. واصل قراءته: «الله الذي خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوةً ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً يخلق الله ما يشاءُ وهو العليمُ القديرُ».

عدة أيام وجدّك لا يخرج من بيته.. يقضي ليله ونهاره في ترتيل صلواته.. حاسر الرأس يهتز بهدوء أمام مصحفه الأحمر.. يحادث زوجته المتكورة في الزاوية القريبة.

ـ أشعر بحنظلة قريباً منا!! يحضر في صلواتي.. في ظلمة ليلي.

يصمت.. ترد عليه من بين كثبان النعاس بهمهمات غير واضحة. ثم يواصل:

ـ ألا تشعرين بوجوده معنا؟

ـ هاه..!

ـ أشعر بروحي تسافر منذ الأزل.. من جيل إلى جيل.. باحثةً عن راحةٍ أبدية.. هاربةً من الشقاء.. كما لو أنها خليط من النور والظلمة.. تبعث السعادة في أحدهم.. وفي آخر العذاب.. إن تلك

الروح التي حلَّت في جسدي لم تنقسم يوماً كما تنقسم الأرواح الأخرى. وقد حافظت على توحدها منذ السلف الأول إلى الأبناء حتى اليوم.. لقد عاشت في عصور عدة باحثةً عن يقين.. ولا تعلم ماذا بعد؟ شقاء دائم.. في طريقه للبحث عن الخلاص.. أزمنة عتيقة رُتلت فيها المزامير.. هل تسمعين؟

ـ آه.. آه.

ـ الروح التي تواجه الصعاب بالصلوات.. واستيعاب العذاب بالتراتيل..

تخلق السعادة من العدم.. أتسمعينني؟

ـ آه آه.. فقط اتركني أنام.

أدرك جدك أنه يحدث نفسه.. نهض ودثرها بلحافه.. تلا: « الله يبدأ الخلق ثم يعيدهُ ثُمَّ إليهِ تُرجعُون».. فهذا ما قاله الرب: «سأخرب الأرض كلها، لكني لا أفنيها».. فتنوح الأرض نواحاً وتظلم السموات من فوق. أنا تكلمت ولا أندم ، وعزمت ولا أرجع عنه.

□ □ □

تغلب بعض سكان القرية على خوفهم بالهبوط إلى الوادي.. حملوا معاولهم.. لم يجدوا مزارعهم.. البعض بدأ بتخمين موقع مزرعته كمن يقفز في الظلام. البعض اعترض بحجة أن الأرض أرضه.. لم تلبث أن انتشرت الخلافات حول تحديد مواقع المزارع التي جرفها الماء. دوى صوت طلق

ناري.. حلَّقت العصافير مذعورة.. فر البعض نحو اللسان الصخري.. وقف من كان في الوادي.. ومن كان في المرتفعات المطلَّة.. خرج جدك يستطلع الأمر.. أصوات تأتي من السفوح واضحة:

ـ لقد قُتلت امرأة وزوجها في الوادي!!

دوت طلقات أخرى.. كانت أشد وضوحاً.. اتضح فيما بعد سقوط قتيل ثالث.

أحكم الخوف مخالبه على قلوب الرعية.. اختبأ الرجال.. رددت الجبال أخبار قرية حصن عرفطة.. وصلت الأخبار إلى مسامع شيخنا بصنعاء.. وسريعاً ما أرسل عساكره.. لإيصال وجهاء قريتنا، كما وجّه في رسالة يدعوهم إلى عدم النزول إلى الوادي.. واعداً إيَّاهم بالوصول إليهم. والبحث عن وسيلة لتعيين حدود حيازة كل مزارع. استجاب جميع الرعية.. نشط بعض المتحذلقين في رحلات مكوكية إلى صنعاء ينقلون تفاصيل ما يدور.

أخيراً وصل أحد أنجال شيخنا برفقة مجموعة من المعاونين إلى دار فقيه قريتنا. نزل عقب وصوله ومرافقيه.. تتبعه مجاميع السكان إلى الوادي الخراب.. أخاديد غائرة.. جذوع ميتة.. أكوام الأحجار تحتل مساحات واسعة.. مسطحات مشوهة.. ارتفعت أصوات الرعية تستغيثه سرعة البت.

ازدادت المشكلة تعقيداً بتعدد الآراء والمقترحات لتحديد موقع كل مزرعة.. قدم الفقيه مقترحاً يقضي بأن يبرز كل مزارع ما لديه من

وثائق تثبت ملكيته.. وبعدها يتم تحديد حدود كل مزرعة بموجب وثائقها.. استحسن الجميع الرأي.

دوى مكبر صوت المسجد: «الحاضر يعلم الغائب والصاحي يعلم النائم أن على جميع من يملك أرضاً في الوادي سرعة تسليم ما يثبت ملكيته من وثائق إلى ابن شيخنا.. حتى يتم الفصل وتحديد حدود كل مزرعة بموجب ما تنص عليه الوثائق...».

وسريعاً ما تقاطر الجميع حاملين ما يثبت ملكياتهم. استمر تسجيل البصائر ثلاثة أيام.. بقي عدد قليل معلنين رفضهم تسليم وثائقهم. كان جدك بين الرافضين. عاد ابن شيخنا إلى صنعاء للتشاور مع أبيه.. الذي أمره بالعودة إلى القرية لإنذار من تخلف. واقتياد من صمم على موقفه إليه. جمع الابن أعوانه.. عائداً إلى قرية الحصن للمرة الثانية.. تم إنذار من لم يسلم ما يثبت ملكيته. استمر إعلان الإنذار يتردد عقب الصلوات الخمس لمدة ثلاثة أيام.

سلم من تبقى.. وبَقيَ جدك الذي صمم على موقفه. انتشرت الوشاية بين السكان وحبْك الدسائس.. أضحى للنميمة حيِّزٌ في مجلس ابن شيخنا.. تفاصيل ما تردده الألسن... أمسى كل فرد يخطط للاستيلاء على غير ما يملك.

فاوض وجهاء الفقيه جدك دون جدوى. هدد ابن الشيخ في لقاء جمع رعيته قائلاً:

ــ شكراً للجميع، لكنه العطوي الذي يريد أن يشعل الفتنة برفضه تسليم ما يثبت ملكيته. لقد أوصاني أبي برعيته خيراً وأمرني

بمعالجة مشاكلهم ومنع حدوث أي فتنة فيما بينهم. وأنا اليوم أقف بينكم محتاراً. إذ لا يمكن أن نبدأ بالنزول إلى الوادي إلا بعد أن يسلم الجميع ما يثبت ملكيتهم.

صمت ابن الشيخ منتظراً الرد على ما قاله لهم. نهض الفقيه متحدثاً:

ـ يجب أن يكون لنا موقف حازم من العطوي.. وأقترح أن نصطحبه معنا إلى صنعاء لمقابلة شيخنا الكبير وهو يقرر ما يشاء.

اقتيد جدك إلى صنعاء.. وفي مجلس الشيخ لم تحدث مفاوضات. حين قال لهم الشيخ:

ـ لن نستطيع إعادة توزيع المساحات الزراعية للوادي إلّا بجمع كافة الوثائق. ومن يرفض سنعتبره عدواً لجميع رعيتي وسأعلن عدم أحقيته في الوادي.!

ساد الصمت.. الجميع ينظرون إلى وجه جدك.. يبحثون عما وراء حديث الشيخ.. إلى أن نطق جدك:

ـ أنا لست ضد تحديد مواقع المزارع، لكنني أعرف حدود مزرعتي.

رد الشيخ مقاطعاً.

ـ لم يعد هناك حدود ظاهرة لمكان مزرعتك.. وإن لم تسلم ما يثبت ملكيتك فلن يكون لك أرض بعد اليوم.. وعليك بالرحيل من القرية!

أكمل الشيخ جملته غاضباً ينتظر.. فرد الصمت أجنحته.. تبادل الحاضرون النظرات والكلمات همساً.. أشار الفقيه بأصبعه صارخاً في وجه جدك:

ـ إذاً أنت تتحدى الجميع! نحن نعلن براءتنا منك.. وليس فينا من يؤيدك.

هلل الجميع موافقين لما قاله الفقيه.

عاد جدك إلى الحصن حين قال له الشيخ:

ـ ستعود معهم، أرجو أن تفكر في الأمر، لا يليق برجل في سنك أن يشذ عن الجماعة. ثم وجه حديثه للجميع:

ـ بارك الله في رعيتي.. هكذا تكسبون رضاي.

بهذه الكلمات صرف شيخنا من كانوا لديه.

بعد أيام وصلت الوادي مجموعة من المعدات الزراعية.. أخذت في إصلاحه.. احتفل الفلاحون.. تم توزيعهم إلى فرق عمل.. تصاعد الغبار.. تعالت قعقعة المعدات.. الأهازيج.. استمر العمل ليلاً ونهاراً.. استكمل إصلاح مجرى السيل.. إزالة ما تراكم من صخور.. دفن الأخاديد بالطين.. أضحى الوادي خلال أيام صفحة مترامية الأطراف.

انتظر المزارعون خروج الشيخ لوضع علامات حدود الملكيات.. مرّت عدة أيام والجميع ينتظر.. بعثوا بمن يستحث شيخنا على الخروج لتوزيع الأرض. استدعى شيخنا وجهاء الحصن إلى ديوانه

بصنعاء.. فاتحهم.

ـ اليوم يجب أن يعرف الجميع أنني قد أنفقت مبالغ كبيرة على إصلاح الوادي.. وقد طلبتكم اليوم لأبلغكم وأبلغ من لم يحضر عبركم، أن الذي يريد أرضاً عليه أن يسلم ما صرفته في إعادة الوادي إلى سابق عهده! لن يكون لأحد أي حق في الوادي بعد اليوم!! لقد كلفني الوادي عشرات الملايين.

ساد الصمت والذهول وجهاء حصن عرفطة.. تحدث أحدهم بصوت خافت وخجول:

ـ لكننا علمنا أن تلك المعدات تابعة للدولة. ما تقوله أيها الراعي الكريم لم يكن في حسبان أحد.. ولا يملك أي من رعيتك ما تدعيه!

ـ ماذا تنتظرون مني؟

ـ ننتظر كرمك ورضاك علينا!

ـ اسمعوني جميعكم.. لن أكون قاسياً معكم.. وعلى من يريد أرضاً أن يختار أحد الأمرين! إما أن يدفع ما غرمته وإما يحرر طلب استئجار ما يريد من أرضي!

ـ الأرض أرضنا فكيف تحولنا إلى أُجراء؟

ـ لقد أصبح الوادي من أملاكي.. ومن لديه رأي آخر فأذني له صاغية!

ابتسم شيخنا وهو يشير بكفه بأن المقابلة انتهت. تدافع العسكر بعصيهم وأعقاب بنادقهم.. أخرجوا الجميع يغشاهم شعور بالضياع والمهانة.. صمت إلا من صدى كلمات شيخنا تدوي على مسامعهم.. يحاول كل منهم أن يستوعب الموقف.

□□□

ابني الغالي

سأعود بك إلى شتاء ١٩٧٧ لأكمل لك حكاية السجن الأول لجدك.. حينها لم تكن أنت قد خُلقت بعد، فبعد فرار تبعة من زريبة شيخنا طلب منهم تحديد موقفهم مما حدث قائلاً لهم مرتعداً:

ـ من منكم راضٍ عن المارق تبعة؟ لقد شوه سمعتكم ومرغ كرامتكم.. فمن منكم يتلمس العذر له؟

رفع الفقيه صوته مشيراً إلى الواقفين قائلاً:

ـ لا يوجد بيننا من يرضى عن ذلك السفيه يا شيخنا.. إننا نعاهدك بأن نأتي به إلى بين قدميك حياً أو ميتاً.

ـ لن أرضى على من يتعاطف معه.

كان جدك بين الحضور يستمع حزيناً.. أشار الشيخ إليه قائلاً في تهكم:

ـ وأنت ماذا تقول؟

بجملته جعل الشيخ جدك في مواجهة الجميع. مسامعهم تنتظر وأعينهم إليه تترقب.. صمت ينتظر بإشفاق.

خرج جدك من بينهم صامتاً.. يسير مبتعداً في حيرة.. يتابعه الجميع في دهشة. صرخ فيهم الشيخ:

ـ أترونه ينصرف متحدياً لكم.. هل شللتم؟ هيا أعيدوه إلي!

التفت جدك إليهم قائلاً بصوت هادئ:

ـ لا داعي لأن تعيدوني.. أنا منكم ولن أشذ. أتريدون شيئاً آخر مني!؟

بهذا تخلص جدك من مصيدة شيخنا الأولى، لكنه ظل يبحث عن حيلة أخرى. ابتعد عنهم جدك.. سار وقد ضاعف حقد الشيخ عليه. عاهد الجميع شيخنا بأن بالاقتصاص لكرامتهم المهانة بين سكان القرى والقبائل المجاورة.. وأنهم سيعيدون تبعة ولو جثة منتفخة.

تبعة اعتمد عليَّ في تزويده بأخبار الحصن. كنت صلة الوصل بكل ما يدور في قريتنا. ما زلت أتذكر أول لقاء بيننا في مغارة الجن.. يومها صعدت بغنيماتنا سفوح ومرتفعات الجبال الجنوبية في حذر.. سلكت مسالك خطرة.

اليوم لا زلت أتذكر بعد أكثر من ثلاث وعشرين سنة كل شيء.. أعيش التفاصيل الصغيرة وكأنها الآن.. اعترَف بأني لم ألفت انتباهه من ذي قبل.. قال إنه كان ينظر إلي على أني مجرد طفلة ساذجة.. يراني مع غنماتنا في منظر يثير الشفقة.. أو يراني أساعد أمي.. أو في زيارتهم.

أنا بدوري أخبرته أني لم أشعر به من ذي قبل. لم يكن كلامي رد فعل لكلماته.. وإن كانت عبارة: «منظر يثير الشفقة» قد حزّت في نفسي قليلاً حين نطقها. منذ أول لقاء أرى فيه فتى أحلامي.. لكنني لم أفصح عن مشاعري.. فبعد هروبه من زريبة شيخنا أضحى حديث كل سكان حصن عرفطة.. وبالذات النساء.. بل إن بعضهن باركن لي كونه ابن خالي.

في ذلك اللقاء وصلت إليه. لم أعرف أنه كان يراقب صعودي في حذر.. يرصد كل تحركاتي من مكانه العالي.. يتشوّق لمعرفة ما يدور.. يراقب الناس.. يراهم كالنمل يتحركون في كل اتجاه.. لا يسمع أصواتهم.. فقط نهيق الحمير يصله ونباح الكلاب.. يومان قضاهما في تشرد وجوع وبرد.. كان يرى الناس ينحدرون إلى الوادي.. يفلحون.. ليعودو في نهاية النهار.

فرحتي لا توصف حين رأيته على شفة مغارة الجن.. كان يسكنني خوف مبهم.. صعدت باتجاهه.. تركت غنماتي ترعى.. حدثت نفسي وأنا أراه.. «قد يكون أحدٌ ما يتبعني.. يراقبني..» كان قلبي يرتجف وهو يهبط نحوي. في البدء ارتفع صوتي أدعو كلبي أن يأتي إليَّ. قذفت بحصوات صغيرة في الهواء.. أدندن كيفما اتفق.. ليلهو الكلب حولي.. لوح بكفه مبتسماً.. تقدم نحوي وهو يلوح بيديه.. خف الشعور بالخوف.. تبخر اضطرابي.. هذه هي المرّة الأولى التي عرفت فيها أنني أنثى أقابل تبعة كذكر.. لا أعرف لماذا الآن ولدت الأنوثة؟ أخذت أرتب كلماتي.. وجدت فمي بدأ بالنداء:

ــ تبعة.. تبعة.

لوَّحت له بارتباك. يا لقوة إرادته.. أشار إلي صارخاً دون ذعر:

ـ سمبرية!!

تقدم نحوي وكلبي يلعب حولي.. مَدَّ يده ليصافحني.. نظرت إلى عينيه.. اجتاحتني سعادة لم أعرفها من ذي قبل.. هو ليس ذلك الصبي الذي خشيته للتو.. بدأت أحكي له.. كما لو كان علي أن أحكي فقط.. عرف مني أن الناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى من فقأ أعينهم.. وأنهم يعتبرونه خصم الجميع.. وبفراره من عقاب شيخنا قد أذلهم وأهانهم أمام سكان القرى المجاورة.. وأنهم يبحثون عنه للانتقام منه.

كنت أفند آراء سكان الحصن. لم يسألني عن رأيي. حين أكملت سرد معلوماتي صمت في ضيق.. ثم قال:

ـ وأمك؟!

دوائر الدهشة تتسع.. لماذا أمي؟ أجبته في ارتباك:

ـ أمي تعتبرك مارقاً. تعلن إشفاقها على أخيها.

ـ وزوجة أبي؟

ـ هي من طلبت مني بأن آتي إليك. تدعو لك كثيراً.

ـ وأبي!!

ـ لا يتكلم إلا قليلاً. لقد فرض عليه إعلان تبرئته منك نوعاً من الشك!

ـ إذن شيري علي.

ـ أنا!!

ـ نعم.. أنا مشوش.. أشعر بالضعف.

ـ إنهم ينوون الشر بك!

ـ إلى متى أظل هنا؟

ـ لا أعرف.. أين تنام؟

ـ في هذه المغارة.

ـ والبرد؟

ـ مقدور عليه.

ـ من أين لك بالطعام؟

ـ ألاحق العصافير والجنادب. جربت ثمار بعض الشجيرات.. تذوَّقت أغصاناً عدة.. جرَّبت نزول الوادي ليلاً.. أجمع ما أجده من بعض الخضر.

في ذلك اليوم شاركني طعامي.

كان حريصاً على أن أبقى معه أكثر وقت ممكن.. لكنني ودعته في خوف من العيون.. اتجهت غرباً.. منحدرات سحيقة.. كنت حذرة من ذكر لقائنا لأي كان.. يرقبني حتى اختفيت في الشعاب الغربية. كنت أفكر في حالته على قمم تلك الجبال.. تحاصرني ملامحه الحزينة.. كلماته.. وجهه المدور الناحل.. نظراته إلى عيني.. صوته يودعني.. نمت ليلتها بصعوبة.. أتخيل ذلك الصبي وحيداً.. يكاد قلبي ينخلع من الخوف عليه.

في اليوم التالي صحوت قبل شروق الشمس مع رائحة دخان

المواقد.. خرجت أراقب الجبال الجنوبية من سطح بيتنا. لا أرى شيئاً.. لم يحتمل قلبي ما يحمله.. هبطت أخبرت زوجة جدك:

ـ سأكرر زيارته اليوم.. هل من رسالة أو تَزويدَة طعام؟

قالت لي:

ـ لا بأس.. لكن عليك بالحذر.. ويجب أن تفرقي بين زيارة وأخرى.

خرجت بأغنامي وأنا مشغولة به. لم أختر شعاب الأمس الغربية، اتجهت نحو السفوح الشرقية. قطرات الندى على كل شيء.. الصخور.. أوراق الأعشاب.. الزهور.. عصفور ينفض ريشه على صخرة قريبة.. يغرّد.. يلتقط فراشة ثم يطير.. حدثتُ نفسي بزيارته.. خططت.. سأقوم بمناورة للوصول إليه.. كانت الشمس تصعد وجه السماء وأنا أسير بأغنامي بعيداً.. كنت على يقين من أنه يراقبني.. شيء من الحزن.. انحرفت قليلاً نحو التلال.. دخلت بأغنامي شعباً كثيف الأشجار.. صعدت سفوح جبل مغارة الجن.. ثم انحرفت شرقاً باتجاه موقعه.. رأيته عالياً.. هبط نحوي فيما كانت أغنامي ترعى.. الكلب يسابقني إليه.. فاجأته حين أخرجت من تحت بردعة الحمار بندقية جدك.. شريط رصاص.. لحافاً.. وكيس خبز وسكيناً.. عدة علب كبريت.. شعر بأني صبية يعتمد عليها. قال لي هذا ما كان ينقصني.. كانت عيناه حزينتين رغم ابتسامته المتكررة.. كلماته مرتبكة.. لا ينظر إلى عيني. قلت له:

ـ لا أحد يعلم بمكانك إلّا أنا وزوجة أبيك وأبوك.

ـ وأمك؟!

ـ أمي.. أرجوك لا تعتقد أنني ضعيفة حتى أحكي لها.

ـ لكنها أمك.. وإلا فمن تحدثين!

ـ أنا أعرف كيف أخفي أسراري منها.

ـ متى ستزورينني؟

ـ زوجة أبيك.. هي أدرى.

ـ كيف؟

ـ بعد اليوم هي من توجهني.

ـ سأنتظر عودتك.

ـ بقاؤك هنا خطر على حياتك.

ـ وما هو العمل؟

ـ هل تعتقد أنك تستطيع التخفي إلى الأبد؟ غداً سيصلون إليك.. هل تنتظرهم حتى يحاصرك رصاصهم؟

ـ سأتنقل من جبل إلى جبل!

ـ مهما تنقلت هنا أو هناك.. سيصلون إليك حتماً!

ـ إذاً أعيدي البندق والرصاص!

ـ لمَ؟

ـ سأرحل من هنا.. لا أحتاج لها!

ـ أين سترحل؟

ـ سأرحل من هنا بعيداً.. لكني لا أعرف طريقاً أسلكها؟!!

4

شيخنا

«٤» ولدي الغائب..

لم يجرؤ أحد من سكان قريتنا على العودة إلى صنعاء لطلب الأرض من شيخنا.. إلا أن عدداً ممن لا يملكون أرضاً في الوادي رابطوا أمام بيته لعدة أيام.. حتى خرج لمقابلتهم:

ـ ماذا تريدون من إلحاحكم؟

انبرى أحدهم يتكلم باسمهم.. قال في صوت خافت وعيناه في الأرض مصوبتان:

ـ نستعطف كرمك.. نستجدي إحسانك.. فنحن لا نملك أرضاً في هذه الدنيا. ونرجو أن تجود نفسك الكريمة بإعطائنا أرضاً نعيش وأسَرَنا منها.

ـ لن تعودوا خائبين وسأعطيكم ما تريدون.. على كل راغب

تحرير صك استئجار بالمساحة التي يحددها.. على أن يسلم لي نصف غلة ما تنتج الأرض في كل موسم.. وله ولأولاده النصف الآخر نظير عمله وعنايته بالأرض!.

علم سكان القرية.. تسابق عدد آخر لاستئجار أرض أخرى من شيخنا.. تم تحرير عقود الأرض لدى فقيه قريتنا.. تقاطر عدد آخر من السكان.. لجأ البعض لاستشارة جدك.. حدثوه بيأس عما يشعرون به من غبن وقهر.. وأن عدداً كبيراً ممن لا يملكون أرضاً قد استحوذوا على أرضهم.. قال لهم وهو يبتسم:

ـ ماذا تتوقعون أن أقول لكم.! إن ماء البحر يروي شاربه عطشاً.. وسراب الصحارى دعوة لملاحقة الوهم.

ـ لكننا أتينا إليك كي نعاهدك على المضي في استرداد أرضنا. ولم نحضر لسماع المواعظ.

ـ سيقول أحدكم: نحمل البنادق لنسترد مزارعنا.. ويقول البعض بل نحرق منازل كل من استأجروا الأرض من الشيخ.. وآخر يفكر بالانتقام من الشيخ نفسه. وأنا أقول لكم احملوا المعاول وهيا نفلح الوادي.. ولن يكون أحد رحيماً بكم إلّا إذا تراحمتم.. لا تعطوا الآخر ذريعة سلبكم ما تملكون.. اصبروا.. تحابوا.

ـ لن يتركنا المرتزقة وعساكر الشيخ.

ـ دعوهم يفعلوا ما يشاءون.. من سقط دون حقه أو عرضه فهو شهيد.

ـ هل ستأتي معنا إلى الوادي؟

ــ نعم سأهبط المنحدر وأعمل على إصلاح أرضي.

اعتلت الشمس عرشها.. صبغت كل شيء بنورها. الكل يجرح الأرض بمعوله.. الكل يعمل بهمة.. استمر العمل لساعات.. اعترض بعض أجراء الأرض.. بدأت اشتباكات متفرقة.. ثم دوت طلقة رصاص. رددت صداها الجبال. رفع الجميع قاماتهم.. ارتفعت أصوات تتساءل.. صرخات من أعلى الوادي.. ما لبثت أن تحولت إلى عويل ونحيب متواصل.. هرول البعض يستطلع الأمر نحو مصدر الرصاص.

ــ لقد قُتل أحدهم.

قالها أحد العائدين من مسرح الدم.

ــ من القاتل؟

ــ لم يجزم أحد بمن يكون الفاعل.

ــ علينا أن نلزم الحذر.

ــ ستنجلي الحقيقة ولو بعد حين.

دوت طلقات أخرى.. ثم تلتها طلقات متتالية.. انسحب من في الوادي.

قبيل مغيب الشمس وصل عدد من الملثمين على سيارة جيب إلى ساحة قرية حصن عرفطة.. قيل إنهم من رجال شيخنا أرسلهم لحقن دماء رعيته.. وقيل إنهم من طرف الحكومة. اختبأ السكان في منازلهم.. اتجه الجنود إلى بيت جدك.. لم يستأذنوا أحداً.. كسروا الباب.. اقتادوه حاملاً مصحفه الأحمر تحت إبطه.. وضعوه

في حوض عربتهم ومضوا متجهين به إلى صنعاء. حاولت زوجته منعهم.. تعالى نحيب النساء.. سكان القرية احتموا خلف نوافذ منازلهم. لم يجرؤ أحد على الخروج.

امتنع المزارعون بعد ذلك اليوم عن نزول الوادي.. أجراء الأرض هم من سيطروا على مساحات الوادي.

لم نعرف لمكان جدك طريقاً.. مرت عدة أسابيع من البحث قبل أن يهمس أحد الأجراء أنه رافق شيخنا ذات مساء إلى قبو فسيح تحت داره بصنعاء.. وقد شاهد جدك هناك بملابس مهلهلة.. تعلوه طبقة من الزقر، شعر رأسه الأبيض مشبع بالأتربة.. شعر لحيته كتلة.. عيناه تسافران إلى ما لا يرى.. وقد ألحق به سجينان لا يعرف من أين أتي بهما؟ أحدهما يحدث الفراغ.. الجدران.. صوت متواصل.. يتدفق حديثه دون وعي.. أما الآخر فبعين واحدة.. واسعة بشكل لافت.. يسير كضبع يبحث عن منفذ.. يكرر خطواته طوال الوقت.. لا يعرف سبباً لاحتجازهما.

وأنه سمع شيخنا يحادث جدك.. مشيراً إلى السجينين.. قال مبتسماً:

ـ ألا تنزعج من تصرفاتهما؟

ـ !

ثم أردف ساخراً:

ـ لم لا تردّ عليّ؟

ـ !!

ـ سأراك يوماً وقد شاركتهم هوسهم هذا!

ـ !!

كان جدك منهمكاً بين صفحات مصحفه الأحمر يغمغم بصوت غير واضح. لم يرفع وجهه.. تركه الشيخ جزعاً.

ولدي الغالي..

حين سمعت تلك الحكاية. فقدت طعم الحياة. أمسيت في بيت لا يسكنه إلا الألم.. جدك في مكان ما في هذه المدينة.. أمي انطوت على نفسها حزناً لحالة جدك.. تبعة لم يتصل منذ غادرنا بعد وداعك.. ولهذا أشعر بالوحدة الممزوجة بالعجز.. أحاول استعطاف شيخنا.. أشيع في الأيام الأخيرة أن شيخنا أرسله إلى سجن الدولة.. ذهبت وحيدة إلى أطراف المدينة حيث موقع السجن الكبير.. لم يجبني أحد.. كررت المحاولة.. اكتشفت أنه ليس هناك كما أشيع.. ودوماً أسأل نفسي: ترى لو لم تغادرنا إلى العراق؟

وحيدي..

أشعر بالقهر.. وحيدة دون معين. حتى وعدك بمهاتفتنا لم يتم.. أنا على يقين من أنك حاولت.. سأظل أنتظر صوتك.. وعندما يصلني ستزهر نوافذ روحي.. ثم لا يهم أن تتصل بعد ذلك.. لن أحدثك عن عذاباتي. أو أشغلك بما يدور هنا.. فقط أطمئن عليك.. عن تحصيلك العلمي.. تفاصيل حياتك اليومية.. أن تصف لي أمكنة تتردد عليها.. أناساً تعايشهم.. سكنك.. قاعات الدرس.. الشارع.. فتاة طرأت على حياتك.. فقط أن أطمئن عليك.

ابني المتخفي بثوب الصمت..

نحن في نهاية فصل الصيف.. والليالي أقصر مما يجب. أمي. تقضي جل وقتها في صمت، وحين تنطق فإنها تتمتم بصلوات لله أن يزيل محنة جدك.. لم تعد أمي كما كانت تحاصرني بأسئلتها التي لا تنتهي: أين تذهبين؟ أين كنتِ؟ مع من.. لماذا تأخرتِ؟.

كانت دوماً ما تحدث صديقاتها عن كل ما يدور في بيتنا وما تفكر به. تخبرهن بأدق خصوصياتنا.. حتى أنها عودتني أن أعيش معها في قلق دائم.. كما لو كانت تحاصرنا عشرات مكبرات الصوت أو أن جدران بيتنا من زجاج. كنت أحاول أن أغير من طبيعتها.. أن أشرح لها خطورة ذلك.. عما يجب إذاعته وما لا يجب.. لكنها تقاومني. فجأة انطفأت رغبتها بالحديث.. حتى الخروج.. واهتمامها بالتفاصيل الصغيرة. حاولت مساعدتها.. إعادتها إلى سابق طبيعتها.. اصطحبتها إلى أحد الأطباء قال لي: «أمك تعرضت لصدمة فوق قدرتها. الإنسان جسد وروح.. قد يُجرح الجسد فنرى ذلك جلياً.. انكسار الروح لا نراه. يتجلى في مثل حالة أمك.. عزوفها عن التواصل مع محيطها.. عدم الاهتمام بنفسها.. كل ذلك وغيره مؤشر إلى انكسارهما..».

استعرضت له ما تعرضت له أمي في ماضي حياتها.. أبحث عن سبب لذلك: فقدان أبي وهي في ريعان صباها.. سجن جدك الأول في عام ١٩٧٧.. تدمير بيتنا في حصن عرفطة.. ظنها بي الظنون.. السجن الحالي لجدك بعد اختطافه قبل عدة أشهر.. قال:

ـ قد يكون كل ما ذكرتِ.. وقد يكون اختطاف أخيها وعدم

معرفة مكانه.. عدم معرفة مصيره.. الحدث الذي أنهى كل شيء.

ـ وما العمل؟

ـ تجنبونها كل خبر يزيد من حالتها.. وتحاولون إبلاغها بكل تقدم في البحث عن السجين.. ومتى ما وجدتم أخباراً جيدة زودوها. لا تلجأوا للمبالغة.. حاولوا إدماجها في حياتكم.. ادّعوا صديقاتها للحديث معها.. وأنا بدوري سأكتب لها بعض العقاقير المساعدة.. وعلى استعداد لأي مساعدة.

سؤال يحيرني.. لِماذا يلجأ الفرد للصمت كوسيلة لرفض الواقع؟ كلكم هكذا.. وكأنها خاصية تخصكم.. تبعة تَعَود على عدم التواصل معنا.. أمي تنكسر لتنكفئ على نفسها. أنت أيضاً اخترت الصمت.. لماذا علي وحدي أن أظل في موقع المنتظر؟ أنا لا أحب ذلك.

ولدي الحبيب..

بالأمس انقضت السنة الأولى على مغادرتنا إلى بغداد. كل يوم يمر علي دون صديق.. لا أريد أن ترسخ الأيام يقيني بأني سأعيش هكذا وحيدة.. لم أعد أجد من أتحث إليه.. أثرثر لأمي.. لقد هجرت سياسة الكتمان.. أجلس إليها.. أحكي ما كنت أخفيه منذ سنين.. علاقتي السرية بتبعة.. بـ(خمينة) ما كنت أخفيه عنها منذ سنين.. تهز رأسها وهي تستمع إليَّ.. تنظر إلى عينَي.. ترسم شبح ابتسامة.. ثم تغمض تغوص في ستائر النوم.. أحتضنها. لا أحد يسألني: على ماذا تبكين.؟

أنهض أهز رأسي.. أبتسم من جديد!!

سعال أمي المتقطع بين الفينة والفينة يعيدني لواقعي.. أسرع إليها.. أشعل نور غرفتها.. تنزعج وقد رفعت كفها تخبئ عينيها من وهج النور.. قررت الاستعاضة بضوء أصابع الشمع: «هل تريدين شيئاً يا أمي؟.

تهز رأسها دون أن تنظر إليَّ.

أطفئ الشمعة دون أن أقفل باب غرفتها.. أتركها لعالمها.

أدركت اليوم كم أمي مهمة بالنسبة إلي. وكم أنا بحاجة إليها.. إلى أم بكل طبائعها.. بكل ثرثراتها.. كم أنا بحاجة إلى من يحادثني.. يسألني عن أدق خصوصياتي.. يستمع إليَّ.. إلى من يخاف عليَّ.

لقد عرفت اليوم أنها لم تكن تقصد أذى أحد بتلك الثرثرات.. فقط كانت تبحث لنفسها عن دور.. تحاول تحقيق ذاتها.. يكون لها مكانة في محيطها.. تظهر لمن حولها أهميتها.. وأنها تمتلك ما تقوله.

اكتشفت مؤخراً أهمية أن تكون لك أم تخاف عليك كما لو كنت طفلاً. لقد تعودت خوف أمي منذ وعيت.. تعودت رؤية زرقة السماء في عينيها.. مواسم الزراعة.. هطول مُزن السماء.. أن أستنشق رائحة الحقول معها. وبعد استقرارنا في صنعاء.. أرقبها خارجة من حلق الباب.. أو عائدة من زيارة صويحباتها.. منكمشة بداخل ستارتها المزخرفة بألوانها الهندية.. أسئلتها التي لا تنتهي..

اليوم أشعر بالوحدة تنخر عقلي وقلبي.

وأنت الآخر تخيفني بصمتك لكنني على يقين من أنك بخير.. وأن صوتك سيتدفق يوما عبر الهاتف.. تحكي عن نجاحك في دراسة الطب وأنك لم تنس أمك.. ولست حانقاً عليها.

تبعة لا أعتب عليه كثيراً.. وإن كان هجره لي يميتني. هو تترصده البنادق منذ أكثر من عشرين سنة.. لم أعد أعرف ملامح حياته. حين دعوته لوداعك كنت أخطط لإبقائه إلى جواري في صنعاء.. أن يعيش معنا.. كنت أجزم بأنه لن يغادرني.. لكنني لم أجد تبعة الذي كان.. لقد غادرنا ذات يوم.. ليعود شخصاً آخر أبحث له بداخلي عما يشفع له. لقد غادرني بعد وداعك دون اهتمام ليؤكد لي ضرورة نسيانه.

أمي عاشت حتى الآن ثلاث حيوات.. لا أحد يعرفها: طفولتها وصباها، وهذه المرحلة لم تختلف عن حياة أي صبية. لكنها اقتحمت بواكير مراهقتها بقصة عاطفية كانت حديث سكان حصن عرفطة. فحين كانت راعية عصف بقلبها الحب.. هامت عشقاً بأبي الذي كان هو الآخر راعي أغنام.. لتشهد الجبال المحيطة ووديانها قصة حب قوية.. ليتزوجا وتعيش معه ثلاث سنوات فقط.. ثم يغادرها دون استئذان. أنا لا أعرف ملامحه... فقد قُتل في ظروف غامضة ليجدوا جثته وقد اخترقتها الرصاص.. سُلِخ وجهه.. وقُطع (...) حينها كانت أمي حاملاً بي.. لتعيش بقية حياتها أرملة.. يخشى ثرثرتها الجميع. المرحلة الثالثة من حياتها، الرحيل من القرية واستقرارنا في صنعاء حين سُجن جدك في المرة الأولى، ثم هذه المرحلة التي تعيشها منكفئة على نفسها منذ سجن جدك في ٢٠٠١.. وهي مرحلة العزوف وعدم الاهتمام

بنفسها. قد تكون ملَّت الحياة.. أو أن حواسها تنبئها بمستقبل لا يُحتمل.

أخاف على أمي وأشفق عليها. اليوم تقبع في زاوية فراشها كجثة تنتظر الموت.. يضج الصمت حولها.. لا أدري لماذا أتوقع نهوضها في أي لحظة.. أن أسمع صوتها.

فقط سعالها المتقطع ما يوحي بوجودها. هي لا تشكو من شيء.. أجالسها.. أحاول استثارتها.. تنظر إليّ بعينين صافيتين.. تبتسم.. أتمنى أن تبادر إلى مشاركتي ما أطرحه.. تبادلني النظرات.. ونادراً ما ترد عليّ بكلمة تشبه الأنين.. أشعر أن بداخلها بئراً عميقة وأن عليّ ردمها بالكلمات تلو الكلمات.. أتذكر كلمات ذلك الطبيب.. «لقد انكسر شيء بداخلها».. أسأل نفسي: كيف يمكنني إصلاح ذلك الكسر؟ أكاد أجن من صمتها.. أين الخلل؟ ومن أين لي بأم ذات خصائص ترضي ميولي؟ أم أن الإنسان إله صغير لا يرضى عن مكانته حتى يصل إلى مرحلة الخالق لما يشتهيه!!

يحاصرني الإحباط.. يحكم قبضته.. أصعد الدرجات الخمس عشرة.. أزور الغرفة العلوية.. صورة معلقة لرجل سبعيني.. يزم شفتيه محاولاً إخماد ابتسامة بداخلة.. تعتلي رأسه ربطة مبرقعة باللون الأحمر.. عيناه تنظران عدسة عيني.. ذقنه المشذبة تتعامد شعيراتها في انسجام. ذلك هو جدك.. صورة أخرى لصبي يحتضن سنواته الأربع عشرة.. شعره المنكوش.. أنفه اللافت طوله.. وأغصان القات يحتضنها عند صدره.. ذلك هو أنت في مرحلة دراستك الإعدادية.. صورة أخرى للسبعيني يقف إلى جوار الصبي «أنت» وسط غابة أشجار القات.. بالأنف نفسه.

وهكذا.. لا توجد أي صورة لأنثى في بيتنا! أخرج.. أهبط الدرجات المعتمة.. أقصد غرفتك في الطابق الأرضي.. رغبتي بالبكاء تدفعني إلى الارتماء أرضاً.. لا أود أن يسمعني أحد.. أبتلع حزني.. لا أجد ما أفعله.

يضيق بي البيت الصغير.. أقف على باب غرفتها.. تطيل النظر في ابتسامتي.. ثم تعود محدِّقة إلى سقف الغرفة.. تعود بي الذاكرة إلى أيام خلتْ.. حين كانت تنتظرني خلف الباب.. ترصد كل تحركاتي.. زخات من الأسئلة.. تشع كلماتها بالشك من كل شيء.. كان لتفكيري بالخروج لذة.. أتحايل عليها حتى تسمح لي.

اليوم لا يهمها خروجي.. حتى أنها أفقدتني تلك اللذة. أليوم أسأل نفسي عدَّة أسئلة قبل أن أقرر الخروج.. عن جدواه؟ لقد أضحى الخروج دون طعم.

في بداية انكسارها كثرت زيارة صديقاتها لها. يأتينها، يتحلّقن حولها.. تتداخل الأصوات.. ترقبهن في صمت.. ينسين وجودها.. يحتدم النقاش.. ثم يمضين كلٌّ في حال سبيلها.. ليتناقلن حالتها بشيءٍ من الرأفة الممزوجة بالتشفي.. مؤكدات سبب ما هي فيه عدم دخول الملائكة بيتنا لإيمانهن بأن كل من في بيتنا يؤمن بالأفكار الشيوعية.. ولهذا يعتقدن بأن لعنة ما قد حلَّت على روح أمي.. خفَّت زياراتهن حتى تلاشت أقدامهن وأصواتهن.

تنفيذاً لنصيحة الطبيب طرقت عدة أبواب بالبحث عن مكان سجن جدك.. علّي أعود إليها بما يشفي حالتها. طرقت أبواب شيخنا.. كررت إلحاحي.. مرَّت أشهر وأنا ألح.

صادفت إحدى النساء عند أعتاب بيت شيخنا.. نصحتني بالبحث عنه في سجون المدينة.. قالت لي هناك عشرات السجون الملحقة ببيوت المشائخ والوجهاء.. وعدد آخر تابع لعدة جهات متنفذة. قضيت أياماً بالبحث. زرت عدداً كبيراً من تلك السجون التي كنت أجهل وجودها. لم أجد ما يشفي غليلي. أخبرني أحدهم عن عشرات السجون السرية منتشرة في معظم أحياء صنعاء في دور يلفها الغموض.. ليست بمعزل عن التجمعات السكانية.. هي دور مثل كل دور المدينة.. لا يسمح بالاقتراب منها.

اكتشفت أن صنعاء متاهة مخيفة، وأن علي الحذر ومضاعفة جهودي في البحث عن مكان جدك.

زوجة جدك قدمت أخيراً من قرية حصن عرفطة. كان ذلك في بداية فصل الشتاء ٢٠٠٢.. حملت معها هموماً كثيرة. هي الزيارة الأولى بعد سجن جدك الأخير. أحسست بتغير تلك المرأة التي كانت كتلة من الحماسة والصب.. بكت بين يديّ كثيراً.. لم أتخيلها يوماً تبكي.. حين كانت تضيق بي الأرض أو بأمي كانت هي نافذة الأمل التي نطل منها. جلست فور وصولها إلى أمي غير مستوعبة حالتها. كانت أمي تبادلها النظرات.. لتعود لسباتها.. تستخدم إيماءات وجهها.. أو هز رأسها.

سألتني زوجة جدك في صوت حزين:

ـ ما هو العمل لإعادتها إلى ما كانت عليه؟

تظاهرت وبالتماسك وأنا أحتضنها. أجهشت باكية. قلت لها مواسية:

ـ لا يجب أن نركن للدموع.. تشربت صبرك منذ صغري.. تعلمت منك كيف أجابه الحياة.

لم ترد علي.. واصلت حديثي: لقد طرقت أبواب شيخنا.. زرت سجوناً كثيرة.. سجون المشائخ والوجهاء.. لم أجد أثراً لخالي.. تبقت بعض السجون السرية.. قد يكون قابعاً في أحدها.

رفعت وجهها ماسحةً دموعها. غيرت صوتها وهي تحدثني:

ـ إذاً علينا أن نبدأ من جديد.. نطرق جميع الأبواب.. أنا على يقين من أن عودة العطوي سعيد لنا تماسكنا وستجعل أمك تعود إلى سابق عهدها.

أدركت أنها تفكر بشكل جيد.. وأن ما تواجهه من ضغوط نفسية لحياة الوحدة لم يؤثر عليها كثيراً.

تركتها تهدهد أمي.. أسترق السمع علَّ أمي تتكلم. كانت تناغيها بصوت هامس.. تذكرها بحياتهن المشتركة في القرية. مرحلة الصبا. الليل طويل وصوت زوجة جدك أكثر حزناً. شعرت بالخجل من تنصتي.. انسحبت.

حين أشعر بظلمة ما حولي الجأ إلى غرفتك. أبحث عنك. أتخيلك كما كنت تجلس جوار النافذة وقد بعثرت دفاترك.. تاركاً جهاز الكاسيت يملأ الغرفة بموسيقاك. اليوم أنشغل بترتيبها للمرة المائة.. أزيل الأتربة.. تلك الدمى أرتبها على الرفوف العلوية.. أعيد إلصاق صور النجوم المفضلة لديك.. أدير أحد الألحان الصاخبة التي تحبها.. حين أكمل ترتيبها.

أستلقي أعود بذاكرتي إلى منتصف عام ١٩٧٨ بعد أن غادر تبعة الجبال المحيطة بوادي قريتنا (حصن عرفطة) فاراً من ملاحقة شيخنا وأنصاره. كانت أولى رسائله قد وصلتني عبر زوجة جدك. لم تجبني كيف وصلتها.. بدأ الرسالة بكلمة «صديقتي».. أحسست بفرح وسعادة.. قرأتها عدة مرات.. طعم لذيذ لكلمة صديقتي سمبرية.. ارتفع نبض قلبي وأنا أقرأ الرسالة:

«١» صديقتي سمبرية..

اسمحي لي أن أكتب إليك كلما سنحت لي الفرصة. أن أنقل ما أعانيه.. ما أشعر به. أنا بحاجة إلى من أكتب إليه.. أبوح.. فلم أجد من يمكن أن أكتب إليه بحرية غيرك.

نفذت نصيحتك ورحلت من مغارة الجن.

ودعت قريتنا في ذلك اليوم.. تتجاذبني نوازعي للبقاء. طرحت أمامي عدة خيارات.. العودة إلى الحصن ومواجهة قدري.. أو أن أظل أتنقل من جبل إلى آخر حتى أجد حلاًّ.. أو أرحل وأتعرف على ما وراء تلك الجبال.. أرحل إلى بلاد بعيدة حيث لا يعرفني أحد. كانت تحاصرني جملة ذلك السجين: «إن هربت فإلى أين ستهرب؟».. تحديت تلك العبارة وقررت أن أتجاوزها. أخذت بنصيحتك وقررت الخروج من تلك الدوّامة.. ملّيت مراقبة الحصن والوادي. سؤال ظل ينخر عقلي: ما هو الذي أنتظر حدوثه؟ هل أنتظر هنا حتى تصلني فوهات بنادقهم؟ أين أذهب؟ لا أملك مالاً.. لا أعرف مكاناً! أشعر أني سجين جبال قريتي. تكرر صدى قول ذلك السجين: «إن هربت فإلى أين ستهرب؟».

حاولت الضغط على قلبي.. تحضرني صدى كلماتك: «اتنتظر وصولهم إليك؟».. اخترت أبعد الحلول إلى قلبي، نصيحتك، ورحلت.

كانت عيناك ترافقني.. ملامح وجهك.. صوتك.. طوال الليل أقلب أفكاري دون نوم.. أجهش بالبكاء قهراً.. ستعودين للبحث عني ولن تجديني.. ستعرفين أني قد رحلت.. أشرقت شمس جبالنا في صباح الرحيل.. تناولت ما تيسر مما أعطيتني إياه.. حملت أمتعتي.. ودَّعت مغارتي.. نظرت إلى اللسان الصخري المعلق فوق الوادي.. الحصن.. دار الشيخ.. السائلة.. الجبال المحيطة.. شعور مبهم. حاولت تحديد قبر أمي في طرف مقبرة الحصن. لم أفلح.

سرت جنوباً. فوق جبال تعلوها جبال. اختفى وادينا.. دار الشيخ.. كان آخر ما اختفى من قريتنا حصن عرفطة.. ثم قمم جبالنا.. عشر ساعات من السير المتواصل عبر عدة أودية.. تلال وجبال.. متجنباً الاقتراب من القرى.. رعيان الغنم.. وكل إنسان. تعجبني تلك الطيور الحرة.. العصافير.. جداول الماء.. غويبات الأشجار بين الجبال.. صخور متجهمة.. سحاليّ ملونة.. أعشاب تحركها الرياح.. وشمس ترافقني دون تذمر.

وقفت على شفة جبل. أرقب بلاداً جديدة.. ودياناً واسعة جرداء.. قرى.. صفوف الجبال المتجهة غرباً. واصلت الشمس هبوطها.. لونها البرونزي يغطي كل شيء.. أشجار متناثرة على الروابي.. قرية تحت المنحدر الذي أقف عليه.. كنت مرهقاً.. أقدامي مخدرة.. ساقاي باردتان.. الريح اشتد عويلها.. قررت الهبوط باتجاه تلك القرية القريبة.. أسرعت قبل اختفاء خيوط الضوء.

صوت الريح.. حمى تهز بدني.. تبوّلت واقفاً.. ارتعشت بلذة.. في الأسفل غويبة صغيرة قررت أن أتجه نحوها. سرت في منحدر نحو الوادي.. أرانب تتقافز.. طير الحجل البري. لم تكن القرية بعيدة. أسرعت أسابق وهج مغيب الشمس.. نباتات شوكية.. أعشاب مرتوية.. آثار حوافر على الطريق الضيق.. روث.. اقتربت أكثر.. ضاقت الطريق.. تحاصرني الأشجار.. تعمقت باتجاه تل القرية.. سمعت صوتاً شجياً.. شققت طريقي.. يا للدهشة.. رجل وقور يبدو في العقد الخامس يقتعد حجراً طرف الطريق.. ينقر بين يديه طاراً.. أمامه كيس قماشي.. يدندن لحناً عذباً. وقفت أمامه مسحوراً بصوته. لا أحد غيرنا. استمر يدندن منتشياً. رفع وجهه.. خفض صوته حين رآني.. نهض مرتبكاً.

ـ أهلا.. من أنت؟

ـ أنا عابر سبيل!

ـ كلنا كذلك. ما اسمك؟

ـ أنا أبو حنظلة.

ـ هل هذا اسم؟

ـ هكذا اسمي!

ـ عمّ تبحث؟

ـ عن مكان آوي إليه!

ـ لقد عرفت أنك لست من تلك القرية!!

ـ وأنت!

ـ أنا مثلك لست من سكانها، ولكني أعرفهم. هيا احمل معي هذا الكيس واتبعني!

واصل حديثه ونحن نسير باتجاه القرية. شعرت بطمأنينة. دخلنا أطرافها.. عبرنا شوارعها.. تجاوزناها إلى الطرف الآخر.. ابتعدنا عنها. صعدنا مرتفعاً وسط غلالة المغيب.. نبهته:

ـ لقد خلفنا القرية وراءنا.. إلى أين سنذهب؟

ـ سكان هذه القرية لا يرحبون بالغرباء.. ألم أخبرك بأني أعرفهم واحداً واحداً!

ـ أنا متعب.. أين تذهب بي؟

ـ لقد اقتربنا من دار الشيخ.. انظر هناك.. إنه يعتلي ذلك التل منفرداً!

ـ دار الشيخ!! ماذا سنفعل بدار الشيخ؟

ـ لا يوجد من يسمح لنا بالمبيت هنا!

ـ أنا لا يمكن أن أدخل بيت شيخ!

ـ لماذا؟

ـ من غير لماذا!!

ـ اتبعني إذاً.. هنا مسجد صغير!

ـ سرت خلفه وأنا أردد.. شيخاً.. أينما أذهب أجد شيخاً.. وراء كل جبل شيخ.. وعند كل وادٍ شيخ.. لم يهتم لكلامي.

كنت في حيرة.. كان الوقت بعيد مغيب الشمس.. مسجد صغير.. لا أحد.. مجموعة من الكلاب تنبح.

تبعت الرجل.. توقف خارج الصرح.. أشار عليّ: «هذا هو المسجد يمكنك دخوله». أجبته: «وأنت؟» أجاب دون أن يلتفت: «سأتبعك بعد لحظات». عبرت الصرح.. باب صغير.. أشعلت عود ثقاب آثار السخام في كل كوّة.. ضريح أبيض يربض في الزاوية.. حصير مشبَّع بالتراب.. بيت الدبابير الترابي يلتصق بالسقف.. لا يوجد أحد. خرجت أبحث عن ذلك الرجل.. لقد تأخر.. عدت إلى الداخل لا أدري ما يمكن أن أفعله؟ يكفي أن أنام بجوعي وذُلّي.. اخترت مكان جوار الضريح.. توسدت ذراعي.. سريعاً ما ابتلعني موج النوم.

أيقظني صوت يشبه الهديل.. إنه نفس لحن ذلك الرجل.. وقع أقدامه.. اقتعدت في ذعر.. شمعة بين يديه.. ينعكس الضوء على وجهه.. يردد كلمات ملحونة.. يبحث عن مكان لزرع الشمعة.. توقف.. وضع كفه الأخرى فوق حاجبيه يتأملني كما لو لم نكن معاً.. الضوء يرسم ملامحه.. كان وجهه أكثر استدارة.. يبدو أنفه أكبر مما يجب.. تجاعيد بيضاء.. لحية كثة.. عينان واسعتان.. فم صغير.. عمره يتجاوز الأربعين.

تقدم نحو الداخل. وضع دُفه جانباً. حاول تثبيت الشمعة على صهوة الضريح. عاد يتأملني.. ثم غمغم بكلمات لم أفهمها.. هل يتأكد أنني من تركه للتو.. لقد شككني في ذاته.. ألم نكن قبل لحظات معاً؟ جلس يفك أربطة الكيس برفق. بسط على الأرض ورقاً. أخرج قطع خبز. عظام التصقت به نتف لحم.. كتلة من العصيدة.. قطع أمعاء مطبوخة.. أشار إليّ بكفه:

ـ هيا انهض.. سنتعشى معاً.

ملأت وجهه ابتسامة ترابية. اقتربت منه ورائحة السليقة تزيد أمعائي اضطراباً.. قطع الخبز المبللة.. ركزت على الخبز تاركاً له العظام كي لا يندم على دعوته لي. مدَّ إليَّ بعظمة خمنت أن تكون من أضلاع حيوان صغير.. ومعصوب أمعاء:

ـ هيا تناول حصَّتك.

كنت أشعر أن فك فمي أصابه الاعوجاج.. أكلت حتى كسا وجهي العرق.. دفئت أوصالي.. حواسي بدأت تعود إلى طبيعتها.. أشعر بكل ما يدور حولي بوضوح.

.. عدت أتأمل ذلك المخلوق. رجل جاد لا جدوى من أن أشكره.. وجدت لساني يسأله:

ـ من أي بلاد أنت؟

ـ أنا من بلاد بعيدة.

ـ أي بلاد؟

ـ بعيدة وكفى!

ـ نحن غرباء في هذا الوادي.

ـ ألم أخبرك بأنني أعرفهم جميعاً.

ـ هل أنت تعمل هنا!

ـ أعمل ولا أعمل!!

ـ ماذا تعني؟

ـ أنا حافظ للقرآن.. مدائح الرسول.. الأدعية المستجابة.. سيرة علي والزهراء والحسن والحسين.. وقصص الأنبياء.. هذا عملي.

ـ أنت رجل مبارك إذن.

ـ هكذا يعتقد الناس.

ـ هل أنت مستقر في تلك القرية؟.

ـ لا أستقر في مكان.. وجودي يرتبط ببداية مناسبة وانقضائها.. أتنقل من قرية إلى أخرى.

ـ أين تبيت أثناء تنقلك؟

ـ كما ترى.. المساجد كثيرة.. بيوت الخيرين.. وأنت؟

ـ أنا أتيت أبحث عن عمل.

ـ مثل ماذا؟

ـ أجيد رعي الأغنام.. أعمال الزراعة.

ـ وهذه تحسبها أعمالاً!

ـ على ما أظن.

ـ لِمَ لا تعمل معي؟

ـ فيمَ؟

ـ تحمل هذا الكيس.. تتبعني.. تحفظ ما أنشده للناس!

ـ فقط.

ـ فقط.. وستجد نفسك تأكل أفضل الأكل.. وتمضغ ألذ قات.

ـ أوافقك.. سأجرب.

ـ لن تخسر شيئاً.

5

مولانا

«٥» نور عيوني حنظلة..

بعد وصول زوجة جدك إلينا في صنعاء تغيرت أحوالي.. وجدت من تشاركني البحث.. نفكر معاً.. نتحرك معاً.. نحرر الشكاوى إلى إدارات الدولة مطالبين السماح لنا بزيارة السجون السرية. الجميع أنكر وجود تلك السجون.. كل النتائج تعيدنا إلى باب شيخنا.. عدنا لطرق بابه من جديد.. كررنا المحاولة.

قررنا اللجوء إلى أحد مشائخ القبائل النافذين. تأكد لنا أن الشيخ ابن فعطمينا هو أكثر المشائخ سطوة ونفوذاً.. قصَّت زوجة جدك إحدى جدائلها المحناة.. أخذت تُملي علي وأنا أكتب حتى أكملت الرسالة التي سنقدمها إليه.. كانت ملامحها قد تهللت وهي تحرق أطراف رسالتنا دون أن تلحق بها ضرراً.

في صباح اليوم التالي خرجنا معاً باتجاه بيت ابن فطمينا. عبرنا

ساحات صنعاء الحجرية. تحت عقودها المعلقة متاهة من الأزقة المرصوفة منذ القدم. بلغنا أطراف صنعاء الشمالية.. سور كبير.. بوابة تفضي إلى ساحة داخلية.. غرف حراسة على شكل قلعتين.. عدة رجال مسلحين.. عربات معطوبة.. دار كبيرة من عدة طوابق.. ملامح متربة.. وجوه الحراس تطل من نوافذ عالية.. صوت أحدهم:

ـ هل من خدمة؟

ـ نريد مقابلة الشيخ!!

أشار علينا بالدخول من باب الحريم.. درنا في ممر خلفي.. صعدنا في درج طويل.. رفعت زوجة جدك صوتها:

ـ يا أهل الله.. يا ساتر.

استقبلتنا فتاة تجاوز عمرها العشرين عرفنا فيما بعد أن اسمها (شخنما) وأنها تعمل في خدمة أمي فطمينا.. قالت تسألنا:

ـ من تُردن؟

قلت لها في ارتباك:

ـ نريد الشيخ.

ـ هو خارج الدار.. يمكنكن مقابلة أمي فطمينا.

ـ ربنا يحفظك.. قودينا إليها.

صعدنا خلفها سُلماً حجرياً.. حجرة واسعة.. باب يفضي إلى غرفة يملأها الضوء.

امرأة في عقدها الخامس.. تستند إلى ضوء النافذة.. تلملم ضخامة جسدها بصعوبة.. تكررت ابتسامتها.. رحبت بنا:

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ الله يحفظك.

تحدثت الفتاة مشيرة إلينا:

ـ يردن مقابلة الشيخ!

ـ ما هي مشكلتكن؟

تنحنحت زوجة جدك باكية.. وقالت في صوت حزين:

ـ الله يحفظك.. نحن من قرية حصن عرفطة.. أتينا للسلام عليك.. جئنا متجورات بهيبة ابنك الشيخ أن يساعدنا في إيجاد زوجي الذي تم اختطافه من قريتنا قبل سنة ونصف.. هو رجل مسن لا يقوى على ما هو فيه من محنة.. ونحن نساء لا حول لنا ولا قوة.

أكملت حديثها لتواصل بكاءها.. سريعاً ما علا صوتي بالنحيب.. أجلستني المرأة السمينة إلى جوارها وهي تبتسم كمن يهدهد طفلة.

ـ لا عليكما لقد حضرتما إلي. امسحن دموعكما. عند عودة الشيخ سأتولى الأمر.. لا عليكما.

رفعت وجهي وقد احمّر من أثر دموعي. قبلت وجه السمينة وهي تقبلني بحنان.

ردت زوجة جدك:

ـ وهذه عريضة تَجَوُّزنا.. وجديلتي الشايبة.

ـ لا حول ولا قوة إلّا بالله.

أبقتني إلى جوارها.. كل من حولها يبجلها.. الكل يخاطبها «أمي فطمينا».. نهضنا نستأذنها الانصراف.. قالت مودعة:

ـ عودا إليَّ بعد يومين.. سأحدث الشيخ.. ستلقيان المساندة الكاملة.

بشعور من له أجنحة عبرنا الساحة الأمامية التي دبت فيها الحياة. عبر أزقة صنعاء عرجنا على المسجد المقدس وسط المدينة العتيقة.. سلمت زوجة جدك لأول فقيه قابلناه خارجاً من بوابته قليلاً من الحبوب.. قالت له: «اقرأ ما تيسر في أن يحفظ الله العطوي ويفرج عنه كربته»

عدنا إلى منزلنا.. كم كانت الطريق قصيرة.

جلسنا جوار أمي نحدثها بما حصل.. لم نعد ننتظر منها ردة الفعل.. لكن زوجة جدك واصلت حديثها إليها. انصرفت وأنا سعيدة بما تم إنجازه.

دخلت غرفتك.. استلقيت أُفكر بالغد.. قلبي يحدثني بأننا نقترب من جدك وأنه ينتظرنا في مكان ما داخل صنعاء.

سعيدة.. قررت أن أكافئ نفسي بألذ ما أحب. التقطت رسالة تبعة بعد أن استويت أمام النافذة.

□ □ □

«٢» صديقتي سمبرية..

في ليلة المسجد أكملنا تناول العشاء أتجاذب والرجل الوقور كلمات التعارف. سألته:

ـ ما اسمك يا سيدي؟

ـ مولانا.

ـ مولانا.. هل هذا اسم؟

ـ هكذا اسمي! وأنت ما هو اسمك.؟

ـ أبو حنظلة.

ـ هذا ليس اسماً.. ومن ثم ما زلت صغيراً على «أبو».. سأختار لك اسماً.

صمتُّ أنظر إليه.. قال أنت اسمك من اليوم ولّد!

ـ ولّد من!

ـ ولّدي!!

ـ ولدك.. ولدك!

أمسيت أتخيل نفسي أجول مع مولانا من قرية إلى أخرى أردد ما يقول.. أسير معه.. أتعرف على بلدان وبلدان.. كما قال إنه

يعرف بلداناً كثيرة.. وإن كل البلاد بلاده. هدأت نفسي. وتضاءل قلقي.

أطفأ مولانا الشمعة. التصقت بالقبر الأبيض.. يتلو أدعيته وسط الظلام.. نمت على هديل صوته لأصحو مذعوراً.. ظلام دامس.. شيء ما يداعب فخذي.. برودة شيء ما.. كان نصفي الأسفل عارياً تماماً.. تلمست طرف لحافي.. اصطدمت بشيء.. تبين لي أنها كف.. تساءلت: من دخل ونحن نيام؟ صرخت:

ـ مولانا.. مولانا!!

ـ نعم هذا أنا جوارك لا تخف!!

كانت هي كف مولانا.. هي من تداعبني!!! خجلت من نفسي.. استنتجت أنني تقلبت من مكاني.. أسأل نفسي أيعقل أن يكون مولانا؟ حاولت طرد تلك الأفكار.. بحثت عن زاويتي.. اكتشفت أنني فيها. إذاً هو من اقترب مني! حاولت الابتعاد.. تبعتني يداه.. تأكد لي أن مولانا... طار ما تبقى من نومي.. لا أدري كم مضى من الليل.. أصابعه تداعب خصوصيتي.. صرخت وأنا غير مستوعب:

ـ ماذا تفعل؟

رد عليّ يرجوني.

ـ لا تخف.. اهدأ قليلاً.

احترت مما أنا فيه.. صمّت برهة.. ثم أخذ يتلو ما يشبه الهمهمة.. وأصابعه تستثير شهوتي.. استعدت رباطة جأشي.

ـ أرجوك.. أبعد يدك. هذا فعل معيب!

ـ اهدأ أنت.. لحظات!

ـ أنا مخدوع فيك.. أبعد أصابعك!!

ـ وما يضرّك في ذلك؟

ـ لا أصدِّق!!

ـ بل صدِّق.

حاولت النهوض وإزالة يده.

ـ لا أريد منك شيئاً.. فقط كي أشعر بالدفء!

ـ لا يعجبني.. ألم تجد الدفء إلّا في هذا المكان.

ـ وكيف يعجبك؟

ـ لا يعجبني شيء!!

ـ جرب أن تهدأ.. فقط أنا أكتفي بمداعبتك!.

هدأت وأنا أفكر في طريقة للتخلص من هذا المأزق.. كان صاحب تجربة فيما يقوم به.. يعتمد على أسلوب إيصالي إلى مرحلة اللا عودة.. صدى كلمات رفيق سجن الشيخ.. «إن هربت فإلى أين ستهرب؟» أبحث عن طريقة لإيقاف عبثه.. أصابعه لم تهدأ.. قررت ردعه.. كانت الطريقة الأسلم أن أمنعه.. أقاوم.. أن أخلصه من تلك الأفكار المعيبة. استدرت.. انقضضت بأصابعي على شعره.. شددت بقوة.. يداه لم تتوقفا.

زدت من شد شعر رأسه.. لحيته.. أدخلت أصابعي في فتحتي أنفه.

إنه لا يتألم! هويت بكفي على وجهه بعدة صفعات.. أحكمت قبضتي على رقبته.. زدت من الضغط على أوردته.. انخفض صوته.. خفت أن يموت.. أرخيت كفي بينما واصل توسلاته:

ـ اضربني كما تريد.. لكن أرجو أن تهدأ.

هدأت من جديد.. ركزت أفكاري على محاورته.

ـ ماذا تريد مني.. أتريد أن نكون أصحاباً طوال الأيام القادمة أم تريد أن تكون هذه الليلة آخر معرفتي بك؟!

ـ هذا لا يمنع من أن نكون أصحاباً على مر الأيام.. أنت لا تملك متاعاً مغرياً.

ـ اترك متاعي.

ـ أتريد أن تجلد مولاك؟ أن تدعسه.. أن تلطمه.. أن تدمي جسده. أن تقلع كل شعر لحيته.. افعل!! لكنني لا أضمر لك سوءاً.

ـ إذاً اتركني كي أنهض لأنفذ ما قلته.

ـ اهدأ الآن.. هل عليك أي ضرر؟

ـ وأنت اترك العبث.

ـ هذا ليس عبثاً.. قلت لك اهدأ.

تركته.. كانت أصابعه قد انسحبت بعد أن أوصلني إلى الذروة.. وفد تلوثت أصابعه.. لم أنم ليلتها إلا قبيل الفجر.

أيقظني صوته يردد صلواته بين أفق الفجر.. يذكرني صوته بصوت

أبي. استقام.. تأملت ملامحه.. يغشاني الخجل.. أتمنى أن أكتشف ما أنا فيه.. كائن وقور.. كنت مرهقاً. أكمل صلاته.. جلس في زاويته.. أخرج من كيسه قطع خبز.. رائحة السمن والثوم.. لم أرفع عيني إلى وجهه.. سألت نفسي: أيعقل أن يكون مولانا هذا هو كائن الليلة الماضية؟ تواطأت مع تصنعه لشخصية أخرى.. قال لي:

ـ هيا شاركني الإفطار.

نزعت بعض خجلي.. نهضت وسألته:

ـ إلى أين سنتجه من هنا؟

ـ سنخرج نحو أسفل الوادي.. نسأل عن حفل عرس.. أو مأتم.. سنذهب للبحث عن أي مناسبة.. لنقدم ما يقدرنا الله عليه.

جلست أقتطع لقم الخبز وهو يتحدث ناصحاً:

ـ سنتعامل مع أناس أجلاف.. حشريين في كل شيء. عليك أن تلتزم بالصمت في كل الأحوال.. لا تنطق إلا للضرورة. وإن نطقت فلا تكثر.. فكّر كيف تتجنبهم وكيف تستعطفهم، وكيف تخلق في من تتعامل معهم الإحساس بالورع والتقى.. لا تتدخل في ما لا يعنيك.. اعلم أنك عابر سبيل وأن رأسمالك التمسك بالفضيلة.. وأن رزقك يأتي بحفظك لشكل الدين.. اجعل من شخصك ذلك الفرد الذي يُجلّ الآخرين.. لا تتكلم حتى لو سمعت ما هو خاطئ.. لا تشارك في الحديث مع أحد حتى لا تتورط في جدل يسلبك هيبتك.. وإن أحرجك أحدهم بأي سؤال.. أجب عليه بكلام عام وأنت مبتسم. تخلص من أي

متحذلق بأدب. في كل مرَّة تواجهك معضلة يكفي أن تنظر إليَّ صامتاً.. اترك حلها لي.

كان يحدثني وقد أخرج ثوباً وشالاً أبيضين من كيسه.. ثم واصل حديثه: البس هذا فوق ثيابك.. غط شعرك المنفوش بهذا الشال.

صامتاً أستمع إليه.. أنتظر أن يواصل كلماته.. لكنه نهض حاملاً دفه الكبير. نهضت أحمل كيسه القماشي.. خرجنا من المسجد. كل شيء صامت في تلك الأنحاء.. القرية في التلة البعيدة.. هبطنا السائلة.. سرنا باتجاه الشرق.. كنا نصادف فلاحين يحرثون الأرض.. قال لي:

ـ انظر هيئتي.. قلدني في كل شيء.

كان يسير مطأطئ الرأس لا يلتفت لأحد. سرت مثله. كنت أسمع حديثه المتواصل طوال الطريق.. لا أعلِّق.. أستمر كمن يحدث نفسه.. كلمات لا أميزها وبعضها تحولت إلى طنين.

مررنا بعدة قرى جميعها على حواف الوديان. لم نتوقف حتى وصلنا وادياً يعلوه حصن معلق ذكرني بحصن قريتنا.. تحيطه الأودية من جانبيه.. يلتقيان ليتجها نحو الغرب. كان الوقت عصراً. مولانا يعرف الطريق جيداً. تسلق بنا طريقاً ملتوية كالثعبان يعلو الجبل. دخلنا مسجداً نحت في صخر الجرف.. نفر قليل ينتظرون.. وضعنا أمتعتنا جوار الحائط.. أشار علي أن أحرس الأمتعة.. هبط درج البركة.. أدبر وقد كشف عن مؤخرته يتوضأ.. بشرة بيضاء ناعمة.. غسل شقه.. غسل وجهه.. ذراعيه.. قدميه..

كل من يصل المسجد ينزل درج البركة يكشف عن إليته.. وهكذا.

الجميع يعرف مولانا.. يبادلونه أطراف الحديث حول المتوفاة.. سأل أحدهم عني:

ـ من ذلك الشاب يا مولانا.

ـ ولدي.

ـ ولدك!

ـ نعم.

حادثهم دون اكتراث.. خرجنا نتبع الناس من المسجد.. دخلوا أحد الدور.. لم يرحب بنا أحد ولم يمنعنا أحد. كأننا من أسرة المتوفاة. غرفة مستطيلة.. نفر قليل يتكئون على مساند الجدار.. ينتظرون في صمت.. أوعية سليقة اللحم.. صحون عصيدة الذرة.. أواني الخبز.. جرار السمن.. كيفما تحرك أتحرك بعده.. تناولنا الطعام مع جموع الناس.. عدنا نتكئ على الجدار.. أدخلوا وعاءً كبيراً مليئاً بقطع اللحم.. أخذ اثنان في توزيعه.. أحدهما يسمي من عليه الدور.. والآخر يلتقط عدة قطع يلفها بين قطعة خبز ثم يناول المنادى.. حين وصل الدور على مولانا صاح المنادي بصوت ينم عن الاحترام.. مولانا.. فتبسم المقسم وقال وهو ينظر في وجه مولانا «يستأهل» ثم جاء دوري. صاح المنادي.. «غريب» لم يلتفت المقسم أو يعلق.. بل اكتفى بلف عظم وقليل من الشحم.. همس مولانا في أذني.

ـ لا تأكله كله!

ـ حاضر!!

مصمصت جزءاً منه.. خبأنا ما تبقى بين ثنايا الكيس.. بدأ الحضور بالانصراف.. نهض مولانا باتجاه المقسم مبتسماً.

ـ هل من بقايا لحم أو خبز.

نهض الرجل مبتسماً.. لف أقراصاً من الخبز وشيئاً من بقايا الصحن.. ثم قال:

ـ هل أزيدك؟

ـ الله يبارك لك.. كل شيء تمام الآن!

ـ لا تنساني من الدعاء.

تبعنا الناس.. دخلنا ديواناً مستطيلاً مكتظاً بالبشر.. الكل منشغل بتناول القات وترديد الأناشيد الدينية. جلست في رهبة جوار مولانا. أتابع المنافسة بين المدّاحين. جاء دوره.. أنزل عمامته البيضاء.. جفف جبينه ورقبته.. وزع نظراته في انتشاء بين الحضور.. ابتسم.. أغمض عينيه.. حمل رأسه بين كفيه.. رفع صوته.. بذكر الصلاة على النبي وبقية أهل الكساء.. مرتلاً.. الفاتحة.. الصلاة الإبراهيمية.. ثم أخذ ينشد سورة يس.. يحرك رأسه يميناً وشمالاً.. انتشى الحضور بصوته العذب.. ردد الناس ما يتلوه. بعد ذلك. رفع دفه.. نقر على جلده نقرات رشيقة.. ردد مدائح الأنبياء.. ثم اختتم بقراءة جماعية لسورة الفاتحة على روح المتوفاة.. وقد أزبد فمه.. وتفصد وجهه عرقاً. ارتفعت الأصوات من هنا وهناك: أحسنت يا مولانا.. بارك الله لك.. زادك من فيض بهائه.. بركاتك يا مولانا.. وهو يبتسم في زهو.

في تلك الليلة نمنا في ذلك الديوان. لم نأكل مما في الكيس. تناولنا

نحن وأسرة شقيق المتوفاة خبز الشعير مع القهوة. الجميع يعرفه.. تحدثت إليه زوجة رب الأسرة بكل طيبة وكأنه فرد من الأسرة. رب الأسرة يطلب منه تلاوة مصحفين من القرآن على روح أمه.. ومصحف آخر للحفاظ على صحة أفراد الأسرة ويبارك لهم الله في أرزاقهم.

كنت سعيداً وأنا أتمرغ على فراش يشبه فراش بيتنا. الرائحة نفسها. رب البيت وأطفاله ينامون في نفس المكان.. نمت كما لم أنم من قبل.

عند الصباح خرجنا تحفنّا دعوات رب الأسرة وزوجته.

ـ لا تنسانا من الدعاء يا مولانا.. وموتانا.. اذكرنا في أدعيتك.

لم أسأله عن وجهتنا. اتبعه حاملاً ذلك الكيس المليء ببقايا الطعام.. يحدثني عما يقال حول موت فتاة الأمس دون أن أسأله:

ـ أتعرف أن وفاة فتاة الأمس لم تكن طبيعية؟ يقال إن عمرها لم يتجاوز السادسة عشرة.. مليحة لا ينقصها شيء.. غير أن زوجة أخيها كانت تغار منها.. نجحت في دفعها إلى علاقة غير بريئة مع أحد الشبان.. أخبرت زوجها بحمل شقيقته.. وأن الألسن بدأت تلوك سمعته.. دبر قتلها ليلاً. لم يستخدم أي سلاح ناري أو أبيض لإسالة دمها.. دس لها سماً ناجعاً. صبيحة اليوم التالي أعلن وفاتها.. الكل يعرف. الكل يتصنع الجهل والكل يواسيه لموتها المفاجئ!!

قمت بالدور المرسوم لي. تعرفت على قرى بعيدة. أجدت إنشاد

بعض المدائح. حفظت سورة يس وبعض المواعظ. حين هلّ شهر رمضان. في أيامه الأولى لم نلجأ إلى المساجد. كنا نقضي ليالينا في بيوت الخيرين نقيم ليالي الذكر ومواويل الصحابة.. إلى أن حلت تلك الليلة.. غابت الشمس ونحن نجاهد الوصول إلى مسجد قرية قريبة منا. وصلنا المسجد. تقرفصت جواره صامتاً. أفطر الناس بحبات التمر.. أكمل رواد المسجد لصلاة المغرب.. ينظر المصلون في أعيننا.. ننتظر من يدعونا إلى بيته.. الليل أرخى جفونه الباردة.. غادر آخر الناس بعد أن أطفأ السراج.. خرجنا إلى الصرح المكشوف.

ـ أنا أعرفهم.. لا تتوقع أن رمضان كريم في هذه القرية!

ـ لدينا بقايا طعام.

ـ الطعام الدافئ هناك. في المنازل المضاءة.

دخلت من صرح المسجد. دفء المسجد له رائحة التراب.. ألوان الظلام. أشعلت عود ثقاب.. أخرجت إصبع الشمع من الكيس.. ابتسمت جدران الجير بلونها الأبيض.. كان مولانا يسير ذهاباً وإيابا مردداً صلواته.. يبعث فيَّ الرغبة بالبكاء. اكتشفت أني عاجز عن فهم الحياة.. عن مواجهتها.. وأنها تدفع بي في طرق أجهلها. تكومت جوار الكيس أفكر في لحظتي.. في الأيام القادمة.

كسر من الخبز الجاف.. عظام متعفنة.. هذا ما كان ذخرنا من طعام. أطفأ فراشة الشمعة.. عم سواد الظلام.. يغمغم بصلواته.. ظلام دامس.. شعرت بأني أسير لهذا الرجل.. تردد صدى كلمات سجين زريبة شيخ قريتنا «أين ستذهب إذا هربت؟» ترى لو لم

أهرب فكيف كان سيتصرف شيخنا بي.. من كان منا على الصواب أنا أم ذلك السجين؟

مرَّ وقت وأنا أحدث نفسي.. كنت قد قررت ألّا أنام.. وكان مولانا قد تكوم في زاويته.. أخاف تلك النزوة التي تسيطر عليه في الظلام! أود أن أدير معه حواراً.. أتمنى أن يستجيب لي.. حدثته:

ـ مولانا.. لا أستطيع أن أنام إن داعبني أحد.

ـ وحين تتزوج!!

صدمني بمنطقه العجيب.. استجمعت شتات تفكيري.. هل أحادثه بجنون هذه الظلمة أم بنور خوفي؟

ـ حتى لو تزوجت.

ـ ما الضير إن داعبتك.. أتراني ضاراً؟

ـ لكن المداعبة ترهقني.

ـ الأم حين ترضع وليدها تداعبه بأصابعها. هل ترهقه؟

أكمل جملته.. مد كفه يبحث عن مبتغاه.. كان يمتلك قوة تناقض عذوبة صوته.. حاولت التخلص من يديه.

ـ أرجوك. هذا يضايقني.

انفجر باكياً. شعرت بخجل شديد.

ـ أرجوك أنا.. أرجوك اهدأ.. هل أضررت بك في الليلة السابقة؟ فقط بعض الوقت وأتركك بعد ذلك لتنام. أنت تمنحني متعة عظيمة. إحساس بالامتلاك.. أنا لا أفكر كما يفكر الآخرون.. ولا

أريد أذية أحد.. بعض الوقت فقط.

ـ لكنك تستثيرني.

ـ وما الضير؟

ـ أمرك غريب!

ـ بل أنت الأغرب.. هي لحظات من النشوة!!

صمت كل شيء إلّا حركات أصابعه.. لمسات خبيرة.. ناعمة.. مثيرة.. حملني الظلام بأجنحة رقيقة. نسيت كل ما حولي.. تدرجت النشوة نحو قمة لم أعهدها. لا أعرف كيف خرجت من حلقي آهة ممزوجة بنشوة لذيذة.. سال صوتي.. كل شيء دبق.. طعم المتعة اجتاح ظلمة المسجد.. سحب أصابعه بهدوء.. دفأني وانسحب إلى زاويته في صمت. غطست في بركة من النوم العميق.

عند الصباح تحول إلى وقاره. غادرنا ذلك المسجد.. وطنت نفسي بأن أكون أيضاً بشخصيتين. سرنا بمحاذاة مجرى السيل.

طوال الطريق يحدثني عن تجاربه في الحياة.. وأنه كان يقود الرجال.. ويعضهم.. بل إنه كان صاحب سلطة.. لكن الحياة لا يستقر حالها لأحد. كنت أستمع صامتاً.. حتى وصلنا إلى مشارف سوق يحتشد الرواد بالمئات في مساحة بين سائلتين.. قال لي:

ـ ها قد وصلنا سوق الخميس.. سنشتري لك حذاءً وثوباً جديداً وشاشاً لتجديد عُمّتك.

ــ وأنت؟

ــ سأرى.. إن وجدت ما أحتاجه.

أشجار كثيفة في الأطراف.. مجرى ينبوع.. سقائف من فروع الأشجار الجافة.. ساحة اختلطت فيها الحيوانات بالبشر. والمنتجات الزراعية بالسلع المختلفة. والأدوات الزراعية بالأدوات المنزلية.. نساء ورجال من جميع الأعمار.. حركة نشطة. تحت ظلال عرائش جافة.. الكل يعرض سلعته على الأرض في صفوف متوازية.

طفنا وسط غبار متصاعد. ابتاع لي مولانا ما وعد به. تحت ظل شجرة اقتعدنا الأرض مثل غيرنا. قدم لنا طعام دافئ.

انضم إلينا شاب يعرفه مولانا. كان الحديث بينهما متواصلاً. عرفت من خلاله أن علاقتهما عميقة. وأنهما يلتقيان دوماً. أستمع في صمت.. لفت انتباهي حديث ذلك الشاب حول طغيان بعض المشائخ وازدياد التذمر بين أوساط الرعية وانتشار المقاومة في عدد من المناطق.. وحدوث اشتباكات دموية هنا وهناك.

كان حديثهما قد تطرق إلى ما يجري في قريتي.. وما زاد قلقي أنهم يتحدثون عن حادثة هروبي من زريبة شيخنا.. وأن الشيخ يجدّ في مطاردتي.. دون أن يعرفوا أن ذلك الفاعل أنا!! لم أتحكم بصمتي.. استأذنتهم مشاركتهم الحديث. كنت في موضع الشك وأنا أعرفهم بنفسي. أخذ مولانا ينظر إلي صامتاً بارتياب.. ظل مولانا يستمع مندهشاً مما أطرح.

لقائي بذلك الشاب أعاد لي توازني. وثقتي بنفسي. أضاف لي

معرفة جديدة. لم يحدثني بكل شيء. لكني عرفت أنني لست وحيداً. فتح لي أبواباً أخطو منها نحو آفاق أراها لأول مرة. قال لي:

ـ أمثالك في كل قرية!

ـ كل القرى!!

ـ بل كل اليمن.

اتسع أفق الأمل. لم أعد وحيداً. سأتعرف إلى أصدقاء جدد. آفاقٌ أجهلها. تمتدّ من ظل تلك الشجرة التي نستظل تحتها إلى رؤوس الجبال العالية.

قلت له في حماسة:

ـ ما دوري؟

ـ دوماً وأبداً.. الصراع قائم بين قوى الخير وقوى الشر، وما على الفرد إلا أن يختار. لا يوجد هامش.

ـ أرجوك وضح لي.

ـ هل لديك هدف؟

ـ هدفي أن يكون سكان قريتنا متضامنين وأن يقاوموا جبروت شيخ قريتنا!

ـ نحن سنساعدك!

ـ ما تعنيه بنحن؟

ــ المنتمون إلى قوى الخير.

ــ كيف أعرفهم؟

ــ حين تعرف نفسك حق المعرفة ستعرفهم فرداً فرداً.

ــ كيف؟

ــ الكثير بل الملايين يشبهونك.

ــ لم أفهم!

ــ لست وحدك من يحلم بالعدالة والمساواة.. بالقضاء على الظلم والتسلط والاستغلال. لست وحدك المهدد بالمطاردة والقتل. رفاقك كُثر.. ستتعرف إليهم يوماً بعد يوم.. خاصة عندما تشاركهم النضال.

ــ أنا في شوق.

قاطعني:

ــ أتعرف كيف تتعامل مع السلاح؟

ــ نعم!

ــ وماذا أيضاً؟

ــ ماذا أيضاً؟

ــ أتعرف صيانة بندقيتك؟

ــ وهل تحتاج إلى صيانة؟

ــ أتعرف كيف تتعامل مع المصاب؟

ـ لا أعرف.

ـ علينا أن نظمك إلى دورة في هذا المجال.

ـ أنا جاهز لأي تدريب.

ـ هل سألت نفسك لماذا تتدرب؟

ـ دون سؤال.. لا يوجد لدي أي خيار.

ـ اعلم أن بلادنا مشطرة.

ـ كيف؟

ـ اليمن قسمان.. قسم عاصمته عدن والآخر صنعاء.

ـ لماذا؟

ـ لإضعافها.. وعلينا أن نناضل من أجل إعادة قوتها.

ـ نناضل!

ـ والنضال بدايته الوعي والإيمان بالقضية.. ثم التدريب والاستعداد للنضال. واعلم أن علينا تصفية صفوفنا من عناصر الظلم والتسلط والاستغلال.. وهذه العناصر تتمثل في المشايخ وأعوانهم.

ـ كل المشايخ؟

ـ تخيل قريتكم وقد تخلصت من شيخها.

ـ سيبرز شيخ جديد.

ـ أقول من دون أي شيخ.

ـ ومن سيضبط أمور السكان؟

ـ دولة النظام والقانون. دولة ترسي نظام المساواة والعدالة والحرية.

كان مولانا يشاركنا بعض الحديث.. وحين جاء موعد الرحيل ودعنا ذلك الشاب.. سألته:

ـ أنت تعرف كل ما يدور في قريتي.. اسمي وكل تلك الحوادث.. وأنت.. من أنت؟

ـ أنا اسمي شرهان.. وستعرفني أكثر في اللقاءات القادمة.

ـ متى نلتقي؟

ـ هنا.. يوم الخميس القادم!

في عيني مولانا عتاب.. اعتقد بأني خدعته طوال الأيام الماضية.

6

مصحف

«٦» صغيري حنظلة..

استمر بحثنا عن مكان إخفاء جدك حتى ربيع ٢٠٠٣.. نعود في كل يوم لنحكي لأمي عما قمنا به. كانت حواس أمي تستيقظ ببطء كلما حدثناها عن أمل وجود جدك.. تستمع إلينا باهتمام.. تبتسم كفرخ يحاول فرد أجنحته.

أمي فطمينا أخبرتنا في زيارتنا التالية. أن شيخنا ينكر أي صلة باختطاف جدك واختفائه.. استصدر الشيخ ابن فطمينا أمراً بتفتيش دار شيخنا.. كانت المفاجأة قاسية.. حين أخبرتنا أمي فطمينا بعدم وجود جدك في دار شيخنا.

حدثت زوجة جدك أمي: «إن الدَور السفلي لبيت شيخنا لم يعد مكاناً مخيفاً..» أجهشت باكية وهي تحتضن صدر أمي، تهاطلت دموعي فزعاً من الغد.. خوفاً على حياة جدك.. على أمي، كنت

ما أزال على يقيني من أن جدك على مقربة منا.

في زيارة لاحقة وعدتنا أمي (فطمينا) بإقناع ابنها بالبحث في تلك السجون السرية ،والتي يتردد أن معارضي السلطة يقبعون فيها دون أن يصل أحد إليهم.

في زيارة أخيرة فاجأتنا أمي فطمينا بتسليمنا مصحف جدك الأحمر. خيّم صمت مخيف.. مدت يدها بكيسه وقد لف بخيط قطني.. قالت تتصنع الفرح:

ـ هذه بشارة خير.. لقد استطاع ابني أن يصل إلى أناس يعرفون مكان العطوي.. وهذا مصحفه!. قلت لها:

ـ هل عرفتم مكان احتجازه.. أرجوكِ نريد رؤيته!!

ـ عما قريب سيتضح كل شيء!

ترددت زوجة جدك في تسلّم المصحف.. قالت مرتبكة:

ـ كيف سنشرح لأمك الأمر؟

قلت في ارتباك:

ـ لا يوجد أمامنا أي خيار. الله يرعانا جميعاً برحمته.. علينا تسلّم المصحف.. وفي الطريق نتشاور في ما يجب عمله.

عبرنا متاهات أزقة صنعاء.. صوت أذان صلاة المغرب يتكسر صداه على حوائط الدور القديمة.. لحظات عبورنا تحت سلسلة من العقود المعلقة.. الصمت رفيقنا. قبل وصولنا البيت، نصحتني زوجة جدك قائلة بصوت باهت:

ـ عليك إخفاء المصحف.. لا ينبغي أن تراه أمك.. وسأخبرها بأن البحث جار.

حافظت على تماسكي، لكن زوجة جدك لم تعد بتلك الحماسة.. لاحظت تناقص حماستها يوماً بعد يوم في مشاركتي بالبحث.

بعد أسابيع أدركت أني أواجه معضلة جديدة.. كانت زوجة جدك قد سيطر عليها يقين بمقتل جدك.. وعلامة مقتله عودة مصحفه إلينا. كان لدي بعض الشكوك إلا أني أخفيتها بداخلي. كانت نظرات جدك تذبل يوماً بعد يوم.. اختفت ابتسامتها.. تدنت شهيتها للطعام.. تتلفظ بجمل ساخرة من الحياة ومن المجتمع.. كانت دفاعاتي تتهاوى ببطء.

في إحدى ليالي الشتاء.. نام الجميع. جلست وحيدة أرسم نافذة أطل منها عليك.. أحاول تجاوز ما أنا فيه. فكرت في أن أخرج مصحف جدك من خبائه.. أقرأ إلى روحه ما تيسر.. الليل ولا شريك لصمته يشاركني. نهضت.. حللتُ عقدة شريط القماش.. أخرجته من الكيس.. لون غلافه الأحمر الفاتح ذو رائحة نفاذة. قلبت أوراقه. لاحظت أنه أقل صفحات مما كان عليه قبل أن يعتقلوا جدك. فحصت أوراقه.. لقد نزعت أجزاء منه.. لم يعد العهد القديم موجوداً.. ولا بعض الأناجيل.. أوراق مزقت أجزاؤها.. صفحات طمست بمداد أسود.. كتابات متعددة على الحواشي وبين الأسطر.. قطرات دم جافة على بعض أوراقه.. فقط أوراق القرآن ظلت على حالها.. تذبذبت مشاعري.. غشى تفكيري رعب أن يكون ما تعتقد زوجة جدك حقيقة. تساءلت: ماذا لو عرفت ما حصل من عبث للمصحف؟ أعدت المصحف إلى مخبئه.. عقدت الشريط.. خبأت المصحف حتى لا تصل إليه

يد. لم أنم ليلتها. كانت الاحتمالات تتوارد. أسئلة تتناثر.. لمن قطرات الدم على ورق المصحف؟ من انتزع التوراة؟! لم نزعت بعض صفحات الإنجيل؟ ثلاث ليال من التفكير.. كان قلبي يرتجف خوفاً. قررت إخفاء الأمر.

أعدت فحص المصحف.. كنت على يقين من أن تفاصيل ذلك العبث قد تشكل خيطاً يمكّننا من الوصول إلى بداية حكاية جديدة.

قلبت صفحات المصحف.. بحثت في حواشيه.. أخذت أدوّن العبارات.. أسجل الملاحظات. الليل يسافر وأنا منهمكة في البحث.. خفق قلبي حين سمعت مؤذن الفجر.. اتجهت نحو نافذة الغرفة.. فتحت مصراعيها.. أصوات مآذن صنعاء.. نسائم هادئة.. أبحث في ظلمة السماء عما يساعدني. صعدت درج الغرفة العلوية.. أتأمل في صورة جدك المعلقة.. ابتسامته الساخرة.. نظراته الغائمة.. سألته: ماذا يمكنني فعله؟ خاطبته: أنا بحاجة إلى تفسير لما يحدث! أتخيلهم ينزعونها من بين كفيه.. لحظات استماتته على مصحفه.. يمارسون عنفهم.. يدمونه.. حينها يغمى عليه.. ولا أستطيع أن أتخيل ما يمكنهم فعله به.

حبيبي..

لقد زادت وحدتي.. أنا بحاجة إلى مساعدتك.. لا أدري من أين أبدأ البحث بعد أن تهاوت دفاعات زوجة جدك. بين يدي عدة معطيات.. بحاجة إلى من يساعدني.. من يرشدني إلى ما يمكن عمله.

بنيّ..

أنت الوحيد الذي أشعر بأنه معي.. دلني.. هذه أدلة ورموز كثيرة يحفل بها مصحف قديم.. أنا لا أؤمن بالتنجيم.. ولا بأثر الجن.. أو السحر.. ولم أر في حياتي شياطين أو ملائكة، كما يتحدث البعض، بل إيماني بأن الإنسان هو من يشاء أن يكون ملاكاً أو شيطاناً رجيماً.. ولهذا أنا في حاجة إلى من يساعدني كي ننقذ جدك.. أفكر لمن ألجأ يا إلهي؟

بصيص أمل لا يزال يدعوني لمعاودة زيارة أمي فطمينا.. لأريها ماذا حل بالمصحف من عبث. قررت أن أزورها. حملت ما تبقى من المصحف.. اتجهت لزيارتها.. سرت عبر أزقة صنعاء العتيقة.. مررت جوار الجامع المقدس.. بابه الكبير.. شدتني رائحة زكية.. أريج بخور نفاذ.. وقفت.. رائحة تشبه راحة المصحف.. اقتربت من البوابة.. زادت رائحته.. نداء بداخلي يشدني للدخول.. خطوت كالمسحورة عتبة الباب.. أروقة متداخلة.. سقوف عالية.. لم يكن من أحد أمامي.. خلعت حذائي.. سرت على مفارش عتيقة.. أعمدة منقوشة.. جدران مزخرفة.. الرائحة تقودني إلى الأعماق.. بهو من الفضاء تعلوه قبة تدلت منها سلاسل مذهبة.. صفوف من النجفات الضخمة.. عدة أبواب.. سرت تقودني الرائحة.. فجأة برز صدى صوت:

ـ ماذا تفعلين هنا؟!

وجهٌ أصفر.. يتكئ على عكاز معدني.. يتقدم نحوي فتهتز عمامته.. تدلت منه لحية مسننة.. أنف ضخم.. لملمت جرأتي:

ـ أرجوك دلني على مصدر تلك الرائحة!!

ـ ألا تعرفين أنه محرم على النساء دخول هذا المكان؟

ـ سأقف هنا.. فقط اسمعني!

ـ أخرجي.. لو أردتِ الصلاة هناك باب خلفي يفضي إلى مصلى النساء.

ـ لا أريد مصلى النساء.. أريد مصدر تلك الرائحة!!

وقف ذو الساق المعدنية ملوحاً بساقه في الهواء.

ـ هيا انصرفي قبل أن يراك أحد!

خرجت مدحورة.. واصلت خطواتي عبر سوق الطعام.. سوق العطارة.. سوق الريحان والمشموم.... اتجهت شمالاً.. كانت الرائحة عالقة في أنفي.. أفكر في علاقة تلك الرائحة برائحة المصحف.. خرجت من متاهة أسواق صنعاء.. واصلت السير شمالاً حتى منزل أمي فطمينا.

البوابة الخارجية مشرعة.. لم يطل الحارس من نافذة قلعة الحراسة كعادته. عبرت الساحة نحو باب الحريم.. صعدت السلم.. أرتب كلماتي قبل أن أقف أمامها. حجرات الدور الأول خالية.. ترددت بين الدخول والعودة. بدد الهدوء صوت أحدهم هابطاً من الدور العلوي.. يتحدث بصوت خافت.. لم أفهم تلك الكلمات.. شعور بالإحراج انتابني.. انسحبت نحو الأسفل.. هبط ذلك الصوت.. تخفيت في إحدى زوايا الدور الأرضي.. رجلان هبطا السلم.. وقفا يتحدثان عند فم الباب.. أرهفت السمع.. لم أتبين فحوى حديثهم.. استرقت النظر.. وجه أحدهم يبدو مألوفاً.. تأكد لي أنه

أحد مرافقي شيخنا.. قال له بصوت نزق وهو يسلمه حقيبة بلاستيكية:

ـ سنلتقي لاحقاً!

رد مرافق شيخنا وهو يهم بالخروج:

ـ أنا أعتمد عليك!!

لاحظت سقوط كيس صغير. عاد ذلك الرجل صاعداً درجات الدار.. بينما خرج مرافق شيخنا عابراً الساحة ثم البوابة نحو الشارع.

خرجت من زاويتي في حذر.. التقطت ذلك الكيس.. قررت العودة إلى بيتنا.. أطرافي باردة.. سرت بخوف. لم ألتفت خلفي. عدت مهرولة.. ما زالت زوجة جدك تواصل حديثها لأمي منذ تركتها صباحاً.. صعدت الغرفة العلوية.. شعور بضيق يكاد يقتلني.. فتحت النافذة الصغيرة.. جثوت أمام الضوء.. فتحت ذلك الكيس القماشي.. لفافة ورق مقيدة بشريط قماشي.. حررتها.. ركض قلبي.. لم تكن تلك الأوراق إلا جزءاً من الأوراق المنزوعة من مصحف جدك.. فردتها أمامي.. فتحت المصحف.. قارنت الورق.. الأحرف.. اتضح لي أنها الجزء المنزوع من العهد الجديد: (إنجيل مرقس).. (بشارة متى) و(رسالة القديس بولس الرسول إلى فيلمون) قماش ذلك الكيس من نفس صنف الشريط الذي يلف خباء المصحف.. كانت رائحته مطابقة لرائحة بخور المسجد المقدس.

أشعر بضغط ثقيل على صدري.. أفكر في أسباب خيانة أمي

فطمينا.. أتكون هي جزءاً من المؤامرة؟ أضحت قدرتي على الوصول إلى الاستنتاجات ضعيفة.. هل هناك دور لابن فطمينا في ما يجري؟ كيف أجد الأجوبة لكل ما يدور؟ خيوط عديدة بين يدي.. لا أعرف كيف أسير وراءها.. مشاعر مخيفة.. أين أجد الجزء الخاص بالتوراة.. علاقة الرائحة المشتركة بين قطع القماش ورائحة المسجد.. أقف بين خيوط متداخلة.. هل ما يدور في دار أمي فطمينا بمعزل عن معرفتها؟ وخادمتها (شخنما) ماذا عنها؟

تعددت الخيوط وتشابكت.. بحاجة إلى من يساعدني.. لم أجرؤ على الحديث إلى زوجة جدك عما أنا فيه.. فقد يتضاعف يقينها بمقتله.. تبتسم في وجهي كلما قرأت عليها بعض آيات الفرقان.. قائلة:

ـ ليتهم علموني الحروف.

ـ يمكنني أن أعلمك حفظها.

ـ لم يعد في العمر ما يستحق.

ـ أرجوك.. لا تجعليني أفقد الأمل.

ـ مثلما تقرئين على روح خالك.. عديني أن تقرئي على روحي بعد رحيلي.

ـ كلماتك تخيفني.. خالي سيكون يوماً بيننا.

ـ هيهات.

ـ هذا اليأس لم أتعوده منك!

ـ روحي هي التي تسابقني لملاقاته.

أهم بالحديث عما وجدت.. فأفضّل الصمت. أسمع صوتها وهي تكرر لأمي نفس الحكايات.. يوماً بعد يوم يذبل صوتها.. يستهويها الحديث عن الرحيل.. أحاول إقناعها:

ـ أرجوك لا تتحدثي عن الرحيل.

ـ وماذا تبقى لي؟

ـ الأمل.

ـ لن تجديه.. العطوي سدد ثمن إيمانه وتركنا للشقاء.

ـ أتقبل منك كل أحاديث الرحيل.. لكن أرجوك ألا تتحدثي بذالك أمام أمي.

ـ مهما حاولنا حجب الحقيقة فهي تسكننا. والرحيل نافذة إلى الخلاص.

تكمل حديثها معي.. لتتجه نحو عتمة أمي.. لتكرر حكاياتها دون ملل.. تستمع إليها صامتة.. تغفو.. وحين تصحو تجدها لا تزال في حديث متواصل.

في صباح ذلك اليوم أيقظتني على غير عادتها.. كان وجهها يشع بابتسامة نضرة. حدثتني هامسة:

ـ سمبرية.. أود الحديث إليك!

ـ يسعدني ذلك.

ـ بالأمس رأيته!

ـ من رأيت؟

ـ خالك العطوي!! كنا أمام النافذة المطلة على الوادي في بيتنا بالقرية.. صوته لا يزال في مسامعي وهو يردد صلواته من المصحف الأحمر. في البدء استغربت أن يكون موجوداً إلى جواري.. لكنني حدثت نفسي.. أخيراً أفرجوا عنه.. تذكرت كلماتك بعودته إلينا لم يكن حلماً.. كنت سعيدة سعادة لا توصف.. ينشد: «وإن كنتم قُمتم مع المسيح فاسعوا إلى الأمور التي في السماء حيث المسيح جالس عن يمين الله» ثم صمت ليتلو: «وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب» كان ذلك الوقت صباحاً باكرا من صباحات القرية.

رفع وجهه إليَّ مبتسماً ينظر إلي بعطف.. اعتراني خجل ممزوج بالفرح.

قال لي: تعالي. كررها عدة مرات. أجلسني جواره.. ثبت المؤشر وسط مصحفه وأغلقه.. ليضعه جانباً.. احتواني بين ذراعيه.. دفأني بلحفته.. شعرت أني عدت طفلة صغيرة.. تبخر الإحباط والقلق.. لم يعد هناك إحساس بالحزن والضياع.. قال لي:

ـ أتيت لترافقيني!

قلت له في لهفة:

ـ هذا ما يسعدني.

ـ سنكون معاً.

ـ لن تتركني بعد اليوم.

ـ ولهذا أتيت لنذهب معاً.

لم يسألني عن أحد.. صمت عند هذا الحد. انسابت دموعي.. مسح وجهي بأصابعه.. لم أتفوه.. لكنه كان يتصرف كما أتمنى ويبتسم.. يفكر بما أفكر به.. أنشد: «سبحوا الرب يا جميع الأمم.. ومجدوه يا كل الشعوب.. لأن رحمته غلبت علينا وأمانة الرب إلى الأبد تدوم.. هللوا يا..» شعرت بأن روحي تردد ما ينشده.

صحوت من منامي وحيدة على فراش العجز.. لا أريد أن يكون ذلك مجرد رؤيا.. تلك تباشير النور.. لقد عشت البارحة دهراً من السعادة لم أذقها من ذي قبل.. لقد جئت إليك كي تسمعيني.

كنت في صمت أستمع إليها.. تغير ملامح صوتها.. ابتسامتها.. لم تتح لي الفرصة كي أبادلها الكلمات.. حدثتني بروح طفلة.. وحين سمعنا خطوات أمي خارجة من دورة المياه.. صمتت ثم التفتت إلي وقالت:

ـ هل أخبرها؟ سأخبرها أني كنت مع خالك ليلة البارحة.

ـ لن تصدق.

ـ سأخبرها.

صمتت ثم أردفت.. لقد قررت أن أخرج إلى بيتنا في القرية.. هو يريدني هناك.. لن أخذله.

ـ وتتركينني أبحث عنه وحدي؟

ـ بعد اليوم لن أبحث عنه.. قد وجدته.. هو ينتظرني هناك.. لن أخذله.

ـ وأمي من يحادثها؟

ـ سأقنعه بدعوتها.. لكنني قبل أن أغادر صنعاء سأعرج على دار شيخنا.. أقابله وأخبره بأن العطوي عاد.

لا أدري كيف وافقت على رغبتها.. غادرتنا.. عاد صمت بيتنا إلى سابق عهده.. أذهب إلى فراش أمي.. تحتويني بعينيها.. أشعر أنها تشاركني كل ما يدور بصمتها.

ـ في الأسبوع الثالث لرحيل زوجة جدك جاء من يخبرني أن النسوة وجدنها ميتة بداخل بيتها!! وأنها ربما تكون قد انتحرت.. شيء ما سمعته يدوي بداخلي.. شيء ينسلخ دون ألم.. وجدت عيني جافة.. كنت أتوقع أي شيء إلا أن نفقدها.. شددت من عزمي.. أخفيت الأمر على أمي.. توجهت بصحبة أحزاني إلى قريتنا عرفطة.. هي المرة الأولى التي أعود إليها منذ أكثر من ثلاث وعشرين سنة.. كل شيء قد تغير.. فقط الجبال باقية كما كانت.. اللسان الصخري كذلك يمتد في أفق السماء.. تكاثرت المنازل.. أجزاء الحصن مهدمة ولم يعد منها غير حوائط دون أسقف.. عدد من النساء المسنات يقفن في حزن أمام بيت جدك.. ارتفعت أصواتهن بالنواح حين رأينني.. الباب كان مفتوحاً.. وكانت وسط الحجرة التي تتوسط أبواب الغرف ممددة.. عيناي تحجرتا.. لم أستوعب عدم سماع صوتها بعد اليوم.. اقتربت من وجهها المبقع بلون أزرق.. قالت بعض نساء القرية إن دمها احترق لفراق جدك.. وقالت أخريات إن هذا نتيجة ابتلاعها سماً.. وحين شاركت في غسلها.. أدركنا أنها ماتت مخنوقة بفعل فاعل.. حزّات الحبل على عنقها.. وآثار أظافر على أكتافها.. وعدة كدمات ورضوض على ذراعيها.. وجروح صغيرة.

كانت النوافذ مقفلة.. الباب الوحيد للبيت محطم.. هكذا وجدته النساء اللاتي اكتشفن مقتلها.

لم يحضر الرجال لدفنها.. فقط جمع من النساء.. وبعض الصبية.. عدد كبير من المسنات حضرن لوداعها.. القرية تتلصص من نوافذها.. لم يحضر أحد للعزاء.

قُتِلت زوجة جدك.. لتتحول القرية إلى مكانٍ مُوحش.. عيون شيخنا في كل مكان.. سطوته تفرض على الجميع سلوكياتهم.. الوادي الذي أعرفه من سنوات فقد ملامحه.. بهجة الحياة وحركتها باقية. يتحرك السكان في حذر.. يتحادثون بحذر.. الجميع أجراء.

عدت من قريتنا عرفطة أحمل أحزان الدنيا.. حرصت على أن أخفي الأمر عن أمي.. لم أتمالك.. ارتميت على صدرها.

ليل صنعاء بارد.. أبحث عما ينتشلني مما أنا فيه.. أكملت رسالتي هذه إليك.. الحزن يمزق قلبي.. واصلت تدوين احدى رسائل تبعة.. أحاول الابتعاد عن رائحة الفقد.. ما كتبه ذات يوم:

«٣» صبيتي سمبرية..

لم أنسَكِ لحظة.. لقد حركتِ بداخلي اكتشاف نفسي.. لم أكن لأعرف أني أصبحت ناضجاً إلا حين وجف قلبي لحظة التقت عينانا في اللقاء الأول.. وحين أكتب إليك أجدني أكتب إلى صبية لفتت انتباهي بجمال روحها.. أسأل نفسي.. هل كنت أحتاج لأن أتشرد حتى أكتشفك؟.. أبتعد عنك كي أحملك بداخلي..

إن بي مشاعر تتقد يوماً بعد يوم وأخاف أن لا تبادليني إياها.. فهل تفكرين بي كما أنا منشغل بك؟

صديقتي..

منذ التقيت بشرهان في سوق الخميس تغير مولانا.. أصبح يعاملني باحترام واضح. على مدى السبعة أيام الأخيرة زرنا عدة قرى شاركنا في ثلاثة أعراس ومآتم.. أتجنب الحديث.. لم أعد أمامه مجرد ولد.. غيرت تعاملي معه.. أضحى يتحدث باقتضاب.. يعرفني بأسماء القرى المحيطة.. يستعرض لي أسماء رجال اشتهروا بمقارعة التسلط والظلم.. يشرح لي مبادئ الحرية والنضال.. يقرب إلى ذهني أسس تحقيق العدالة والمساواة.. شارحاً ماهية قوى الشر وما هي قوى الخير والتقدم. عرفت منه خلال أيامي الأخيرة معه أسس المبادئ الوطنية.. وعرّفني كيف أواجه الحياة.

حين يسترسل في حديثه أصارع شيئاً ما بداخلي. لم أعد أخشى شيئاً. في ليلة الوداع اختار مسجد قرية نائية.. ما كاد قرص الشمس يختفي حتى أشعل ضوء الشموع لنتناول ما تيسر من طعام.. ثم أطفأها.. تمدد كل منا في زاويته.. نباح الكلاب يتقطع.. حاولت أن أنام.. كانت أفكاري مشتتة بين تعدد شخصياته وبين موعدي مع شرهان صباح غد.. كنت أحلم بكل ما سمعته من شرهان.. أخاف أن لا أجده حسب موعده. أن أستمر مجرد صبي تابع لمولانا.. قطع توارد أفكاري صوته:

ـ الليلة يجب أن تحدثني عن تفاصيل قصتك.

لذت بالصمت.. قال:

ـ أعرف أباك.. وأعرف شيخكم.. وأعرف معظم سكان قرية حصن عرفطة.. حيث يعيش الناس راضين بالقهر والتسلط.. يتواطأون مع جلادهم.

أستمع إليه وأنا في صراع مع نفسي.. أستكثر عليه أن يحدثني بتلك القيم.. أراه مجرد مداح متسول.. يطوف القرى بحثاً عما يملأ بطنه. قلت له في حنق:

ـ وما الفائدة من معرفتك هذه؟

ـ أيضايقك شيء؟

ـ كل ما حولي يضايقني!!

ـ تمدد.. لن تستطيع أن تتحدث وأنت هكذا متوتر.

ـ أنا لست متوتراً.

ـ حدثني عما يضايقك.

ـ أنت.

ـ أنا؟

ـ نعم.

ـ أنا.. أمتأكد؟

ـ دعني أستغفر لذنوبي معك!

ـ الليلة أنت تعلن تنمرك.. ما جزاء الإحسان إلا إحسان.. لماذا هذه القسوة؟

ـ سئمت ما أنا فيه.

ـ أنت تتحدث بكلام ليس كلامك.. هل أسأت إليك؟

ـ أنا من أسأت إلى نفسي!

ـ ستتركني صباحاً.. وسأطوف القرى وحيداً.. هل تصدق أنني كنت أشعر بأنك شاب مختلف؟ وكنت أجاهد نفسي لاكتشافك.. اليوم أرى غدك أكثر عطاء.. وأراك رجلاً تعمل من أجل قضية.. أراك شيئاً رائعاً.

تضاءل صوته حتى تحول إلى همس. انهارت كلماته وهو يبكي.. لم أعد أميزها.. كنت أفكر في كلماته التي لم أسمعها طيلة تجوالي معه في الأيام الأولى.. كلمات نابعة من شخصية ليست شخصيته. غالبني النوم وهو يواصل حديثه.. لم أدر كم نمت.. أيقظني الصمت.. فكرت في النهوض لإشعال شمعة.. استعدت كلماته.. طال الصمت.. لم يعد من نوم. صوت حركة.. كمن ينهض.. ينسحب من زاويته.. أرهفت السمع.. وكأن مولانا يبتعد عن زاويته.. قد يثأر من كلماتي.. وأنه اللحظة قد يستل مديته لينتقم.. استعددت لتغيير مكاني بهدوء حتى لا يسمع.. شهيقه وزفيره يعلوان وسط ظلام حالك.. ارتفع صوت كلماته.. دندن بلحن شجي.. كان يعاتبني بكلمات رقيقة.. لا أدري ما أنا فيه.. هل أنا جانٍ أم مجني عليه.؟ حمّلني الملامة.. عاتبني بكلمات مغناة.. قال إنه يحبني.. وإنه حزين لفراقي.

ازدحم ظلام المسجد بعاطفة كلماته. استجمعت قواي.. نداء بداخلي يدفعني.. قررت المبادرة.. لن تكون أفعالي مجرد ردود.. نهضت وسط الظلام.. في هدوء أشعلت عود ثقاب.. فوجئت

بعريه.. يدور مغمض العينين كدورة دراويش (المولوية).. استرسل شعر رأسه.. قوامه متناسق.. عكس ما يظهر وهو بثيابه الفضفاضة.. بشرته ملساء.. شهقت وأنا أرى عانته دغلاً من الشعر.. يتصبب عرقاً غزيراً.. فجأة سقط أرضاً.. هدأ كل شيء إلا من أنفاسه.. ضوء الشمعة يفضح كل شيء. خفت أن يكون في غيبوبة.. اقتربت.. لا يزال جلده يتفصد.. تحققت.. رأيته دون عضو.. كانت ظنوني في محلها.. فقط كتلة شعر.. وبقايا مضغة لحمية.. أخذت لحافي.. غطيته.. أطفأت الشمعة.. عدت إلى زاويتي.. سحبت حصير الأرض.. تدفأت.. لم يدم طويلاً.. اقترب مني.. انتظرت أصابعه.. لم يمدها.. تذكرت ما قاله لي في ليلةٍ سابقة:

ـ أشعر حين تمنحني حق المداعبة بالانتشاء. ملامسته تسكرني.. انتشاره يجعلني أشعر بالانتشار.. وحين يصل إلى الذروة.. أكون قد وصلت معه.

اقتربت منه.. التقطت أصابعه.. قربت كفه مما يحب.. دسستها.. تركته يداعبه.. بإرادتي هذه المرة.. ما يشغلني التفكير حول سبب ذلك البتر!! أنا على يقين من وراء ذلك قصة.

في تلك الليلة لم أدعه ينسحب إلى زاويته.. استبقيته إلى جواري.. كررت أصابعه المداعبة.. وتضاعفت سعادته وهو يمارس شغفه بفرح.. تحدث بصوت هادئ:

ـ ألآن أنت إنسان مختلف!

ـ لا أعلم من هو المختلف؟

لم ننم تلك الليلة. شعرت أنني في تلك الليلة أقرب إلى مولانا مما مضى.. وأني لم أكتشفه من ذي قبل. كنت أبحث عن سبب يمكنني من أن أسأله حول بتره القديم.. وأن لا أجرح مشاعره. تموت الكلمات في حلقي.. ودعته عند الصباح وما زلت في حيرة.. صافحت كفي تلك الكف.. احتضنته.. قبلت جبينه.. ثم انفصلت مبتعداً.. قلت مبتسماً:

ـ سنلتقي يوماً.

ـ كن حذراً.

ـ ادع لي يا مولانا.

ـ وأنت أيضاً اذكرني.

ـ عندما نلتقي ستحكي لي عن ذلك القطع.

ـ قد لا نلتقي.. لكنني أعدك لو التقينا سأحكي لك!!

ذرفتُ دموعاً صامتةً وأنا ألوّح مودعاً. ابتسم.. تمتم بصلواته. رافعاً يده في الفضاء.

نهاية ديسمبر ١٩٧٨

7

شهيد

«٧» بنيّ وقرّة عيني

بعد أن تكشفت لي ضلوع أمي فطمينا في استمرار إخفاء جدك. قررت أن أتجه في خطوات البحث بعيداً عن أمي فطمينا.. البحث عن سر اشتراك رائحة المسجد برائحة كيس المصحف الأحمر وكذلك كيس القماش الصغير الذي وجدته في بيت أمي فطمينا.. علاقة وجود مرافق شيخنا بدار أمي فطمينا.. أسباب بتر العهد القديم من المصحف.. تمزيق بعض أناجيل العهد الجديد.

قررت التسلل إلى داخل المسجد المقدس.. أن أحاول كشف سر العلاقة بين رائحة أكياس المصحف وتلك الرائحة. هذه هي المرة الثانية التي أتنكر بزي ذكوري.. خرجت من البيت قبيل صلاة الفجر.. شوارع تسكنها السكينة.. لا أحد.. تبدو الأزقة سراديب ومغارات.. العقود المعلقة بين الدور العليا قناطر طائرة. كأني انتقلت إلى مدينة لا أعرفها.. هدوء غريب.. قلبي يخفق

وحيداً... أتخيل أشباحاً تلاحقني. انفجرت أصوات مآذن المدينة القديمة.. السماء انفتحت لصوت الله.. إحساس بالقلق.. يعود الصمت للأزقة.. دور جامدة.. بعض الذاهبين إلى المساجد.. وصلت باب المسجد.. أخرجت قطعتي القماش.. استنشقت رائحتهما.. خلعت حذائي.. عبرت بوابته.. سرت متذكرة أني رجل ولست امرأة.. قلة من المصلّين يقفون فرادى.. آخرون عاكفون على القراءة يهزون رؤوسهم كبنادل ساعات الحوائط.. والبعض يسير مردداً صلواته. توغلت أبحث بهدوء.. امتلأ المكان برائحة ذلك البخور الدافئ.

رجل الساق المعدنية يقبض بين أصابعه سلاسل صفراء تدلت في نهايتها مبخرة نحاسية.. يطوحها في الهواء لتجمير الفحم.. تاركاً سحباً من الدخان أينما سار.. مقوس الظهر.. حركاته راقصة.. تهتز عمامته البيضاء تكاد أن تسقط مع كل خطوة.. بين فينة وأخرى يدخل يده جيب جبته.. يضع البخور على الجمر. راقبته.. توغل في ممر داخلي.. دخل ملحقاً بالمسجد.. تبعته.. تسللت دون أن يشعر بوجودي. توغل في غرفة أخرى.. حجرة واسعة في إحدى زواياها مقعد خشبي لحمل جثث الأموات.. مغتسل المتوفى.. على جانب آخر تدلت قطع قماشية كبيرة يبدو أنها أكفان جاهزة للموتى.. تخفيت خلفها. عاد ذو الساق المعدنية من الداخل.. وضع مبخرته جانباً، أضاف بخوراً على جمرها.. بحرص يحرك أقمشة الأكفان لتتخللها الأبخرة.. أراقبه وهو ينزلها من الحبل قطعة قطعة.. يطويها بعناية.. يحملها داخلاً من باب جانبي.. ليعود حاملاً قطعاً أخرى. يرتبها على الحبل من جديد ويمضي خارجاً إلى بيت الصلاة أمام المحراب المذهب.

ارتفع صدى صوت إمام المسجد عبر مكبرات الصوت.. أروقة المسجد: «الله أكبر.. أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن محمداً رسول الله...»

تجمع كل من في المسجد صفوفاً طويلة خلف الإمام.. ينظرون إلى محرابه المزخرف. نهضت من خلف أقمشة الأكفان المبخرة.. وحيدة أحفز ذاتي.. خفق قلبي إحساساً بالرهبةِ والخوف.. خرجت من تحت الأكفان.. تقدمت نحو باب حجرة الجنائز.. لم يكن الباب مغلقاً بالرتاج الداخلي.. دفعته برفق.. دخلت.. ضوء خافت.. أخرجت أشرطة القماش من جيبي.. قارنت.. هي من نفس أقمشة الأكفان المبخرة على الحبل.. نفس الرائحة.. دخلت باب حجرة داخلية.. لاحظت عدة ممرات.. أبواباً عديدة.. صوت إمام الصلاة يتلو الفاتحة بلحن جميل.. لا يزال هناك متسع من الوقت قبل أن يعود.. كنت مضطربة فسريعاً ما بدأ الإمام في ركعته الأولى.. تركت الحجرة أبحث عن أدلة.. دخلت كالمجنونة حجرة أخرى مستطيلة تكدست على رفوفها مجلدات حتى السقف.. صناديق خشبية قديمة.. وغرفة مجاورة تبعثر على أرضيتها أدوات التغليف والتجليد.. وأخرى امتلأت رفوفها بأكفان مرتبة.. أواني البخور وعطور الموتى.. وأشرطة قماشية.. سحبت أحد الأكفان.. وشريطاً أخفيتهما تحت ملابسي.

أسمع صوت إمام الصلاة يكمل قراءة سورة الإخلاص قبل الركعة الأخيرة. لم يبقَ من الوقت الكثير.. باب آخر.. دفعته.. حجرة خالية إلا من مقعد وطاولة يتوسطانها.. على جانبيه عدة شموع مطفأة.. طاولة متوسطة وعدة مقاعد حولها.. خزانة خشبية.. فتحت بابها.. أوراق موظبة في ملفات.. عدة ملفات..

كتب مختلفة.. مقتنيات شخصية: ساعات يدوية.. أقلام.. أحزمة جلدية نظارات.. وفي الأرفف العليا بعض الملابس المستهلكة.. شيلان وألحفة ـ قد تكون لموتى ـ رتبت على رفوف جانبية.. إحداها تشبه لحفة جدك.. فردتها.. صعقتني المفاجأة بل هي لحفته! ضج قلبي بالخفقان.. طويتها إلى جوار الكفن بين ملابسي.. لم أعد أسمع صوت إمام الصلاة.. سرت مذعورة عبر الممرات.. غرفة الجنائز.. لم أكتشف بقية الحجرات.. لمحت ذا الساق المعدنية قادماً من رواق مقابل.. يقترب من الباب. لم أجرؤ على الخروج.. تخيلت ما يمكن حدوثه. لو ألقي القبض علي. فكرت بالاختباء خلف الأكفان المعلقة على الحبل.. دخل.. أقفل الباب بمزلاج خشبي.. يغمغم بكلمات لا يفهمها إلا هو.. ترك عكازه.. حرك جمر المبخرة.. تحرر من بعض ملابسه.. عضلات ذراعيه متناسقة.. أوردته نافرة.... وقع قدمه الوحيدة وهو يطفئ أنوار المسجد من لوحة تحكم جدارية داخلية.. أطفأ نور الحجرة.. ظلام دامس.. صمت رهيب.. أطرافي تكاد تتجمد.. لم أعد أميز مكانه إلا من خلال غمغمة أدعيته.. وقع قدمه الوحيدة.. هدأ كل شيء.. أرهفت السمع.. أنتظر خلوده للنوم!

كنت أفكر في طريقة للخروج.. أخاف أن أصطدم به.. أتعثر بشيء.. أو أحدث صوتاً أثناء تحريك المزلاج. من المؤكد أن أحدهم في الأروقة.. فإن لم يستطع اللحاق بي قد يعلو صراخه ومن ثم يقبض عليَّ أحدهم. قررت البقاء.. أبحث بين مقتنيات عقلي.. عن لحظات حميمة في حياتي الماضية تؤنس وحدتي.. استحضرت أمي.. تخيلتها وقد عادت إلى سابق ثرثرتها.. وصوتك يتدفق عبر الهاتف من العراق.. تبعة وقد عاد إلينا.. استحضرت

إحدى رسائله.. تلك التي كتبها إلي بعد انضمامه إلى صفوف الجبهة الوطنية.. قال فيها:

«٤» الفاتنة سمبرية..

ها أنا أكتب إليك وكلي سعادة بعد أن خط القدر انضمامي إلى صفوف المناضلين. لقد اخترت طريقي.. أسير ورفاقاً لي نحو المناطق الوسطى الملتهبة.. المحاذية للحدود مع جمهورية عدن.

أشعر أني أطير تحت الشمس.. الأرض تحت أقدامي سحب.. أتخيلك تبتسمين لي.. همسك في مسامعي.. أزداد تحليقاً.. الإنسانة التي تلهمني خيال الغد.

حسب موعدي مع الرفيق شرهان وصلت مبكراً إلى موقع سوق الخميس. لا يزال خالياً.. جلست أنتظره تحت تلك الشجرة.. كنت قلقاً من أن يكون قد نسي موعدنا.. فكرت.. لو لم يأتِ!!

حضر تسابقه ابتسامته.. خرجنا من السوق.. قطعنا المسافة إلى منطقة «القفر» في ست ساعات مشياً على الأقدام.. موقع لتجمع عناصر المقاومة.. أخذت أنا وعدد من المتطوعين دورة مكثفة في استخدام الأسلحة الهجومية الخفيفة هناك.. على إسعاف الجرحى.. استمر بقاؤنا سبعة أيام.

رحلت بعد ذلك جنوباً والرفيق شرهان مع مغيب الشمس. كنا تسعة رفاق بأسلحة هجومية صرفت لنا. قال لنا: سنسير أكثر من سبع ليال.. وسنستعيض النهار بدلاً عن الليل لأخذ حاجتنا من

النوم. قبيل شروق الشمس كنا قد دخلنا أطراف إحدى القرى.. قضينا نهارنا فيها. في بداية الليلة الثانية غادرنا لنصل مدينة يريم عند الفجر.. هكذا كنا نسير خلف قيادة الرفيق شرهان الخبير بتفاصيل تلك الجبال والوديان. بعد مغيب الشمس عبرنا الطريق الإسفلتية. إلى قاع الحقل المفلوح بزراعة الشعير والقمح.. استغرق عبور أطرافه أربع ساعات.. ظننت أننا لن ننجو لكثرة نباح كلاب المزارع ورصاص حراسها. كنا نخرج من حقل شعير لندخل منطقة نباتات شوكية أدمت أطرافنا وثيابنا.. كلاب تطاردنا.. كانت التعليمات بعدم الركض.. أو إطلاق الرصاص تحت أي ظرف.. ويجوز لنا أن نحتمي بساتر عند ملاحقة الكلاب لنا.. أو نقف في وضع دائري.. لنتركها تبعثر نباحها حتى تمل.. كان الرفيق شرهان يسترشد وسط ظلام الليل بالنجوم والجبال وأنوار القرى كعلامات تحدد مسارنا. صعدنا جبالاً باتجاه الشرق.. كان مؤذن الفجر قد رفع صوته حين وصلنا قرية (بيت الشامي).. قادنا الرفيق شرهان وسط ظلام أزقة القرية إلى أحد المنازل.. حواسنا تستوعب الأصوات والحركات.. نستعد ببنادقنا الرشاشة لأي مفاجأة.

استقبلنا رفيق عرّفنا إليه شرهان بفخر: «الرفيق دحان ضابط اتصال سري».. قضينا في ضيافته نهارنا حتى مغيب الشمس. بعد المغيب انطلق بنا شرهان عبر مسالك جبلية متجنباً الاقتراب من القرى.. نبهنا إلى أن بعض أنصار السلطة يشكلون فرقاً لاصطياد المتسللين أمثالنا.. قال: ولهذا يسهر أنصار التخلف وأذناب الإقطاع والتسلط لاقتناص من يمر ليلاً أو نهاراً.. ليلقوا القبض عليهم بعد أن يجردوهم من كل متعلقاتهم ثم يصدرونهم إلى صنعاء مكبلين.. سبق أن نشبت عدة اشتباكات في الماضي على هذه الطريق.. راح

ضحيتها عدد كبير من الرفاق.. ولهذا علينا الحذر وأن لا نستخدم أي إنارة.. أو إحداث أي صوت مهما كانت الظروف.. حتى لا يهتدي إلينا رصاصهم.

ظهر القمر في موعده.. انعكس ضوءه على صفحة مياه سائلة وادي بنا.. ما بعث البهجة في نفوسنا.... لم نعد نخطئ اتجاهنا.. سار بنا الرفيق بشكل جيد حتى وصلنا إلى مساقط شلال وادي بنا.. هدير المياه المتدفقة يشق صمت الليل.. سرنا بمحاذاة المياة الجارية.. حقول الذرة.. جدران المزارع الحجرية.. أشجار الارضي شوكي.. الخروع.. التين. سرنا بعيداً.. ابتعد صوت الشلال.. تعالى خطو أقدامنا.. خرير الماء في الجداول.. أزيز حشرات الأشجار.. نقيق ضفادع.

ضوء الفجر يلون ضباب الأفق.. كانت وجهتنا (السدة) كما حددها الرفيق شرهان. سرنا سيراً حثيثاً نسابق خيوط الشمس.. قمم الجبال.. القرى بمنازلها الحجرية.. السفوح القريبة.. الوديان.. سطع نور الشمس. كنا مكشوفين.. بعض المزارعين يهبطون باتجاه الحقول.. رذاذ الشمس يطفو رويداً رويدا. قال الرفيق شرهان: اتبعوني صامتين. كان منظرنا ناشزاً ببنادقنا الرشاشة. وسط فلاحين يصطحبون البهائم وأدوات الفلاحة. أحدهم وقف وسط الطريق معترضاً لنا.. تجاوزناه صامتين. صرخ فينا:

ـ يا (عويلة).. يا (عويله) عاد شي سلام!!

توقف شرهان ملوحاً بيده دون أن ينطق.

لحق بنا مهرولاً شاهراً فأسه.

ـ لا سلام ولا كلام؟

ـ يا أخي سلام عليكم.. ماذا تريد منا؟

ـ ما هذه العنجهية؟ رد التحية واجب!

رد عليه شرهان:

ـ عفواً يا أخي هل علينا أن نجيب على أسئلتك؟

ـ غرباء ومسلحون؟

ـ وماذا في الأمر؟

ـ أنتم مخربون.. والله لن تخطوا خطوة!!

ـ إذاً أنت قاطع طريق!!

ـ هيا معي إلى إدارة أمن الناحية.. وهناك سنكتشف من قاطع الطريق!

كان يتحدث ملوحاً بفأسه.. أخذ بعض الرفاق وضعاً دفاعياً.

هرع بعض الفلاحين لفض الاشتباك.. أصر الرجل على اقتيادنا عنوة.. كان أحدهم قد اقترح أن نسلم أسلحتنا ونمضي.. أو يذهبون بنا إلى إدارة الأمن. تجمع الناس وتكاثرت الآراء.. انبرى شاب من بينهم موجهاً حديثه إلى الجمع:

ـ ألا تستحون؟ كيف تجيزون لأنفسكم قطع الطريق وسلب العابرين! أين القبيلة؟ والله إن من يعترضهم سأكون له غريماً!!

ثم التفت موجهاً كلامه إلينا:

ـ هيا امضوا في حال سبيلكم.

وقف الجميع يتهامسون.. بين أكثرية مؤيدة وقلة تتوعد بملاحقتنا. سرنا وأصابعنا على أزناد البنادق. رائحة الموت تزكم أنوفنا.. نتوقع إطلاق الرصاص علينا في كل لحظة.

انعطفنا مع مجرى السيل الجاف.. تفرق الجمع.. كانت أصوات التهديد تصلنا.. غبنا عن أنظارهم.. قلت للرفيق شرهان معاتباً:

ـ لقد كنت جافاً بعض الشيء.

ـ على المرء أن يكون حازماً في بعض المواقف!

ـ لكنا كنا في مأزق.. لولا تدخل ذلك الشاب!!

ـ أجزم أن ذلك الشاب من الرفاق.. من أبناء المنطقة!!

ـ لقد أنقذنا.

ـ وأنقذهم!

ـ سبق أن حذرتنا من السير نهاراً.

ـ لم يكن لدينا خيار آخر.

نسير خلفه مذهولين. قال كمن يحدث نفسه.. وقد تعالى صوت حصى السائلة تحت أقدامنا.

ـ في إحدى المرات.. سلبونا أسلحتنا وكل ما معنا من نقود.. بل إن أحدهم جرد زميلي من بعض ملابسه.

سرنا في صمت نتجنب كل حديث. كان مجرى الماء يزداد.

اتساعاً.. حشود الأشجار على جانبي السائلة.. طيور لامعة تغازل بعضها.. تطير بذيولها الطويلة من دغل إلى آخر.. اقتربنا من (السدة).. قال لنا بلهجة آمرة:

ـ تلك أطراف المدينة الصغيرة.. سننفصل قبل دخولها.. هذه المدينة بها رفاق لنا.. سأسير وحيداً وعليكم بالانتظار حتى أعود. سأزور أحد رفاقنا وأطلب منه استضافتنا حتى مغيب الشمس. هذه المدينة يتجاذب السيطرة عليها رفاقنا وأنصار السلطة.. علينا أن نتوخى الحذر.

سرنا في الطرف الآخر لمجرى الماء. نفايات.. روث حيوانات.. زيوت تالفة.. مخلفات بناء.. راقبنا الرفيق شرهان حتى غاب في شارع ترابي وسط المدينة الصغيرة. اختبأنا وسط أشجار الوادي ننتظر عودته.. ارتفع صوت مؤذن الظهيرة.. بدأت تراودنا الهواجس.. إذا لم يعد هل نواصل السفر في طريق لا نعرفها.. أم نعود أدراجنا! أم نظل هنا نبحث عن حل؟!!

عاد الرفيق شرهان يحمل انكساراً على ملامحه. همس إلينا في حزن:

ـ لقد ألقت السلطة القبض على معظم رفاقنا هنا.. والبعض مطارد.

قال أحدنا:

ـ وماذا علينا أن نعمل؟

ـ أن نتسلل من هنا وبسرعة. لقد تأكد لي الآن أن من اعترضونا في الطريق لن يتركونا نسير في أمان.. تابع حديثه:

كانت قرى الوادي من أهم معاقلنا.. وفيها رفاق لنا كُثر.. والمعلومات التي استقيناها أن السلطة وأعوانها من مشايخ وعناصر التيار السلفي قد نشطوا خلال الأشهر الماضية في ملاحقة عناصرنا في المنطقة.. كانت لدينا معلومات عن هذه الأنشطة.. لكنني لم أتوقع كل تلك النتائج.

ـ هل نعود؟.

لن نعود.. هيا اتبعوني بسرعة لنبحث عن مكان آمن بعيد من هنا. تجنبنا مسالك الطرق الواضحة.. اخترنا دغلاً كثيف الأشجار.. أخذنا وضعاً قتالياً. خرير الماء يعلو كل شيء.. أصوات متفرقة لسكان القرى المحيطة.. عصافير في حالة نشاط.. رياح تعصف بفروع الأشجار العالية.. الشمس ترسم دوائرها على برك الماء.

احتواني النوم.. أحلم بابتسامتك.. صوتك يلون مسامعي.

حين استيقظت كانت الساعة السابعة ليلاً. هالني منظر السماء وقد امتلأت بالنجوم.. هدوء.. أشباح الأشجار.. خرير الماء.. البركة الواسعة.. رغبة جارفة بغمر جسدي بالماء.. أسرعت.. غطست في مياه البركة بكامل ملابسي. بعد عدة شهقات خرجت.. تناولت خبزاً وتمراً.

كان الرفيق شرهان يراقبني مندهشاً.. أشار يحدثني:

ـ تبدو كمن فقد الثقة فيمن حوله.

ـ لم أفقد الثقة.

ـ اتفقنا أن نفكر معاً.. ويبدو أنك قد حسمت أمرك.

ـ كيف ذلك؟

ـ تصرفاتك تقول ذلك.

ـ لا أريد العودة من حيث أتينا.. سأسير جنوباً حتى لو قررتم العودة.

ـ من قال إننا سنعود؟ فقط يجب أن يعرف الجميع أن علينا مضاعفة جهودنا لقطع المسافة إلى القرية المرجوة قبل أن تشرق الشمس.. بدلاً من ليلتين.. سنتجاوز المسافة في ليلة واحة.. المنطقة مراقبة.. لن نقترب من أي قرية حتى نصل إلى قرية (كولة السيد).. وهذه القرية تقول المعلومات إنها آمنة.

ـ لقد أسعدتنا بهذا القرار.

ـ دعني أحدثكم بوضوح.. أنا قلق على مستقبل بعضكم.. لقد اكتشفت أن منكم من تتغلب عليه الذاتية ولا يشركنا في ما يفكر فيه. إن روح المناضل يجب أن تظهر على السطح في كل وقت.. وروح المقاتل الحقيقي تتوهج لتنير في لحظات الخطر. يجب أن أكون صريحاً معكم.. لقد أفزعني الرفيق تبعة حين اغتسل.. ثم تناول طعامه منفرداً.

لا أعرف لماذا كان الرفيق شرهان قاسياً في كلامه.. صححت له تصرفي:

ـ اعذرني أيها الرفيق.. كنت قلقاً من أن تتخذ قرار العودة.

ـ المناضل الحق لا يتخذ قراراته منفرداً.. غداً ستقود مجاميع.. وغداً ستواجه ما هو أخطر مما نحن فيه الآن.. قد تصل حافة الموت.

لم يكمل حديثه.. إذ فجأتنا أصوات الرصاص.. عدة طلقات نحونا.. ارتفعت صرخة أحد الرفاق.. شعرت بوخز مؤلم أعلى ساقي.. أعقب ذلك صمت.. أخذ كل منا يراقب الظلام.. لم يكن وضعنا وسط الظلام واضحاً.. ثلاثة من رفاقنا استيقظوا مذعورين.. رائحة شواء.. بلل دافئ على فخذي.. تحسست.. اتضح أن رصاصة قد اقتحمت فخذي. كتمت إصابتي.. جلست ألف فخذي بشالي.. همس شرهان.. لقد عرفت مصدر إطلاق الرصاص.. أشار إلى الطرف الآخر لبركة الماء.. جذوع الأشجار الضخمة.. من هناك دوت علينا الرصاص.. اكتشفنا أن أحد الرفاق قد استشهد.. اخترقت الرصاصة عنقه.. لم نستطع غير تغطيته برداءين.. وضعنا سلاحه جواره.. دوى انفجار هز المكان.. لقد أطلق الرفيق شرهان قنبلة يدوية بعد أن همس لي بأن أقودهم للتسلل بسرعة نحو أسفل التل ثم ننعطف نحو أسفل مجرى الماء.. وأنه سيلحق بنا.

زحفنا بين جذوع الأشجار. كان الرفيق شرهان قد سار وحيداً في اتجاه آخر.

حررت الرسالة في الخامس

من الشهر الأول لعام ١٩٧٩

8

شرهان

«٨» ولدي الغائب بعيداً..

انقضت أربع ساعات وأنا مختبئة تحت الأكفان المعلقة. تسرب ضوء الصباح.. استرقت النظر من خلف الأكفان.. ضوء ضعيف.. أستطلع ما حولي.. خرج ذو الساق المعدنية وترك الباب الداخلي مفتوحاً.. فضلت عدم البقاء.. كانت ساعة معصمي تشير إلى التاسعة والنصف.. سمعت ما يشبه الهمس.. صوت من أروقة المسجد. يرتفع:

ـ يا سيد جحندل.. لقد أكملنا تنظيف السجاد.. أتسمعني؟!

ـ بارك الله فيكم.

ـ هل من أمر آخر؟

ابتعدت أصواتهم.. خمنت أنهما يسيران بعيداً. خرجت من

مكمني.. تسللت باتجاه الباب أستطلع الأمر.. لم أحتمل الانتظار.. سرت في أروقة الاتجاه المعاكس.. كان علي أن أسير في رواق ينحرف نحو المحراب الكبير.. لا أحد.. عند المنعطف كان ذو الساق المعدنية وشاب إلى جواره يسيران نحوي.. قررت أن أمضي من أمامهما دون ارتباك.. رفعت صوتي:

ـ السلام عليكم!

لاحظت ذا الساق المعدنية يرمقني مرتبكاً.. والآخر يرد عليَّ:

ـ وعليكم السلام!!

تركتهما يتهامسان مبتعدة.. اقتربت من الباب الكبير.. صوت سقوط مزلاج الباب الأوسط دوى صداه.. حانت مني التفاتة.. كان ذو الساق المعدنية يهرول صارخاً:

ـ قف يا أنت.. انتظرني لو سمحت؟!

لم أنتظر.. جذبت الباب.. لألتقي بضجيج الشارع.. سرت بخطوات منتظمة بين المارين. الحوانيت في بداية نشاطها.. عند طرف الشارع دخلت محل بيع حلي قديمة.. تعالت صرخات ذي الساق المعدنية وهو يقف عند حلق باب المسجد.. يستحث المارين على اللحاق بلص تسلل من المسجد. تجمع الناس حوله يستفهمون في بلاهة. حين عجز عن حثهم عاد من حيث أتى.

وحيدي الحبيب..

قاطعت زيارة أمي فطمينا.. أضحى التفكير بدارها يرعبني.. كان

يشغل تفكيري البحث في أسباب خداعها لي طيلة الأشهر الماضية.. أسأل نفسي: ما هي الأسباب التي جعلتها تخادعني؟

الأيام السابقة كنت أكرر سؤالي لها عما وصل إليه ابنها في موضوع جدك.. أجد صوتها يتغير ثم تغير الحديث إلى موضوع آخر.. تبتعد بهدوء. في آخر زيارة سألتها:

ـ اعذريني إن كررت سؤالي عما توصل إليه ابنك مع شيخنا حول قضية خالي؟

ـ الأمر يحتاج إلى بعض الوقت!

ـ أحرج حين أكرر سؤالي لأنني أشعر أن إلحاحي يضايقك!

ـ لا عليكِ.. بعض الوقت ونصل إلى الحقيقة.

لا أخفيك الأمر من أني كدت أصارحها لحظتها حين لاحظت رعشة صوتها وهي تقول: «بعض الوقت ونصل إلى الحقيقة». اعتراني إحساس بأنها تخفي شيئاً ما.. أنها غير صادقة معي.. ومع ذلك كانت تعاملني بلطف شديد.. تقودني قدماي إليها حين تضيق بي الدنيا.

ولدي الغالي..

هذه هي ساعات الليل باردة.. أهرب للحظات من وحدتي إليك أو أعود بذاكرتي إلى سنوات خلت.. إلى رسائل تبعة.. كتب إلي ذات رسالة.. بعد تسلله الأول عبر الحدود إلى الضالع في

جمهورية عدن.. كتب يصفني فيها بحبيبتي.. هذه هي المرة الأولى التي يكتب إلي بهذه الصفة.. أذكر الرعشة التي اعترتني حينها دمعت عيني فرحاً. كان إحساساً فريداً.

«٥» حبيبتي سمبرية..

إن مشاعر وقّادة تسكنني تجاهك.. أرجو أن تسمحي لقلبي إعلان حبه لك.. ليعبر لقلبك عن محبتي الخالصة. أكتب إليك رسالتي هذه وأنا أرقد على فراش أبيض في مستشفى بالضالع.

حبيبتي سأحكي لك من البداية.. أثناء عبورنا المسافة الفاصلة إلى قرية (كولة السيد) تعرضنا لهجوم غير متوقع.. تركنا شهيدنا بين جذوع الأشجار.. لم يكن بمقدورنا مواراته في الثرى.. هناك تحت الأشجار العالية حيث لا تصل الشمس.. لم نأخذ سلاحه.. تركناه إلى جواره.. شعور بالعار أن تترك رفيقك للمجهول.. أن تتركه في ظلمة البعد عن أمه وقريته.. لم نكن قد تعارفنا بعد.. حتى اسمه.. كان على الدوام صامتاً.. فقط عيونه تلتقي بأعيننا.. لقد رحل دون أن يبوح لنا بشيء.. ليس لنا أي عذر.. لكنه الموت الذي كان يترصدنا طوال الطريق.

تركناه متسللين وسط ظلمة الليل.. دوت ثلاثة انفجارات متتالية.. عرفنا أن الرفيق شرهان يواجه الموت وحيداً.. تراقبه نجوم بعيدة.. استمررنا في السير.. أضواء قرى السفوح والقمم العالية.. التففنا نحو المنحدر.. همس أحد الرفاق:

ـ هذا هو مجرى الماء.

ـ سنحتمي هنا لعل شرهان يلحق بنا إن كان لا يزال حياً!

لم يتأخر كثيراً.. رأينا شبحاً يسير نحونا عند أسفل الموانع الحجرية.. قال أحد الرفاق:

ـ إنه هو!

همس رفيق آخر:

ـ قد يكون أحد المهاجمين.

ـ سأتخفى وألتقيه.. إن كان غير شرهان سأقتله!

أكمل كلماته وانسلّ شاهراً سلاحه.. لحظات من الترقب.. بعدها ارتفع صوته:

ـ إنه شرهان عاد.

ـ الحمد لله على السلامة.

قالها شرهان منتشياً.

ـ لم نصدق أن تعود بقدميك بعد أن سمعنا دوياً متتالياً.

ـ لقد اقتصصنا لرفيقنا من الأوغاد.

رد عليه أحد الرفاق:

ـ كان علينا مواراته الثرى؟.

ـ لا وقت للعاطفة! قد يتعقبوننا.. هيا أسرعوا.

كنت أشعر بفتور شديد.. استنجدت:

ـ أرجوكم ساعدوني إني أشعر بالدوار!

ـ هل من مشكلة؟

ـ نعم، أصبت في فخذي.

ـ حملني شرهان وهو يهمس: لن نتركك تموت.

ـ شكراً!

وضعني جانباً.. أمسك بين أسنانه ضوءاً خافتاً.. عاين الإصابة.. أخرج من جعبته بعض العقاقير.. وضع كمية من القطن المشبع بالمخدر.. أحكم ربطها.. لم يستغرق ذلك دقائق.. أخرج مديته.. أدخلها في جرح فخذي.. ابتلعتني غيبوبة لذيذة.. حملوني بعد أن أخرج شرهان الرصاصة.. وتم ربط الجرح.. فقت محمولاً.

في صمت قطعوا بي مسافة كبيرة.. كنت أتخيل ذلك الرفيق حين تكتشف الأشجار وجوده تحت جذوعها صباحاً.. كان شرهان طيلة الطريق صامتاً. ابتعدنا كثيراً عن شهيدنا.. تمنيت حين يراه أحد أبناء المنطقة أن يدفنه.. أن يبيع الرشاش ليشتري بثمنه كفناً وحفر قبر يحتويه. أفكر في أمه التي تنتظر عودته.. في رفاق صباه.. سيظل أفراد أسرته طوال العمر ينتظرون عودته.. ستنسج الحكايات حول غيابه.

وجه القمر بدأ بالظهور.. سحب كثيفة تزحف.. تحجب وميض النجوم.. اختفى القمر من جديد.. بدأ لمعان البرق.. رويداً رويداً أطبق الظلام علينا.. لم نعد نعرف في أي اتجاه نحن.. قطرات المطر.. وقفوا لتبادل الرأي.. كما لو أن تلك الطريق دون نهاية.. يبحثون عن مكان مناسب ننتظر فيه حتى انقشاع الظلمة.. أصوات الرعد تتعالى.. لا صوت غير أصوات طبول الرعد.. كل ما حولنا مظلم.. إلا من البروق والرعود من كل اتجاه.

انهمر المطر.. لجأنا إلى جذع شجرة كبيرة على مرتفع.. واصل المطر انهماره.. هدير السيول يتعالى.. ظلمة حالكة.. كل شيء أصابه البلل.. ملابسنا.. جلودنا.. الطين الذي تحت أقدامنا.

مر الوقت بطيئاً.. تخيلت الضوء لن يعود من جديد.. السحب أخذت تنقشع.. ظهرت قمم الجبال.. التلال.. أشباح الأشجار.. بدأنا نرى ما حولنا.. المنازل عند سفوح الجبال.

أكاد أتيبس من البلل.. وقف الرفيق شرهان قائلاً:

ـ عليكم بالصبر.. نحن على مقربة من قرية (كولة السيد) خلال ساعة من السير المتواصل يمكننا الوصول إليها.

تناقص السيل تدريجياً حتى عاد نهيراً صغيراً. ظهر قاع.. مجرى السيل. حملني الرفاق.. واصلوا بي السير.. شعرت بحمى تجتاح خلايا جسمي.. اقتربنا من كولة السيد.. قرية عند ملتقى الوديان.. تسللنا خلف شرهان عبر أزقة متربة.. طرق الباب طرقاً خفيفاً.. سريعاً ما فُتح من دون أي سؤال.. فوهة بندقية تصوبها امرأة.. تأملت هيئاتنا.. همس شرهان:

ـ أين ناجي؟

ـ من ناجي؟

ـ زوجك يا سترة!

ـ من أنت؟

ـ أنا رفيقه شرهان.

ـ يا أهلاً وسهلاً.. ادخلوا بسرعة.

أغلقت الباب بعد أن دخلنا.. سألها:

ـ أين ناجي؟

ـ ناجي في قرية (عريق).

ـ وما العمل؟

ـ تباتون إلى صباح الغد!

ـ لا يمكن.

ـ أنتم رفاقنا.. الإرهاق بادٍ على ملامحكم.. وهذا الرفيق ملطخ بالدماء.. ستختبئون حتى مغيب الشمس.

تحركت بداخلي عاصفة الدموع.. تمالكت نفسي.. لم أدر كم نمت.. إحباط يحف بعقلي.. صنع لي الرفاق مقعداً من الخشب والقماش السميك. خرجنا بعد مغيب الشمس من بيت سترة.. هبطنا الوادي وسط ضوء القمر.. حُملت بعد أن خارت قواي مرة أُخرى.. مررنا في مضيق صخري.. تجاوزنا مجرى ماء.. أخذ شرهان يختبر ذاكرته في حفظ أسماء الجبال والوديان.. أضواء قرى جبل (الريمة) إلى شمالنا.. القمر قد اعتلى عرشه.. السماء صافية.. عبرنا عدة قرى.. سفوح جبل (منقير) الذي سريعاً ما حجب عنا وجه القمر.

ست ساعات من السير المتواصل.. ساعدنا على ذلك سنا القمر بعد أن أزال لثامه. سيل الليلة الماضية غمر وادي (عريق) وحوله إلى مستنقع واسع.. شلالات جبل (مصنعة عمار) تتدفق.. غاصت

الأقدام في مساحة من الوحل.. لم يكن لنا أي خيار.. تماسكت أيادي الرفاق لاجتياز وادي الوحل.. سيقانهم تغوص عميقاً.. رعب أن تبتلعنا اللزوجة.. سمعت قهقهة أحد الرفاق. وهو يقول:

ـ تخيلوا قطيعاً من الكلاب تهاجمنا ونحن عالقون هنا.

قال آخر:

ـ أنا فعلاً أسمع نباحها آتياً من بعيد.. يقال إن الكلاب تتعرف فريستها من رائحتها.. فهي لا تهاجم إلا الأجساد التي تفوح منها رائحة الخوف.

كان موعد الفجر يقترب.. ودور القرية تائهة في شرك الظلمة.. تخيلت الشمس تسطع علينا ونحن عالقون.. ليصطادنا السكان فرداً فرداً. لم نكن نتقدم إلا بصعوبة بالغة. صرخ أحد الرفاق فرحاً:

ـ اقتربوا مني.. لقد وجدت أرضاً صلبة.

رأيته يقف بكامل قامته خارج نهر الوحل. اتجهوا ببطء شديد نحوه.. مد يده.. أمسك بالأول والتالي.. وهكذا حتى كان جميعنا خارج الوحل.. أسروا بي موازين لجرف الجبل.. لسان طويل من الطين الصلب.. سريعاً ما قطعنا المسافة تحت وهج الفجر.. كان شرهان يعرف أي طريق يسلك.. مجموعة من الكلاب تستقبلنا عند أطراف أزقة القرية.. غامر أحد الرفاق وقذف إليها ما تبقى من طعام.. لم يكن المنزل الذي نقصده بعيداً.. تجاوزنا ستة منازل.. نفس الطرق الخفيف على صفحة الباب.. كررها شرهان بلطف.. سريعاً ما جاء صوت امرأة تسأل عمن

يطرق الباب في هذه الساعة.. لم يجبها شرهان.. واصل الطرق بنفس الإيقاع.. فُتِحَت عتمة الباب.. قال:

ـ أنا شرهان.. هل سعد هنا؟

ـ ومن معك؟

ـ رفاق أحدهم جريح.

تجاوزنا الباب.. ظلام دامس.. جدران طينية.. وجه مليء بالشعر يحاول إشعال فتيل الفانوس.. تأمل وجه شرهان فاتحاً ذراعيه لاحتضانه.. تأملنا واحداً واحداً. كأننا أصدقاء قدامى.

ـ ما هذه الدماء؟

ـ حكاية حزينة.

ـ إذاً أنتم بحاجة إلى ما يدفئ أجسادكم من غذاء وشراب!

ـ نحن بحاجة إلى النوم!!

ـ لن تناموا قبل أن تتناولوا شيئاً يدفئ أبدانكم.

حواسي تعمل بشكل آلي.. أرى ما حولي وكأني في حلم.. لم أعد أميز الألوان.. أو مذاق الأشياء.. حتى حاسة الشم بدأت تتذبذب.. كنت أعيش كابوساً رمادياً.. لم تعد الأشياء تهمني.. غبت عما حولي.

حين استيقظت كان شرهان إلى جواري.. قال:

ـ قضيت إحدى عشرة ساعة في النوم.

ابتسمت صامتاً.. الرفيق سعد بوجهه البشوش.. بملامح تشبه أولياء الله.. قامته الفارهة:

ـ هاه.. هل تشعر بتحسن.. لقد عقمنا الجرح تماماً وقمنا بتضميده.

ـ شكراً.

ـ لقد أخبرنا الرفيق شرهان عما عانيتموه طوال الطريق. رحم الله شهيدنا.

ـ رحمه الله.

كان شرهان يستمع صامتاً. غرفة مستطيلة.. ستة وجوه جديدة لم أعرفها من ذي قبل.. تصافحنا.. عرّفنا بهم الرفيق سعد:

ـ الرفيق ناجي من (كولة السيد)، الرفيق صالح من (السدة)، الرفيق أمين من (النادرة)، الرفيق مسعد من «حمام دمت»، الرفيق زيد من (الخشعة).. والرفيق عبد الله من قرية (العكرة) وأنا من هذه القرية (عريق)، في منصف الليلة التالية قرر شرهان مواصلة المسير نحو الجنوب.. قال:

ـ سنواصل طريقنا أنا وتبعة إلى الضالع.. أما بقية الرفاق فقد وصلوا دعماً لكم، ولهذا سيبقون هنا.

قال الرفيق سعد موجهاً حديثه للرفيق شرهان:

ـ سيكون معكما دليل لصعود جبل (القرانح) جنوباً وما خلف ذلك من وديان حتى تصلوا بيت اليزيدي في الجهة الأخرى لحائط الجبال.

ـ من أين نصل إليها غير طريق الوادي؟

ـ ستصعدون جنوباً عبر وادي (المعرش) ثم تتسلقون القمم شرقاً عبر قمة جبل (القرانح).. إلى وادي (الأثلة).. ومن هناك تواصلون الهبوط شرقاً ومن هناك أنت تعرف الطريق جيداً.

ـ هل هذا الطريق آمن؟

ـ آمن لكنه وعر.

ـ إذاً على تبعة أن يتحمل.

ـ سأحتمل ألمي حتى الموت.. لن تعوقني إصابتي.

خرجنا نهاراً.. دليلنا رجلٌ في العقد الخامس يسابقنا بنشوة كلما رجوناه أن يبطئ. دخلنا وادياً كثير الأشجار.. حاذينا جبلين.. صعدنا بين قمتين كانت الريح قوية.. انتهى النهار.. صعد القمر بهياً.. كنا قد اقتربنا من إحدى القرى.

أثناء سيرنا. دخلنا عدة منازل في عدة قرى. مرتفعات لا تنتهي.. قراها معاقل للثوار.. ساخطون من السلطة وتسلط أعوانها.. متشوقون لحمل السلاح. تغيرت معنوياتنا. وتبدلت مشاعرنا.. فبعد أن كانت حياتنا مهددة أثناء سيرنا في «وادي بنا» إذا بنا وسط رفاق لا يجرؤ أي صوت مخالف أن يعلن وجوده.. نسير نهاراً بعد أن كنا نتخفى ليلاً.

برودة شديدة.. خرجنا من أطراف القرية.. عدد من السكان في وداعنا.

لا توجد طريق واضحة.. أخذنا نتسلق جرفاً سامقاً.. ساعتان من

المثابرة حتى قمة جبل (كنه). المنظر مهيب. استطعنا أن نرى أفقاً تسبح تحت سمائه السحب.. سلسلة قمم عالية تحيط بوادي بنا من الجنوب والشمال.. كدنا نلامس السحب المسافرة باتجاه جبل الشعر.. وجبال (الرياشية) وأخرى لا نعرف أسماءها. نرى جبل (جحاف) المطل على الضالع.. وهناك في المنحدر الشرقي سلسلة من الجبال تتخللها وديان ضيقة.. تشق طريقها باتجاه الشرق حتى تلتقي مع وادي بنا في انحداره الأخير نحو الجنوب. التقينا في مسالكنا برعاة الأغنام الجبلية.. عبرنا عدة قرى.. أسلوب حياتهم أقرب إلى حياة بدو المرتفعات.. عزلة تامة.. شبه قطيعة عن العالم.. يقتربون منا في حذر.. نتحدث إليهم بالكاد يفهمون كلماتنا.. الناس هنا يعيشون حياة فطرية.. يواجهون الحياة بإمكانات بدائية وبخبرات متوارثة.. بيوتهم البسيطة.. أدواتهم الزراعية.. ملابسهم.. أواني الطعام الحجرية.. كل ذلك توارثوه عن أسلافهم.. لا توجد طرق للعربات.. أو معدات زراعية.. لا يمتلكون أجهزة منزلية.. أطباق الطعام عند بعضهم من الطين المشوي.. ملامحهم.. لهجتهم لا زالت كما هو الإنسان الأول. واصلنا الهبوط تحت ظلال جبل الصبر.. انحدرنا في مجرى واد تجري العيون فيه غزيرة.. كان الهواء النقي ينعش الخاطر. وصلنا آخر محطة برفقة دليلنا ونحن نسمع أذان صلاة العصر من مسجد قرية (بيت اليزيدي).. آخر تجمع سكاني على الطريق الإسفلتي القادم من دمت إلى مدينة (قعطبة) ثم الضالع وإلى عدن.

ألقى علينا دليلنا عدة نصائح قبل أن يودعنا راجعاً من حيث أتى.. قال لنا:

لا تجازفوا دخول بيت اليزيدي.. فهنا مناصرو السلطة يُحكمون

السيطرة على السهول الواسعة.. لا تفكروا ركوب سيارة إلى قعطبة.. فقد نشرت السلطة نقاط التفتيش بطول الطريق.

اضطررنا إلى البقاء بين شعاب السفوح العالية ننتظر الليل لنتجنب ترصد عناصر السلطة للغرباء.

وسط رداء الليل.. انحدرنا عبر أحراش المنحدرات.. إلى الجنوب من منازل القرية. اجتزنا طريق الإسفلت.. القمر يفضح سيرنا.. قلاع حجرية عند أطراف مزارع القات.. الكلاب تنبح بشدة.. كنت أسمع حراس المزارع يكررون: «الليل ومن؟» فيرد عليهم رفيقي في كل مرة: «الليل ودعَّاسه!».. ثم يصمت كل شيء.. عرفت أن تلك شفرة مرور. سرنا في نهر حصوي.. لم نصادف أي مصدر ماء.. هرعنا إلى واد قاحل.. قال رفيقي:

ـ نحن الآن نسير على طريق الوحدة!

ـ طريق الوحدة! ولِمَ الطريق بهذا الاسم؟

ـ هي الطريق الآمنة لمن يريد العبور من أراضي جمهورية صنعاء. إلى أراضي جمهورية عدن.. أو العكس.

ـ إذاً نحن الآن بين دولتين!

ـ نعم نحن الآن على الحدود الفاصلة بين نظامين.

كان صباحاً ماطراً.. دخلنا قرية تعج بالحركة والنشاط.. استقبلنا ضابط اتصال في مبنى من طابقين.. تبخرت آخر مشاعر الخوف.. أقلونا فوق سيارة (لاندروفر) قديمة.. على طريق ترابية إلى مدينة الضالع.. صفوف شواهد القبور تصطف في أشكال هندسية بيضاء

تعلوها النجمة الحمراء.. قباب متهالكة هنا وهناك. دخلنا أطراف الضالع.. سوق يحرسها دار السلطان من التل الجنوبي.. ومن الغرب جبل (جحاف) العالي.. أوصلونا معسكراً صاخباً بالحركة. دُوِّنت أسماؤنا في استمارات جاهزة.. معلومات عن: منطقتي.. قريتي.. أسماء الأقارب.. معلومات عنهم.. أعمارهم.. مهنهم.. كل شيء دونته.. حتى بداية الخلاف بين شيخنا وأبي.. سجني في زريبته.. هروبي.. مولانا.. أسماء القرى التي تعرفت عليها.. كل شيء.. حتى أنتِ يا سمبرية.. طلبوا مني أن أدون كل ما يخص علاقتي بك.. طريقنا حتى الضالع.. المصاعب والحوادث التي اعترضتنا.. شهيدنا الذي تركناه بين ظلمة جذوع الأشجار.. دونت حتى أحلامي.. ورغبتي في العودة للقتال بعد شفاء إصابتي. فور الانتهاء من تعبئة تلك الأوراق، أدخلوني مستشفى ميدانياً.. قام طبيب كوبي بتشخيص حالتي.

كنت ورفيقي شرهان قد تآلفنا طوال الأيام الماضية حتى دخولنا الضالع.. لم أستوعب ما قاله لي حين عادني في اليوم التالي إلى المستشفى:

ـ غداً سأودعك عائداً من حيث أتيت.

خرجت كلماته مرتبكة.. صعد الإحساس بالمرارة داخلي.. رجوته:

ـ إبق لأيام معي.

غمرت الدموع جوفي.. ابتعدت بوجهي خجلاً.. أحس بما يعتمل بداخلي.. واصل حديثه:

ـ مهمتي انتهت هنا! سنلتقي حين أعود برفاق جدد.

ـ لمَ لا تنتظر حتى أخرج من المستشفى؟

كان صوتي يخرج واهياً من صدري.

ـ الأمر ليس بيدي.. مع الأيام ستعرف.. المقاتل يجب أن يكون أكثر الناس انضباطاً!

ـ إذا التقيت بمولانا أرجوك قل له يدعو لي.

حرر في فبراير ١٩٧٩ ـ المخلص ت

9

الضالع

«٩» فلذة كبدي..

أضحى نومي متقطعاً.. كنت فيما مضى أكره السهر.. واليوم أمسي السهر عشقي، يمنحني لحظات مغايرة.. أعيش مع نفسي بعيداً عن الناس.. لا أجد ذاتي مع الناس.. حين تنام المدينة تأتي أنت.. لحظات الهدوء والسكينة.. أرهف السمع.. أميز صوتك.. ضحكاتك.. بل إنك تقترب أكثر لتهمس في أذني لا يقاطعني أحد.. تستمع وأنا أقرأ لك.. أغني.. أكتب.. أغمض عيني.

وليدي الحبيب

منذ آخر زيارة لدار أمي فطمينا أصبح الرعب يلاحقني.. أسترجع من ذاكرتي كلماتها قبل ذلك اليوم.. أستمع إليها كما لو كنت طفلة ساذجة.. أو أنها لا تعرف أن نبرة صوتها، حركة أصابع يديها، نظرة عينيها تفضحها.. إذن لماذا تريد علاقتها بي؟. ما

الذي تحتاج إليه من بائسة مثلي؟. لماذا تكلف نفسها جهد اختيار الكلمات وتنميقها حين تحدثني؟ تلعب معي لعبة لا أجيد رسمها!

في أحد الأيام جالستها.. كانت كلماتها تحيرني.. تغويني.. مدت يدها تمسد شعر رأسي.. قالت لي منتشية:

ـ ألا تخافين على نفسك وأنت تسيرين في أزقة المدينة؟

ـ ممَّ أخاف؟

ـ امرأة في مثل رقتك ولا تخاف!!

ـ رقتي!

ـ أنتِ ما زلتِ فتية.. العمر ليس كل شيء.. ألا تنظرين في المرآة!

ـ ماذا سأرى؟

ـ سترين قوامك.. ليونة جسمك.. حيويتك؟

ـ كأنك تتحدثين عن امرأة أخرى.

ـ يجوز أن همومك أنستك نفسك.. سيذهب العمر.. وستدركين بعد حين إهمالك لنفسك.. انظري إليَّ.. اليوم أنا إنسانة عاجزة.. لا أستطيع إدارة عجلة الزمن إلى الوراء!

وهكذا كانت تطربني بكلماتها.. خاصة حين نكون وحيدتين.. أنصرف إلى بيتنا منتشية.. أقف أمام المرآة عارية.. أدور.. أتأمل.. أكتشف أنها لم تبالغ.. فعلاً أنا ما زلت فتية.. يحلو لها صياغة العبارات التي تبعث السعادة في نفسي.. لكن حين أتحدث في

موضوع جدك ومتابعة ابنها الشيخ.. ألاحظ أنها تجنح للمراوغة.. يتجهم وجهها.. تنظر بعيداً.

لم أجرؤ أن أعود إليها بعد ذلك اليوم الذي تكشفت لي فيه أشياء كثيرة. أنا أعرف لو قابلتها أن تقديري لها سيفضحني.. وسأجد لساني يسيل بالعتاب والدموع. لقد خطّطت عدة مرات أن أذهب لمجالستها وإخفاء معرفتي بما رأيت.. لكنني أخاف ضعفي.. لا أصدق أن أمي فطمينا جزء من مؤامرة.

ستون يوماً مرت من دون أن أزورها.. لتفاجئني وصيفتها (شخنما) بزيارتي ذات صباح. كانت تحمل صرة ملابس وسلة فاكهة.. نقلت إليَّ عتب أمي فطمينا.. قالت لي:

ـ لقد جئت عدة مرات ، ولم أجِدكِ!

ـ أنا موجودة.. ونادراً ما أخرج.

ـ أمي فطمينا قلقة عليك.. ودوماً ما تسألني عن سر انقطاعك عن زيارتها.. تستفسر إن كنت ألقاك.. تسأل عن زوجة خالك.. حالة أمك.. وعن أخبار ابنك.

ـ وأخبار خالي.. هل تسأل؟ هل لديها ما تقوله؟

ـ أنا لا أعرف ما بينكم.. لكنها تحبك!

تماسكت وهي تكرر عتب وقلق وحيرة أمي فطمينا.. احترت في اختيار الكلمات التي لا تفضح مشاعري. حاولت.. لكنني انفجرت باكية.. أدركت بعد أن احتضنتني.. أنني كنت أبحث

عمن يتلمس آلامي. لم أخجل حين تركت رأسي على صدرها.. بكيت حتى ارتويت.. رفعت وجهي مبتسمة.. لم أشعر بأي خجل منها.. لم أنطق بأي كلمة.. نظرت في عيني.. ابتسمت.. نهضت قائلة:

ـ براحتك.. لا تريدين الحديث.. أستودعك الله.

ودعتها.. تمنيت بداخلي تكرار زياراتها.. لا أدري لماذا كان حضورها يذكرني بصديقتي الراحلة (خمينة). لم يكن من تشابه في الملامح.. لكنها الروح نفسها.. عاطفتها.

كلما كررت شخنما زيارتها لي أعتقدها خمينة وقد تلبست روحها.. أخاف عليها من نفسي.. إذ إن ظنوني القديمة قد تحولت إلى قناعة.. إيماني بأني أحمل روحاً ضارة بمن حولي. لم أبح بذلك لأحد.. لكنني ألاحظ ذلك.. لا أضمر الشر لأحد.. كل من حولي تصيبهم تلك الروح بإصابات متفاوتة.. قد يكون ذلك من باب المصادفة.. وقد يكون يقيني حقاً.. ولهذا أخاف على شخنما.

كل من لهم صلة قرابة. أو علاقة بي سريعاً ما تمسهم تلك الروح الغامضة.

في زيارتها الأخيرة لي. حاولت معرفة بعض الأمور التي صادفتها.. سألتها عن رأيها في إهمال أمي فطمينا بموضوع جدك.. كانت تلزم الصمت.. ألح عليها فترد بعتب:

ـ موضوع لا أفهمه.. كيف أجيبك؟

ـ لكنك أقرب الناس إليها.

ـ أنا في خدمتها.. ولا أشاركها أفكارها.

ـ قد تسمعين شيئاً.

ـ أنت من أحب الناس إليها.. يمكنك زيارتها والإصرار عليها لتجيبك.

ـ أخجل من كثرة الإلحاح.

ـ أنت على يقين من أنها تحبك وتهتم بهمومك.

مهجة قلبي..

كنت بين مد وجذب.. لا أريدها أن تكرر زياراتها لي خوفاً من تأثيرها عليَّ وأن أعود إلى علاقتي بأمي فطمينا.. ومن جهة أخرى كنت بحاجة إلى من يستمع إلي ويواسيني.. أرى (شخنما) تتألم حين تظن أنني أصدها.. تعاتبني.

ـ ألا تريدين صداقتي؟

ـ بلى.. وأنا سعيدة لذلك!

ـ لكنني أشعر أنك تنفرين مني.. أبحث عن سبب.. أسأل نفسي.. هل أخطأت في حقها؟. أخبريني إن كان هناك من سوء.

كنت في حيرة بعد أن تطورت علاقتي بها.. لم يعد لي من أحد.. وفي نفس الوقت أعتقد أن عليَّ أن أحميها من مصير ليس بيدي إيقافه.. كنت أراقب أحوالها. وأراها كما أحب.. وأتمنى أن

تتعمق صداقتنا.. ولا أريد أن تكون شخنما هي فأر إثبات التجربة.

ابني حنظلة.. أعيش بالكتابة إليك.. أواصل قراءة رسائل تبعة حتى لا تمل وحتى أجد لنفسي ألوان للفرح.. في إحدى رسائله واصل كتابة أخباره.. وفيها قال لي:

«٦» حبيبتي سمبرية..

خيالك لا يفارق عقلي.. أعيش طريح الفراش.. أخبرني الطبيب الكوبي أن الجرح أصابه بعض العفن.. بعد أن تعرضت بعض عصب مفصل الفخذ إلى التلف قرر سرعة التدخل الجراحي. مكثت خمسة عشر يوماً لا أتحرك من على السرير.. اكتشفت في أولى خطواتي أن ساقي اليسرى أقصر بعض الشيء.. انقبض قلبي.. أيعقل أني أضحيت أعرج؟ سيطرت علي نوبة اكتئاب.. رفضتُ مغادرة المستشفى.. رفضت الحديث مع أحد.. صور أشاهدها تدهم خيالي. حين أسير يراقبني الصغار والكبار.. ستهبط عيناك إلى قدمي حين أقابلك.. أو أحاول العدو.. أسمع أحدهم ينادي يا أعرج.

تركوني تحت عناية أحد الأطباء العدنيين عدة أيام.. ظل يستمع إلي تارة.. ليحدثني أخرى:

ـ الإنسان بعقله وليس بشكله.. وأنت لست بذلك السوء.. ستتعادل ساقاك مع مرور الوقت.. سيأتي يوم لن يلحظ أحد ما تتوهمه.. وتلك الإصابة وسام شرف وشهادة بالشجاعة.. الرفيق ستالين أصيب بالجدري في صغره.. وظلت آثاره على وجهه..

البردوني.. طه حسين وغيرهم من عظماء التاريخ كانت لهم عاهاتهم لكنهم تجاوزوها.. قادة بواسل من مختلف العصور لم تُثنيهم الإعاقة.. عاشوا حياتهم بشكل طبيعي.. أما أنت فلست كما تهوّل.. لن تمر الأيام إلا وقد عادت ساقك إلى سابق عهدها.

ظل يحدثني كلما زارني.. يلامس أحاسيسي.. شعرت أنه صديق بحقّ. لم يمر الوقت إلا وقد بحت له بأدق تفاصيل حياتي.. في اليوم الذي قال: يمكنك الخروج من هذه المبنى المخصص للمرضى.. أنت لست مريضاً.. تمنيت عليه أن نكون أصدقاء.. وأن نظل على تواصل.

ألحقوني بمعسكر يقع على سفوح جبل جحاف.. ساحة واسعة.. خطوط من الجير الأبيض.. هناجر جدرانها من الطين المحروق.. أسقفها زنك متآكل. هبطت حيث توقفت عربة نقل الجند.. حاملاً جعبتي. في الصباح كنت ضمن طابور طويل.. نقف لتحضير أسمائنا.. ألقى أحدهم جُملاً من التوجيهات: «اليوم أنتم غير من كنتم بالأمس.. لن يكون بعد اليوم في أعمالكم عشوائية.. سيكون النظام هو أساس حياتكم.. اليمن بحاجة إلى النضال الدائم حتى تحقيق الوحدة والحفاظ عليها.. إننا أمام تحدٍّ داخلي.. وتآمر خارجي. لا يريدون إلّا أن يظل هذا الشعب رهينة مصالحهم.. إننا أمام طريق طويل من الكفاح.. لنقاوم الانتهازيين والإقطاعيين الذين تدعمهم القوى الرجعية رغبةً منها في عدم تقدم الشعب ووحدته. أنتم من ستغيرون وجه التاريخ.. من ستقولون لهم كفى.. من ستقطعون دابر التخلف.. وأنتم من ستحققون الوحدة.. وترفعون شأن هذا الوطن بين شعوب العالم.. وأنتم من ستنشرون الحرية والمساواة.. وتحققون العدالة. سلمونا ملابس

نظيفة.. مصروف جيب.. وزعونا على عنابر. المعسكر مساحات واسعة.. عند أطرافه البعيدة مخازن خضراء للسلاح.. وعنابر أخرى اصطفت بداخلها عشرات المدرعات والمركبات.. وفي الأطراف القريبة عنابر للأغذية والتموين العسكري. صور كبار المناضلين تواجهك أينما وليت.. كلهم ذكور.. لا توجد صورة لمناضلة.. شعارات ضخمة في كل مكان. كل شيء هنا يوحي بالقوة المنظمة.. من في المعسكر هم خليط من عدة نواحٍ من الجمهورية العربية اليمنية.. وقلة من الرفاق العرب.. من عُمان.. ودول الشام.. وعدد من الأصدقاء السوفيات والكوبيين.. وكبار الضباط الديموقراطيين الشعبيين.. سمعت اسمي من برنامج الإذاعة الداخلية للمعسكر والمذيع يرحب بنا كمناضلين أمميين جدد. اهتزت مشاعري.

هدوء بعد صخب عالٍ.. ما زلت أسأل نفسي: هل حقاً أنا في دولة أخرى؟ ترى هل عرف مولانا ما أنا فيه؟ وشرهان؟ وأبي! أنا على يقين من أنهم سيعرفون.. وأنت يا سمبرية.. نعم أنتِ كنت دوماً معي.. لا أعرف سبب تفكيري بك سوى أنه الحب.. شيء ما بداخلي ينمو يوماً تلو يوم.. قد يكون اكتشافي المتأخر لشخصيتك.. أسلوب تفكيرك.. نظرتك للأمور.. تصرفك كما لو كنت أكبر من سنك.

هتافات مدوية.. الإذاعة الصباحية تلهب المشاعر.. الصيحات الجماعية تلون السماء.. الشعارات الثورية الوحدوية تؤجج الأحاسيس. بدأت ضمن فرقة في برنامج ثلاثي التدريب: البدني حتى التاسعة.. على استخدام الأسلحة المتنوعة حتى الثانية ظهراً.. ثم محاضرات الوعي الثوري الاشتراكي. تسلمت بطاقتي.. كانت

فرقتي تتكون من (٢٥) عنصراً. بعد مرور ثلاثين يوماً تسلمنا منهجاً دراسياً جديداً.. برنامجاً جديداً تضمّن: السبت والأحد للدراسة النظرية المكثفة للتعبير وصياغة التقارير.. الاثنين والثلاثاء.. حصص في الثقافة السياسية والفكر الاشتراكي والاتصال.. كما خصصت أيام الأربعاء والخميس للتدريب على حرب العصابات واستخدام الأسلحة الحديثة. ويوم الجمعة يوم راحة.

أقنعت عقلي أن يتواطأ مع ما أعيشه من تغير.. وأن يتجاوز ما أصادفه استعداداً لما هو قادم. يأتي يوم الجمعة.. نتفرغ لإنجاز ما لم نستطع إنجازه من تحضير وواجبات في الأيام الأخرى.. إلى تنفيذ برنامج النظافة الشخصية، وقد يسمح الوقت بإعداد وجبة مختلفة.

لم أكن في السابق أتخيل ما أنا فيه اليوم. ولهذا من الصعب تخيل غدي وماذا بعده؟ ها أنا وسط أعداد كبيرة.. أنا اليوم مناضل أممي.. لي رسالة عظيمة.. وطني العالم!!

مرات قليلة يخرجوننا فيها للتدرب على الذخيرة الحية عند أطراف الجبال.. تدريبات على استخدام المهارات الفردية.. وعلى الأسلحة الخفيفة والقطع الثقيلة.. وعلى زرع حقول الألغام.. اكتسبت مهارات هجومية.. أساليب الانقضاض على الهدف.. الانسحاب.. التواصل والاتصال مع أفراد الجماعات عبر عدة مواقع.. تحليل الرسائل الإذاعية.. وفك الشفرة.. أساليب الإقناع بين صفوف السكان. كما اكتسبت قدرات جسدية على تحمل الحياة في الظروف الاستثنائية. مثل الحصار وحمل المصابين عبر المناطق الوعرة.

مرّت الأيام تباعاً.. سريعاً ما اندلعت المواجهات القتالية في المناطق الوسطى.. وعلى الحدود الشطرية.. لم نفاجأ حين صدرت الأوامر بتوزيعنا على جبهات المواجهة ضد سلطات صنعاء.

صباح يوم مغادرتنا. حضر ذلك الطبيب.. رأيته يقف بين الضباط.. عادت كلماته إلى مسامعي.. «الإنسان بعقله وليس بشكله.. قادة بواسل من مختلف العصور فقدوا أطرافهم.. وبرزوا في الحياة بشكل طبيعي.. أما أنت فلست كما تهول.. لن تمر الأيام إلا وقد عادت ساقك إلى سابق عهدها..».

ارتفعت موسيقى النشيد الوطني من مكبرات الصوت.. ردد الرفاق بمن فيهم الرفاق الأشقاء والأصدقاء.. فوجئت بصعود ذلك الطبيب، صديقي، على منصة الخطابة.. قال:

«أقف سعيداً اليوم أمام رفاق ذاهبين لصناعة الحياة.. لخلق التاريخ.. لإعادة الاعتبار لشعبنا العظيم.. لقد استفحل الظلم.. وتدنت قيمة الوطن بين أيديهم وأهينت كرامته حين وضعوا مستقبل أجيالنا رهينة لأذيال التخلف والارتزاق. إننا ضمن شعوب حرة.. نتطلع إلى عالم تسوده العدالة والحرية.. نحن شركاء كل شعوب الأرض في أن نبني عالماً اشتراكياً حرّاً متقدماً.. وأن نقف متصدين لزحف المبادئ الإمبريالية.. أن نحمي شعبنا من الرأسمالية.. أقف اليوم وأنا أرى في عيونكم وطناً موحداً عزيزاً كريماً.. إنكم ذاهبون اليوم لترسموا ملامح المجد بأيديكم.. وتميطوا لثام الذل.. وتمزقوا أستار العمالة والارتهان.. ذاهبون لكسر الأبواب المغلقة وتحطيم أصنام التسلط والهيمنة.. ذاهبون ومعكم الشعب كافة لتحقيق الوحدة

اليمنية.. ذاهبون... استمر يتدفق بكلمات تثير الحماسة.. وتغوي القلوب.. بينما كنت قد تذكرت أن التفت إلى ساقي التي كانت إصابتها السبب في معرفتنا.. لم تعد كما كانت.. حين أقف أو أسير أنسى ما تبقى من النقص في طولها.. وقد تعودت أن أسير دون أن تكون عائقاً يذكر.

كان مذياع المعسكر يردد التوجيهات.. ثم فاصلاً من الأناشيد الوطنية.. فاجأني ذلك الطبيب بقدومه لمصافحتي معتذراً عن عدم التواصل.. قال لي:

ـ لم أستطع أن أميز أي ساق من ساقيك حازت شرف الإصابة.. وها أنا جئت لأودعك.

ـ لكني أميزها.. فهي لم تعد بعد إلى طبيعتها.

ـ أنا على ثقة أنها الآن أفضل مما كانت.

ـ فعلاً.. أشكرك.

سارت بنا الناقلات العسكرية على الطريق الرئيسي.. عبرنا الحدود الوهمية.. مدينة قعطبة التي كانت بالأمس تطوقها معسكرات سلطات صنعاء أضحت تحت سيطرتنا.. لم تعد هناك من نقاط عسكرية لجنود صنعاء على طول الطريق.. كان السكان يخرجون هاتفين بحياة الثورة.. صعدنا منطقة مريس.. جبال تعلوها جبال أخرى.. طريق آمنة يحرسها الرفاق بعد أن طردوا العناصر الموالية لصنعاء.. موقع عسكري مدمر كان بالأمس يثير الرعب في المنطقة بمطاردته لعناصر المقاومة.. وصلنا إلى مدينة دمت.. حيث دارت

المعارك الطاحنة قبل سبعة أيام لتعلن المواقع الموالية لصنعاء استسلامها.. وتعلن الجبهة الوطنية سيطرتها على منطقة واسعة تمتد من شرق البلاد إلى غربها بطول أكثر من خمسمائة كيلو متر.

اتجهت فرقتنا للقتال في جبل (مطرح). مررنا بقرى كثيرة. سريعاً ما اعتلينا الموقع عبر وادي (ذي العبد). كنا على ارتفاع (٢٨٠٠م). كانت درجة الحرارة ليلاً خمساً تحت الصفر، يطل موقعنا على عدة أودية. كما أننا نستطيع مراقبة مواقع قوات صنعاء على عدة جبال.. نشاهد مدينة الضالع، جبل جحّاف، قعطبة، في الناحية الجنوبية وجبال الرياشية.. وقرية الرفيق (الظاهرة)، حمّام دمت، وادي بنا، وكذلك عدة قمم جبال (منقير) و(مصنعة عمّار) إلى الشمال.. وإلى الغرب سلسلة جبال (العود والشعر).

احتفل لوصولنا الرفاق في تلك الليلة. كنا في موقع محصن تتوزع فيه عدة ثكنات بأسلحة متنوعة وعدة مخازن للأسلحة، إضافة إلى عدة مغارات هي عنابر الرفاق من حامية الموقع.

خلال الأشهر الماضية أعاد المقاومون بناء خلاياهم ضمن نطاق واسع، وبناء قنوات اتصال، واعتماد شبكة من طرق السير السرية التي تربط قمم الجبال ببطون الأودية. لتسهيل انتقال المقاومين وعتادهم عبر شبكة طرق إلى مختلف قرى مناطق المواجهات، تمتد من البيضاء شرقاً.. وجبال رداع إلى الرياشية.. ودمت بطول وادي بنا.. إلى جبال عمار والشعر والعود حتى جبل منار بعدان وشرعب ووصابين وإلى عتمة وبعض جبال آنس وريمة.

كانت الأسلحة والإمدادات التموينية تصل في مرونة. وكانت قرى تلك الجبال تمثل العمق الدفاعي والهجومي لعناصر الجبهة.

كنا نراقب وصول الإمدادات العسكرية من صنعاء عبر الطريق الرئيسة، إلى المواقع العسكرية للسلطة في المناطق التي لا تزال تحت سيطرة صنعاء. عملنا على تنفيذ خطة لقطع طرق إمداداتهم. ازدادت حدة المواجهات، سقطت عدة مواقع عسكرية بين أيدينا، تمت السيطرة على مناطق واسعة من السهول الشمالية وأضحت قوات الجبهة تزحف باتجاه صنعاء. اعتمدت السلطة على حشد وإرسال القبائل لمواجهة عناصر الجبهة، وصلت أعداد كبيرة منها. قامت تلك القبائل الواصلة من الشمال بعمليات نهب وسلب لممتلكات الفلاحين، ومداهمات واسعة لعدة قرى من قبل رجال القبائل المناصرين للسلطة.. وعمليات اغتصاب وقتل وإحراق للمنازل.

انتشر الذعر بين سكان قرى المناطق المنبسطة والمحاذية للطرق الرئيسة والقريبة من معسكرات السلطة. فرت مئات الأسر تاركة منازلها ومزارعها.. لاجئين للجبال محتمين بالكهوف وتحت ظلال الأشجار والجروف، والبعض لجأ إلى المدن الداخلية.

بدأت السلطة بتنظيم الحملات العسكرية لمهاجمة مواقعنا القريبة من الأودية والتلال المنخفضة، وشن الغارات الجوية لمهاجمة مواقعنا الجبلية.. محاولين بالإنزال الجوي السيطرة على عدة مواقع. سقطت عدة طائرات مروحية لم يعلن عن سقوطها من إذاعة صنعاء.. لجأنا إلى تحصين مواقعنا بزرع شبكة واسعة من الألغام الفردية.

اقتصر نشاطنا فيما سبق على عقد لقاءات سكان القرى الجبلية. تم فيها تشكيل لجان لإدارة شؤونهم.. ترتيب فصول محو الأمية للكبار، توزيع بعض الرفاق لتدريس الصغار في الكهوف وتحت.

ظلال الأشجار، تسيير مجموعة من الأطباء والصحيين لمعاينة المصابين بالأمراض المنتشرة، تنفيذ دورات لتأهيل ضباط الوعي الثوري، تشكيل الشباب في فرق للدفاع القروي وحراسة الممتلكات، تشكيل مجالس لفض النزاعات بين السكان.

استهدفت القرى من قبل القبائل المساندة لقوات صنعاء، دمرت قرى عديدة بقصف جوي مساند للزحف البري، أعلنت السلطات المناطق الوسطى مناطق مغلقة للحسم العسكر وتمت إبادة سكان قرى بأكملها.. ازداد عدد المهجرين من قراهم.

غيرّنا من تكتيكنا القتالي.. أوكلت حماية القرى إلى سكانها، وتم توزيع جبهات القتال إلى قطاعات. وبداية شهر فبراير/شباط توغلنا في عمق المناطق الموالية للسلطة. أخذنا بمهاجمة النقاط والدوريات العسكرية في الطرق الرئيسة. كانت هذه الخطوة من أهم الخطوات.. فبعد قطع طرق الإمداد الرئيسة، أعلنت مناطق بأكملها ثورتها ضد سلطات صنعاء. كانت بالأمس ضمن المناطق الموالية للسلطة.. دارت معركة حاسمة.. استولينا على أحد المواقع العسكرية فوق منطقة دمت، كان يؤمّن الحماية لطرق الإمداد من المناطق الشمالية. تم الاستيلاء على عدة مواقع عسكرية في جبال: حريب والسوادية والبيضاء ورداع وجبال دمت وقعطبة.. والنادرة والسدة. أعلنت مدن ونواح واسعة تأييدها وانضمامها لقوات الجبهة الوطنية. في ٢٠/فبراير أعلنت الجبهة رسمياً جاهزيتها للزحف الثوري الكبير على صنعاء، داعية كل القوى الوطنية الحرة إلى الاشتراك في الزحف الوطني لإعلان دولة الوحدة اليمنية من صنعاء. كانت قوات السلطة تتقهقر متراجعة إلى الخطوط الخلفية. اقتربت القوات من مدينة ذمار إلى الجنوب من صنعاء

(١٠٠ كلم).. ويريم ومدن أخرى. أكثرية السكان أخذوا يستعدون لاستقبال قوات الجبهة.

أصبحنا نتنقل مستخدمين العربات العادية عبر الطرق الرئيسة، وداخل المدن والقرى، نقترب من الطريق الرئيسي بين صنعاء وتعز. سيطرنا على مدن وسهول واسعة.

جاءتنا برقيات القيادة تعلمنا بقرب تحديد ساعة الصفر للهجوم الكبير.. وعلينا بالاستعداد خلال أيام معدودة.. وأن الاتصالات عبر وسيط ثالث لتسهيل خروج قيادات سلطة صنعاء على وشك الانتهاء.

فاتنتي سمبرية..

بالأمس وصل إلينا الرفيق عبد الفتاح إسماعيل ومجموعة من القيادات الحزبية والعسكرية. ألقى خطاباً رائعاً في جمع كبير بمدينة (دمت)، وضمن ما قاله للحشود:

«الوطن على أعتاب فجر جديد.. نحن على موعد مع النصر.. إننا نعيش تحقيق الأحلام الكبيرة.. انتظروا أيها الرفاق الأبطال الإشارة للزحف مع جماهير الشعب لإعلان دولة الوحدة من صنعاء. إن اليمن يستحق أن نفديه بدمائنا».

حين كنا نستمع إليه.. كنت أتخيلك تستقبليننا على مشارف صنعاء.

في مارس ١٩٧٩

حررت هذه الرسالة إليكِ

10

الرياض

«٧» ملهمتي سمبرية..

أجلس إلى نفسي.. تحاصرينني كما لو كنتِ معي. وجهك الملائكي، كلماتك، أشعر أننا معاً منذ قرون. لم تعودي تلك الفتاة الصغيرة، لقد أصبحتِ بداخلي امرأة في مصاف الكائن الكامل.. دوماً مشغول بك.. أتنفس، أتناول الأكل، أضحك.. حتى لحظات الألم أنتِ معي.. فهل تفكرين بي؟

حبيبتي

حين بدأنا بالزحف على صنعاء. أشعلنا ليلتها النار من على قمم الجبال إيذاناً ببدء الزحف. منظر اللهب وهو يغطي مساحات واسعة من الوطن.. لم يعد لحكام صنعاء من مكان، حتى صنعاء أشعل معظم سكانها اللهب.. جبال اليمن أسطح منازلها.. حتى من كان في الوديان أشعل اللهب. لقد تحولت المناطق الشمالية إلى

شعلة متقدة من البحر إلى الصحراء، إلا أن إذاعة عدن سريعاً ما أعلنت موافقتها على وقف إطلاق النار ابتداء من صبيحة اليوم التالي لإيقاد الشعلة. صادف يوم جمعة مارس ١٩٧٩.. توالت رسائل إذاعة عدن المشفرة: «.. عليكم البقاء في مواقعكم. وانتظار الرسالة التالية.. مع الالتزام بعدم المواجهة مع جنود ومناصري السلطة!». أكدت رسائل الأيام التالية نفس الاتجاه.

لم يعد لنا أي عمل. أمست عدن تدعونا لحقن الدماء. وإفساح المجال للحوار بديلاً عن لغة السلاح. خطابها انحرف تسعين درجة.

كانت خيبة أمل كبيرة بين صفوفنا ورفض لموقف الرفاق في عدن.. ولجوقة بعض الإذاعات العربية وهي تردد مناشدات صنعاء للأشقاء والأصدقاء، التدخل السريع لوقف القتال.. كما تدعو القادة العرب إلى عقد قمة عربية طارئة لمناقشة الوضع الملتهب في اليمن. لم يكن وقف إطلاق النار وتلك المناشدات إلا لكسب الوقت الذي أخذت فيه صنعاء تستعد لمواجهتنا، فبعد أيام أذاعت الـ bbc البريطانية خبراً جاء فيه:

«تم تزويد صنعاء بصفقة أسلحة أميركية مولتها الرياض وتشمل: ١٢ طائرة ـ إف ـ ٥٠ تايغر وعدداً من طائرات فالكون و٦٤ دبابة م ٦٠ و٩٠ ناقلة جنود ام بِ ام وصواريخ مضادة للدروع أ تاد ومدافع متنوعة تجاوزت قيمتها ٦٠٠ مليون دولار، وتزويد صنعاء بخبراء أميركان لتدريب الجيش على الأسلحة الجديدة.»

تضاربت المواقف على جبهات القتال.. ساد تذمر واسع بين

صفوف المقاتلين.. أعلنت الجبهة عدم التزامها بإعلان وقف إطلاق النار أو بأي اتفاق بين صنعاء وعدن.. استعاد المقاتلون ثقتهم بقضيتهم بعد سماعهم تلك الأخبار.

أخذت السلطة في صنعاء ترتب لقاءات سرية مع بعض قيادات الجبهة الوطنية لإغرائهم بالمناصب والمنح العينية. كما أعلنت إذاعة صنعاء عن تعديل حكومي تم فيه إقصاء العناصر المناهضة للتقارب مع الجبهة الوطنية.. وإحلال شخصيات قريبة من تيار اليسار. تم الإعلان عن إطلاق سراح عدد من المعتقلين اليساريين وإعادتهم إلى أعمالهم.. إغلاق بعض المعتقلات.. والتحضير لانتخابات محلية في عموم المحافظات الشمالية.

خلال أيام نجحت صنعاء في كسب تأييد بعض القادة العرب.. وشكلت جبهة مضادة لكل من يدعم الكفاح المسلح لتحقيق الوحدة اليمنية. كما نجح دبلوماسيوها في دعوة القادة العرب لعقد قمة عربية طارئة في الكويت كرست لمناقشة القضية اليمنية.. وتنفيذاً لقراراتها استضافت الكويت قمة يمنية جمعت «زعيمي الشطرين» أواخر آذار/مارس ١٩٧٩ برعاية كويتية.

في نيسان/أبريل أعلنت إذاعة الكويت عن التوصل إلى توقيع اتفاق الكويت بين اليمنين لإنهاء النزاع.

حبيبتي..

تزعزعت مواقفنا رغم إعلان الرفض لكل تلك الاتفاقيات والقرارات.. وأصيبت عناصر الجبهة في قمم الجبال وداخل المدن بالارتباك من تضارب المواقف.

أعلنت صنعاء عفواً عاماً عن جميع المقاتلين.. طالبتهم بترك مواقعهم القتالية وتسليم أسلحتهم.. أعداد كبيرة من رفاقنا استجابوا لإعلان صنعاء.. أخذوا يرحلون متوجهين إلى قراهم البعيدة.

فكرت في استغلال إعلان العفو العام كعذر للتسلل إليك.. كنا نعرف أن كل ذلك لا يعدو كونه مصيدة.

أخذت الإذن بإجازة. كنت ضمن مجموعة من الرفاق.. نزلنا من الجبال.. توجهنا إلى مدينة دمت.. استقللنا سيارة أجرة.. كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً.. أخفينا أسلحتنا بالاتفاق مع السائق.. لم نكشف عن هويتنا.. عبرنا عدة نقاط عسكرية.. كان التفتيش عشوائياً.. الأسئلة كثيرة.. استطعنا أن نضللهم.. وصلت إلى إحدى القرى القريبة من قريتنا.. التقيت بضابط اتصال.. نصحني بتوخي الحذر وعدم الظهور نهاراً.. تسللت إلى جبال القرية.. كنت أعرف طريقي جيداً حتى مغارة الجن.. أشعلت القليل من النار.. أتأمل الفضاء.. مهرجان النجوم على وجه حالك السواد.. الجبال.. شبح لسان صخرة حصن عرفطة.. الوادي الكبير. ليل يملأه ضجيج الحشرات.. عواء الكلاب.. طلقة رصاص هنا وأخرى هناك.. تركت خفقات قلبي تقود قدماي.. قررت التسلل.. هبطت المنحدرات.. مزارع الوادي.. جوقة الكلاب تنبح في أحد منعطفات الوادي.. تجاوزتها نحو مرتفع القرية.. سعيدة خطوات أقدامي إليك.. أهمس بلحن حفظته منذ سنوات.. تسللت بعيداً عن قطعان الكلاب.. ولجت بوابة الحصن.. رائحة الزرائب المحببة إلى نفسي.. الدرج الصلد.. تسللت.. احتضنتني زوجة أبي باكية.. تتشبث بي.. تتفحص قامتي ووجهي:

ـ أهلاً بالغالي.. كنت أنتظر عودتك.

ـ وكان قلبي يدفعني لزيارتكم.

ـ.أين أبي؟

ـ أبوك في سجن الدولة!!

ـ ولِمَ سُجن؟

ـ شيخنا قدم بلاغاً إلى السلطات قال فيه: إن أباك شيوعي.. يساند الجبهة في حربها على الدولة.. وأنك وراء كل ما يجري في منطقتنا من تخريب.

خبت نشوة قلبي.. جلست صامتاً أستمع فحسب.. وما إن استنفدت مخزون إحباطها حتى عادت للدموع.. احتضنتها:

ـ هذه هي أقدارنا لا تُعالج بالدموع.

ـ لمَ نحن دون سوانا؟

ـ الفرد يختار مسار أقداره.. الحياة غير مسؤولة عن اختياراتنا.

ـ الحمد له على كل حال!

ـ إذاً سأسلم نفسي من أجل إطلاق أبي!

ـ سيقتلونك إن عرف أحدهم بوجودك هنا.

ـ وأبي!!

ـ له الله.

ـ وسمبرية؟

ـ بخير.

ـ أريد رؤيتها.

ـ انصرف الآن.. كن حذراً.. الشيخ لن يرضى إلا برأسك.

أدركت كم واقعنا مرير.. وكم هي المسافة بين أحلامنا وما نعيشه. هبطت السلم.. تجاوزت ممر الزرائب.. قوس الباب الكبير.. انعطفت خارجاً.. سرت خلف الحصن بمحاذاة أكوام الحطب.. مشارف اللسان الصخري.. بدأت بهبوط المنحدر.. فجأة دوت أصوات مفزعة.. لمع الرصاص وتطاير شرره من حولي.. لا أعرف كيف كان رأسي يعمل؟ لكني وجدت جسمي يهوي منبطحاً على الأرض.. صوت بداخلي يصرخ: «هو الموت يطبق عليك..». استجمعت أفكاري.. هل أصبت؟ تعرفت على محيطي المظلم.. منحدر مكشوف.. بقربي نبات صبار.. حشائش قصيرة.. إلى الخلف نتوء صخري. أسفل منحدر.. عدة رصاصات جديدة.. انصبت على نبات الصبار.. لا أعرف مصدر الرصاص.

هدأت.. ظلام الليل سيد الألوان.. صوت الريح يحدث نوعاً من الأمل.. نجوم تومض بعيداً.. نباح كلاب تقترب من الأعلى.. أصوات متداخلة.. حددت موقع القناصة.. هناك حيث نباح الكلاب أعلى النتوء الصخري.. زحفت نحو أسفل المنحدر.. هويت من على جرف صغير.. ارتطمت على شجيرات صغيرة.. زخة رصاص أخرى.. أخذت ساتراً من الأعشاب أستطلع المكان منبطحاً.. أضواء تمسح المكان.. كلاب تواصل نباحها.. هدأت في

مكاني.. سمعت بوضوح من يقول:

ـ لم يبتعد.. لقد أُصيب.. يمكننا تتبعه.

قال آخر:

ـ انتبهوا.. يمكنه اقتناص أحدنا.

أفق الفجر بدأ يغير لون السماء.. زحفت بصبر وهدوء.. أحد الشعاب.. ابتعدت قليلاً.. لم يعد من أحد في ذلك المنحدر.. ظهرت الشمس.. سرت مبتعداً.. صعدت باتجاه كهف الجن.. جلست أرقب الحصن.. الناس.. أفحص جلدي.. لقد نجوت بأعجوبة. المزارعون يمارسون أعمالهم.. امرأة تهبط المنحدر.. تمنيت أن تكون أنت.. عبرت الوادي.. أخذت بالصعود.. إنها فعلاً أنتِ تتجهين نحو قمة الجبل.. أرقبك برجفات قلبي.. في البدء خفت من أن يلحظك أحد.. صعدت.. اقتربت أكثر.. هبطت لاستقبالك.. شعور له طعم السعادة.. صعدتِ شعاباً ملتوية إلى السفوح الموازية لموقعي.

نسيت رصاص الأمس.. كانت معنوياتي عالية.. أود رؤيتك.. سماعك.. لحظة اقترابك أمعنت النظر.. استبشرت بابتسامة ملامحك.. تنظرين إلي بعينين صافيتين.. رائحة الشذى.. تجرأت بفتح ذراعي.. هي المرة الأولى التي أطوق فيها خصرك.. احتضنتك بشدة.. المرة الأولى التي أتجرأ على تقبيل صبية.. كنت أسأل نفسي وأنت ملتصقة بصدري: هل تشعر بما أحمله لها من مشاعر؟ هل تدرك أنها تسكن خيالي؟ أم أن مشاعرها لم تنضج بعد؟

الثوب الأسود يضفي على لون بشرتك البيضاء فتنة.. أحسستُ وأنت تتأملين وجهي صامتة أنني ملك متوج.

حرر في أبريل ١٩٧٩

□ □ □

«١٠» نبض قلبي حنظلة..

سألني تبعة قبل أن يجلسني جواره:

ـ من أخبرك عن وجودي؟

أجبته بزهو:

ـ وهل يخفى البطل..؟ القرية تتحدث عن مقتلك ليلة البارحة.

ـ واهمون!

سألته:

ـ كيف نجوت؟

أخذ يشير إلى منحدرات القرية في نشوة:

ـ انظري هناك.. من تحت الجرف الأول زحفت.. وعندما ابتعدت انحدرت شرقاً.. أنا غير مصدق أني نجوت!

ـ الحمد لله على سلامتك.. غير مصدقة أنك أمامي؟

ابتسم لي وهو يدور بقامته.. لاحظت قصر ساقه اليسرى.

ـ كما ترين.. أنا نفسي غير مصدق.. لقد تأملت جلدي تحت أشعة الشمس.. لم أجد أي خدش.

ـ احك لي.

ـ بل أنت من ستحكين لي عما يدور في القرية.

ـ لن أحكي إلا إذا فسرت لي ماذا تعني كلمة مخرب؟

ـ وماذا أيضاً؟

ـ ومعنى كلمة شيوعي!

ـ هل ينعتونني بتلك النعوت؟

ـ كيف عرفت..؟

ـ لا يهم!

أتفرس في وجهه القمحي غير مصدقة أني سأراه مرة أخرى.. يتحدث الناس عن مقتله.. وآخرون يؤكدون أنه لم يمت.. والبعض يقول: بل هرب بعد أن اخترق الرصاص جسده.

قال أحدهم: إن حارس مزرعة قات سمع نباح كلابه بشكل متواصل.. أخذ يراقب المحيط.. لاحظ مرور شبح وسط الظلام.. تسلل خلفه صاعداً نحو القرية.. تابعه حتى دخوله الحصن.. تأكد له أنه تبعة.. أسرع إلى إخبار دار شيخنا.. بدوره كلف عدة أشخاص لترصد خروجه من الحصن وقتله.. استمع لي حتى انتهيت.. قال مبتسماً:

ـ أنت من أستمد منها قوتي.

ـ هل أنا كل ذلك حقاً؟

ـ وأكثر من كل ذلك.. أجزم بأنك من يفهم كل ما يدور.

ـ أنا فخورة بك.. أضحيت مثال الكثيرين.. لا أريد لذلك المثال نهاية بشعة.

ـ ما يزيدني أملاً هو حبك.. الذي كاد يكون سبب مصرعي ولم

يعد ما يشغلني سواك.. فأينما أكُن ينبض قلبي بحبك.. يصلٌ لك.

ـ أخاف عليك.. أنت مهدد بالقتل.. خالي في السجن.. لا أريد أن يكون حبنا سبب نهايتك:

ـ أنا أحبك.

ـ أريد أن يسمعك كل من في الكون.. إن قبلت أن أهرب معك حتى أثبت لك ذلك فسأفعل.

ـ يمزقني الشوق حين أكون بعيداً.. الشعور باليتم.. بالفقد.. النظر في عينيك يعيد لي توازني.. سماع كلماتك يبعث فيَّ القوة لمواجهة ما نحن فيه.

ودعته في ذلك اليوم.. لم تغمض عيناي في تلك الليلة.. وهذه أنا أعود بعد سنوات في شوق إلى لفائف رسائله.. أدون لك الرسالة التي وصلتني منه.. وكأنها اليوم:

□ □ □

«٨» سمبرية الحورية الصغيرة.

كم أشعر بتأثير جبال قريتنا على مشاعري تجاهك.. تلك المنحدرات.. المغارات.. الجلوس تحت ظلال الأشجار.. جنون عشقي لك جعلني أرى ألواناً لا يراها غيري.

هل تتذكرين لقاء شلال الوادي.. ذلك اللقاء الذي غيَّر كل شيء؟ في ذلك اليوم تركتك لأرحل عارياً.

دعيني أبوح لك قليلاً عن تناقضاتي.. الإنسان بحاجة إلى من يعيد له توازنه تحت مشاعر شتى.. الأم بحاجة إلى من يحرك فيها أحاسيس الأمومة.. المريض.. الابن.. حتى المشردون مثلي.. كل ذلك ضرورة حتى يشتد عود أي إنسان.. وأنا كنت بحاجة إلى من يعوضني ما كنت فيه من شتات.. كنت بحاجة إلى لقياك.

لقد علمتني أول درس حب حقيقي.. جعلتِني أعيد فهم الأشياء.. علمتِني أن المرأة مخلوق خلاق.. وأنا أحاول فهم ذلك من خلالك كأنثى في المقام الأول.

المرأة وراء كل الأعمال الحميمة في هذا الحياة: في الدين.. الحروب.. العلم.. في السياسة.. هي ينبوع الأفكار الأكثر إنسانية عبر التاريخ.

أنت تعرفين بأني لا أعرف أمي.. ولهذا لم أشعر يوماً بمعنى ما هي الأمومة.. كما يعرفها من التصق ببشرة أمه رضيعاً..!! حتى تلك الجراء.. وتلك القطط.. والكثير من الحيوانات.. تعرف كيف تفرق بين مشاعرها نحو الأنثى الأم والأنثى غير الأم.. وأنا لا أعرف أن أفرق.. كل النساء لدي بلون واحد.. فأنتِ عشيقتي حبيبتي أمي.. أنا أعرف أن أي أنثى تستطيع أن تكون كل شيء دفعة واحدة.. ولا أعرف كيف يفرق الذكور بين روائح العطور.. هي ميزة لا أمتلكها.

أنتِ تمثلين لي الأنثى الشاملة.. الأنثى التي حركت فيَّ مشاعر لا أخجل من ذكرها.. قد أبدو لك غريباً حين أقول ذلك.. وقد أفهم تلك العاطفة غير ما يفهمها معظم الذكور.. مهمتك صعبة معي.. قد تعانين على مدى الحياة القادمة تناقضاتي.. ليس في يدي ما

أفعله.. حين أجمع فيك كل وظائف الأنثى.

أدرك كم أنا شاذ ومختلف في فهمي للأنثى.. في تصوري للعلاقة بين رجل وامرأة.. كنت قد بدأت أضع لمفردات الأمومة مشاعر تجريبية.. وللأنثى العشيقة طعماً مختلفاً.. كنت أجرب وأحاول توطين المشاعر الجديدة.. لكنني سرعان ما أجد أن محاولتي مجرد تنظير من الصعب تطبيقه.. وسريعاً ما أعود لعاطفتي المتجذرة.. كل النساء أم عشيقة وكل النساء يصلحن لكل شيء.

حين التقينا في يوم الشلال كنتِ مغرمة بالحديث.. وبدوري تصنعت الإصغاء.. بينما كنت أنا منشغلاً بتخيل مستقبل العلاقة بين إنسان شريد وصبية ريفية حالمة.. صوتك يدعوني إلى مزيد من الخشوع.. حركة شفتيك.. نظرات عينيك.. خصلات شعرك حين تحركها الريح.. قدماك الصغيرتان.. ألوان فستانك.. ذراعاك حين تلوحين بهما.. رائحتك.

سريعاً ما أدركتِ.. حين قلتِ معاتبة:

ـ أراك لا تشاركني الحديث.. إلى أي أفق حلّقت بعيداً؟

تلعثمت لملاحظتك.. استدركت لأعيد نفسي إليك.. قلت لك مبتسماً:

ـ في فتنتك التي شغلتني عن حديثك.

ـ بل قل مللت من حديثي.

ـ بل اشتقت إلى مزج روحك في ثنايا روحي.. لثم شفتيك.. تقبيل مسامعك بكلمات الشوق.. أصابع قلبك.

انتفضت منتشية مع هدير الريح.. خلتك جزءاً من العاصفة.. حاولت ثنيك عن النهوض.. لم تتركي لي مواصلة كلماتي.. اعتقدت أنك ستحلقين من علو ذلك الجبل.

كانت لقاءاتنا السابقة قد جعلتنا نعرف الكثير من المغارات والقمم والسفوح.. عرفت أقدامنا طرقاً عديدة.. اكتشفنا ينابيع مياه.. احتوت لقاءاتنا الجبال البعيدة عن حصن عرفطة.. مرغنا حواسنا في حب لا ينضب.. ورغبة حريق لا ينطفئ يركض في أوردتنا.. نفترق لنرسم خرائط جديدة.. تعلمنا كيف نخلق المتعة من العدم.

لم يكن قراري حين فاتحتك:

ـ هل تقبلينني زوجاً!!

تلعثمتِ ناظرة إلى الأرض.. كان سؤالي مفاجأة لك:

ـ كيف أرفض وكلّي منقادة إليك؟ لكن كيف يتزوج الناس؟!!

ـ نحن لسنا مثل الناس!!

ـ كيف؟

ـ حبنا يجعلنا مختلفين.. ظروف حياتنا.. ما نعتقده من علاقة بين الذكر والأنثى.. لسنا بحاجة إلى قاضٍ.. أو شهود.. أو تلك الورقة التي تميت العشق.. يكفي أن أحبك بصدق وتبادليني نفس المشاعر لنكون زوجين.

ـ و أمي!

ـ أمك.. أخاف إن علمت أن تبوح!

ـ كيف إذن نتزوج؟

ـ هكذا!!

مددت كفي إليك.. صافحتك.. خاطبتك:

ـ هل تقبلين بي زوجاً..؟ إن رغبت قولي: «قبلت بك زوجاً.. وإن...»

قاطعتني بقولك:

ـ لا تكمل.. بل قبلت بك زوجاً على سنة الحبّ.

تزوجنا بالطريقة التي أُتيحت لنا.. شعور بالسعادة يجتاحني ونحن مثل مخلوقات البراري.. عصافير المروج.... عشنا أياماً من المتعة.. بعيداً عن تعقيدات المجتمع.. تتسللين إلي تحملك أجنحة العشق.. ننتقل من جبل إلى آخر.. ومن غويبة إلى شلال..

في يوم الشلال هربت عارياً.. تنخرني أسئلة كثيرة.. كيف استدلوا على مخبئنا؟ أين كان الخلل يتخفى؟ كيف استطاعوا مراقبتك دون أن تلحظي ذلك؟ أم أن خطأ ما قد ارتكبته أنا؟ هل أخبرتِ إحدى صديقاتك بمغامراتنا..؟ أم أنك تناسيتِ طبيعة أمك وأخبرتها عن فرح قلبك.. مخدوعة بمقولة «البنت سر أمها!!»

مغارة الجن ضمت لقاءنا الأول.. وهي من رسمت آخر لقاء.. لم تكن هناك من علامات أو دلائل على أحدٍ ما كان يترصدنا.. كنتِ تجيدين التمويه.. خرجتِ هذه المرة على غير عادتك.. هبطت المنحدرات الغربية لحصن عرفطة.

عند بزوغ الشمس هبطتِ الطريق المؤدية إلى الوادي البعيد.. على رأسك أوعية الطعام الملفوفة بسماط أصفر.. استغرقت وقتاً حتى

وصلتِ إلي.. حينها سألت نفسي وأنا أراقب سيرك: ولم كل هذا العناء؟ وصلتِ الوادي.. ثم انعطفتِ نحو مجرى السيل حيث تعرجه يتجه جنوباً، ثم ينحرف شرقاً حول هضبة اللسان الصخري المعلق.. أتذكر أنك قطعتِ تلك المسافة ولم ألحظ أحداً يرقب سيرك. صعدت السفوح المؤدية إلى قمة المرتفع الأول من الجانب الغربي.. أحراش الشجيرات تباغتك.. جرف صخري يعترضك.. عوائق تتوالد.. تشهرين خبرة الراعية المتمرسة.. تتسلقين المرتفع الأخير.. لم أر أحداً يتبعك.. كان حصن عرفطة يتثاءب ولا يزال الوقت مبكراً.. الرعاة يخرجون بأغنامهم.. البعض يقود مواشيه نحو منحدر الوادي.. صباحاً بهيجاً. حين صعدت إلي.. هرعت لاستقبالك.. حملتك بين ذراعي.. صرختِ وأنت تقبّلين عيني.

أجلستك جواري قبل أن نصعد المغارة.. أمسكت أصابع كفك.. سرنا فوق جرف حتى فم المغارة.. بدوتِ كحورية مبلل وجهها.. نظرات صامتة إلا من ابتسامة ساحرة.. كنت تلهثين.. شفتاك أجهدهما العطش.. ما أن ولجنا عين المغارة لتتطاير خصلات شعرك حول وجهي.. أضفى على بياض بشرتك سحراً لا يقاوم.. خيّل إلي أن صخور الكهف تضحك.. السماء تضيء زرقتها.. تركتك تجمحين.. أخذت أطير بك.. هدأت مِن نوبة صهيلك.. طارت أقدامك.

مبتسمة نطقتها:

ـ أعشقك.

أتذكرين حين قررتِ دهن وجهينا بسائل العسل البري!! لم تكتفِ بل أخذت بأصابعك تطلين مناطق جديدة من جسدينا.. أهلّة

صدرك.. أغوار بطنك.. فخذيك.. ثم أخذتِ بالرسم على بشرتي.. استخدمنا ألسنتنا.. جلودنا.. مواطن اللذة.. براءة النشوة.. اخترعنا جنوناً خاصاً بنا لا يشبهه أي جنون.. مارسنا تصرفاتنا الفطرية.. بل إننا على مدى ساعات توحدنا بالبرية.. وإحساسنا بالحرية يوحي لنا بكل تلك الممارسات اللذيذة.

كان اقتراحك أن نختتم يومنا عند بركة شلال الماء.. حملت بندقي.. هبطنا باتجاه الأحراش الغائرة.. الشمس عمودية.. ظلال الأشجار.. شكشكة طيور الحجل البري.. هديل حمام الوديان.. شلال الماء.. كل شيء صاخب.. وجودك زاد المكان ألفة.. غويبة ممتدة بطول مجرى الماء.. تحولت إلى مستعمرة للطيور.. الحشرات تكسوها ألوان براقة.. صوت الشلال يطغى على كل شيء.. خلعنا ملابسنا معاً.. تقافزنا عارين وسط مياه البركة المغمورة بخمائل الأشجار.. غطسنا معاً.. مارسنا اللذة في الماء.. حين تمنيتِ عليَّ أن أصنع لك إكليلاً.. لم تكوني تعلمين أنك ترسمين بطلبك أقدارنا.. صعدت إحدى الأشجار أجمع زهرها.. قبل أن أبدأ شاهدت ما جمد الدماء في عروقي.. مجموعة من المسلحين على مقربة منا.. قادمين بين جذوع الأشجار.. عرفتهم.. إنهم من زبانية شيخنا.. لم يلحظوني وسط أغصان الشجرة.. انسللت هابطاً إليك بهدوء.. تنظرين إلي مرتبكة.. حاولت إبلاغك.. كنت مرتبكاً مشوش الأفكار:

ـ هناك من ينوون الشر بنا.. اهربي.

أظنك لم تسمعي ما حدثتك به.. واصلت همسي لإفهامك.. البسي ملابسك.. كنت أود أن أنقل إليك ما رأيت.. حاولت سحبك معي.. أشرت عليك بالاختباء وسط الأشجار.. قلت لك:

سأتركك وأنسلّ على عكس اتجاهك.. قد لا نلتقي على المدى القريب.. قد أنجح في الإفلات من الموت.. وقد ينخر جسمي رصاصهم.

نظراتك تتوسل.. شفتاك ترتجف.

أتذكر أني احتضنتك.. طبعت على شفتيك قبلة سريعة.. ثم لوحت لك بالهروب.. مضيت أمام عيونك الموجوعة.

ربيع ١٩٨٠

11

شلال

«٩» ساحرتي وعطر قلبي سمبرية..

تركتك للمجهول وانسللت عارياً.. ترى هل تهاوت صورة البطل الذي كنت قد رسمتِه في قلبك كنت قد حدثتني عنه.. المثال الأعلى.. الأمل.

لم يترك لي القادمون فرصة للتفكير.. غلفني شعور بالذل.. حاملاً ملابسي وسلاحي.. أشعر بضآلة ذاتي وأنا أبتعد كثعلب فقد حيله.. ألهث أتسلق المنحدرات.. مسامعي أصابها الصمم.. لساني مذاقه مر.. جسدي تفوح منه رائحة نتنة.. ألوان الضوء بازلتية.. ساقاي تحملان جبني.. أتخفى خلف الصخور.. الشجيرات.. الأغوار.. ألتفت متلصصاً علّي أستطلع ما يمكن حدوثه.. ينشغل خيالي في تخيل ما يحدث.. لم أفكر بالعودة لإنقاذك.. لمجابهتهم.. أنتقل من ظل إلى آخر.. أتلفت في رعب.. يتقاطر لعابي.

سمعت صدى طلقات رصاص.. خيل إلي أنها صرخاتك.. أسأل نفسي: هل وجدوها؟ الصدى يرتطم بحوائط الجبال.. ريح فزعة.. أسراب الحمام.. تخيلت جسدك الناحل يهوي على حافة الماء.. قطرات الدم تتبعثر على أوراق الشجر.. جدول صغير يلون سطح البركة بالدم.. اقتعدت مكاني أنوح.. كم هو الشعور بالعار مقيت.. قررت الرحيل عن كوابيس الموت.. تجاوزت قمة الجبل.. اختفى عن ناظري كل شيء.. لك الله.. أتطلع إلى أفق باتجاه الغرب.. تخيلتهم يحملون بنادقهم على أعناقهم عائدين.. بعد أن تركوك جثة هامدة عند حافة البركة.. الصمت يبدده صوت الشلال.. زقزقة العصافير.

سرت غرباً.. أعرف الطريق المؤدية إلى الرفيق شرهان.. وإلى مولانا.. سأبحث عنهما.. هو الليل ستار العيون.. تركت بقايا قلبي.. خوفي.. نقوش الخيال.

سلسلة جبال متتابعة.. رسمت طريقي وسط تداخلات الجبال.. وديان غائرة.. جبال متراصة.

ثلاث ليال من الخطى المتواصلة.. بحثت عن مولانا من قرية إلى أخرى.. أتخيله يفتح ذراعيه.. أعانقه.. أبكي مثل الصغار بين يديه.. أعتذر له.. أثرثر معه.. أترك أصابعه تداعب أشيائي.. أستمع إلى حكاية قطعه القديم.

وجدت بعض أخباره.. قال بعضهم إنهم رأوه قبل عدة أسابيع في أحد المآتم.. وآخر أخبرني بأنه شاهده يتجول بين القرى الشرقية.. كنت سعيداً لتلك الأخبار.

في مركز تجمع الرفاق بمنطقة القفر احتفى بي الرفاق.. عشاء متنوعاً.. لأول مرة أتناول كأساً من الشراب.. لم ننم ليلتها.. كان شرهان يستمع إلي وأنا أحدثه عن مشاركتي في جبهات القتال.. عن خيبة الأمل حين قرر رفاق عدن الهدنة.. أخبرني أن الجبهة الوطنية مصممة على مواصلة النضال حتى تحقيق الوحدة.. معتمدة على قدراتها وعلى دعم الشعب ومؤازرته لها لمواصلة النضال حتى تحقيق الوحدة.. ولن تسمح بعد اليوم باستخدامنا ورقة ضغط بيد الرفاق بعدن.. بهذا سنمتلك قرارنا.

صمت.. ثم أردف:

ــ هل زرت حصن عرفطة؟

ــ نعم.. وقضيت في جباله عدة أسابيع.

ــ أخبارك لدي!!

ــ إذاً لمَ تسألني؟!

ــ بعض المداعبة.. إضافة إلى أنني قلق عليك.. عاطفتك تقودك إلى حتفك أيها الرفيق.. لا ينبغي أن تعرض نفسك للموت بهذا الشكل.. هناك خطة وبرنامج أعد لتوعية عناصر المقاومة بالمبادئ الثورية.. علينا أن نرد على قيام السلطة بملاحقة عناصرنا.. وإزاحة كل متآمر.

سألته عن مولانا.. قال:

ــ مولانا.. انتقل قبل أيام إلى المناطق الوسطى.

ــ مولانا في المناطق الوسطى!!

ـ وما يثير دهشتك؟

ـ لا شيء!

ـ مولانا من أهم الرفاق في هذا المحور على مدى السنوات الماضية.. تم نقله إلى المناطق الوسطى للاستفادة من كفاءته في هذه المرحلة.

عصفورتي..

المنطقة التي ننشط فيها موَّزعة على عدة محاور.. وفي كل محور عدة خلايا سرية.. لا يعرف عناصر الخلية غير قائدهم. تم إلحاقي بأقدم الخلايا في المنطقة.. بدأت خليتنا برنامجها الميداني بدراسة سكان القرى في إطار نشاطها.. بدأنا بالتواصل مع كل عنصر على حدة.. خلال أيام تم تنسيب وزرع أعداد منتقاة من المقاتلين بحرص شديد.. وضع البرنامج التثقيفي موضع التنفيذ للعناصر الجديدة.. تسربت أخبار أنشطتنا للسلطات المحلية.. كان رد الفعل من قبلهم عنيفاً.. إذ قامت بملاحقة وتصفية بعض رفاقنا.. اتسعت دائرة المطاردات والاعتقالات.. كان شيخنا ضمن عناصر السلطة.. يحشد الأنصار.. يقوم بملاحقة المطلوبين من عناصرنا.. صدرت الأوامر لجميع الخلايا بالانتقال إلى الخطوة الثانية قبل أوانها.. بتصفية بعض أنصار السلطة في المناطق الغربية.

التقى عناصر خليّتنا في أحد كهوف الجبل الأبيض جنوباً.. تدارسنا مهمتنا.. تم توزيع الأدوار. التوجيهات لخليتنا تقضي بتنفيذ خطة اختطاف شيخ قريتنا.. وإيصاله إلى مركز القيادة.. خطة اختطافه تتضمن استدراجه إلى صنعاء.. بدعوة مزيفة من محافظ صنعاء..

وعند ابتعاده عن القرية يتم اعتراض سيارته واختطافه.

كنت في حيرة من أمري.. أحاول إقناع نفسي بالمشاركة.. لم أمارس أي عمل قتالي في منطقتنا قبل اليوم.. لم أكن أتوقع أن يتم تكليف خليتنا باختطاف شيخنا.. فكرت بالاعتذار عن مشاركتي.. رُفضت الفكرة.

دخلنا مرحلة التنفيذ لخطتنا.. ابتكرنا وسيلة لإيصال دعوة المحافظ إلى شيخنا.. حددنا الموقع الذي سيتم اعتراض سيارة الشيخ. في صباح ذلك اليوم أخذنا مواقعنا.. قمنا برصد تحرك سيارته منذ خروجها من القرية، صعوداً على الطريق الترابية.

استعددنا مع اقتراب السيارة.. تم إغلاق الطريق بكُتل صخرية.. جميعنا بملابس عسكرية.. أمامنا عشرون دقيقة.. توقفت السيارة أمام حاجز الصخور.. هبط المرافقون لإزالة الصخور.. خرجنا شاهرين أسلحتنا.. انطلقت رصاصة لشل حركتهم.. تم سلب المرافقين بنادقهم الرشاشة.. كتفت أيديهم وأرجلهم.. كتف السواق جوارهم.. تركناهم ممددين على الأرض.. أزلنا حاجز الصخور. تحركنا بسيارة شيخنا صعوداً بعد أن عُصِبَت عيناه.. لم يقم بأي مقاومه.. كان قلبي مضطرباً.. اعتلينا المرتفعات.. عبرنا القمة.. وصلنا الطريق المعبَّد.. لم نصادف عقبات تذكر. كان شيخنا يتحدث دون تركيز. عند أطراف المنطقة تنتظرنا سيارة أخرى.. خبأنا سيارة شيخنا بين عرائش العنب.. اتجهنا نحو الجنوب.. عبر وادي (القرانيع).. الوادي مساحة طينية يمتد حتى أطراف حَيْد النبي يحيى.. وصلنا بعد ساعات مركز خليتنا على الجبل الأبيض.. حيث تنصب محكمة سريعة.. التقت عيناي بعيني شيخنا لأول مرة.. لم أطل النظر.. التفتّ مرة أخرى.. انكسرت

عيناي نحو تراب المكان.. صغر طغيانه في نظري.. كل مظالمه ضئيلة أمام ما أنا فيه من إحساس.. فكرت لو أستطيع ثنيهم عما هم قادمون عليه.. ظلَّ مقيَّد الساقين والذراعين.. في نظراته شيء من الكبر.. شاورت رفاقي لإطلاق سراحه.. اتهموني بالهشاشة.. وأني في وضع نفسي مُخلّ.

لا أريد أن تلتقي أعيننا مرة أخرى.. تركتهم وانسحبت إلى وحدتي بعيداً، أتأمل تلك الجبال البعيدة.. سلسلة القمم الغائمة.. القرى الملتصقة بوديانها.. مجاري السيول الغائرة.. طيور تلتصق بزرقة السماء.. سحب بعيدة.

تخيلت الأسئلة التي ستلقى عليه.. تخيلت ردوده.

ـ أتعلم لمَ أنت هنا؟

ـ أنتم أعلم!

ـ أتتذكر عام المجاعة والجدب؟.

ـ أيّ عام؟

ـ يوم أتتك رعيتك طلباً لمساعدتك بإقراضهم شيئاً من الحبوب.

ـ كل فرد حر في ما يملك.

ـ ألا تزال تقسم الدور السفلي من دارك بين بهايمك والمغضوب عليهم من رعيتك؟

ـ رعيتي هم أولادي.. ولا أحد منهم يتذمر من ذلك.

ـ وتبعة أليس من رعيتك!

ـ تبعة أين هو تبعة؟

ـ وسجن العطوي.

ـ هو غير مسجون.

ـ وما تسميه؟

ـ هو رهينة حتى يصل تبعة.

ـ لكنك تتهمه بتهم خطيرة.

ـ هو لا ينكر أنه يؤمن باليهودية والمسيحية وديانات لم نسمع بها.. ولا ينكر إيمانه بالاشتراكية.

ـ لكنه يدين أيضاً بالإسلام.

ـ على الله الركون. تلك زندقة.

ـ ما قولك في مقتل علي صالح؟

ـ لا أعرف إنساناً بالاسم هذا!

ـ علي صالح أحد مرافقيك!!

ـ أخذ جزاءه!

ـ مقابل تهمة لم تتأكد منها.

ـ هو من اختار لنفسه ذلك المصير.

ـ حين أشيع أنه يريد طلب خطبة أختك..

ـ بل هو من أشاع علاقة غرام لم تحدث.

ـ لكنك تقول إنها لم تحدث!

ـ هل ترضى أن يشيع أحد على إحدى أخواتك بالفاحشة؟

ـ أتشعر بتأنيب الضمير إزاء ما تمارسه من ظلم تجاه رعيتك؟

ـ أيّ ظلم؟

ـ سجنهم.. مطاردتهم.. نهب أموالهم.. قتل البعض.. إيعاز الدولة بمطاردة وسجن البعض الآخر.

ـ وما تمارسونه الآن في حقي.. ألا تعتبرونه ظلماً؟ من نصَّبكم لتحاكموني؟.

ـ نصبنا ظلمك وجبروتك وتسلطك.

ـ لم لا تتحلون بالشجاعة.. ونقف أنا وأنتم أمام الناس.. لنرى من هو المدان.. أنا أم أنتم.. نطرح عليهم ما تقولون.. أنا على يقين من أنهم سيسفّهون أفكاركم وأعمالكم.. وسيحاكمونكم على كل جرائمكم.. فأنا شيخ باختيارهم.. أحل مشاكلهم.. أسهم في إرساء الأمن والأمان.. وأنتم على النقيض من ذلك تفرضون الخوف والرعب!

ـ ألا تشعر بالخجل مما تقول؟.

ـ هم رعيتي وأنا شيخهم.. وأنتم من أنتم؟

ـ وسكوتك عن قتل المجنونة بخيتة.

ـ رأى سكان القرية أنها شوّهت سمعة القرية!

ـ بم شوّهتها؟

ـ ربما أنت أعلم!

ـ مجنونة.. ما ذنبها إن حبلت؟

ـ رأى الرعيَّة في ذلك تجاوزاً لحدود الله.

ـ ومحمد أحمد الذحلي!

ـ ناكر للجميل!!

ـ يُطرد من أرضه.. ويهدم بيته!

ـ الأرض أرضي.. والبيت في أرضي.. وهو مجرد أجير خرج على الأعراف المتبعة!

ـ عاملته كعبد.

ـ بل كأجير.. وأنا أردت استرداد حقي.

ـ وعبده المقذي!

ـ أنكرني من أرضي.

ـ لكنك لا تملك ما يثبت أنها ملكك.

ـ كل من لا يملك وثيقة تصبح الأرض ملك الشيخ!

ـ وأمرت الرعيَّة بهدم بيته وقلع شجيرات القات.. وطرده من القرية.

ـ حتى يكون عبرة.

الشمس تلامس شفرة الأفق البعيد.. اكتست السحب بلون الزعفران.. أهرب بعينيَّ نحو المنحدرات.. تلاحقني خيالاتي.. فلا أعرف بأي لغة أترجم ما أنا فيه.

عرفت لاحقاً أنهم اقتادوه معصوب العينين مكبل اليدين.. أوقفوه جوار شفة الهاوية السحيقة.. كانت الريح تحرك أطراف ثوبه.. أنفاس الشمس الأخيرة تلامس عصابة عينيه.. أمروه بالسير.. قالوا لي إنه سأل عني.. فقالوا له: إنني قليل التجربة ولهذا ذهبت بعيداً. حين اقتربت خطواته من شفة الهاوية تعثر قليلاً ثم نهض.. خطوة واحدة.. ثم هوى مرتعشاً في فضاء الحيد السحيق. لم يجد ما يسنده.

ذهبت حزيناً لا أريد أن أتحدث إلى أحد.. أو أسمع من أحد.. ضاق بي المكان.. نظرت إلى ظلمة السماء.. تكاثف وميض النجوم في سقفها.

فقط تبقت نظراته ملتصقة بذاكرة عيني وسط ظلمة المساء.. هل سمع أحد صراخه؟ ترى على أي جزء ارتطم؟

عدت إلى فوهة الكهف.. كانت قطع الجمر تتقد.. ضوضاء الرفاق وقد تحلّقوا حول حكايات لا تنتهي.. التفت أحدهم:

ـ يمكنك أن تتلو على روحه صلواتك.

قال آخر:

ـ اجلس حتى تتلقى واجب العزاء.

قلت ساخراً:

ـ من الأجدى أن نقيم حفلة راقصة.

تركني الجميع. كنت في منطقة رمادية، اللا حزن واللا فرح.. جرَّبت أن أحاور ذاتي.. سألتها: ما هي المشكلة؟.. رجل أخذ

جزاء بعض ذنوبه ومضى.. تخلص من آثامه.. وماذا بعد؟ كيف سيكون الغد؟ شعرت بضيق. خرجت مرة أخرى أنظر إلى السماء.. كانت دون أطراف.. عشوائية النجوم أبرز ملامحها.

□□□

نلتقي رفاقنا وسط زحام الأسواق الأسبوعية.. نقتعد ظلَّ غصون يابسة.. ننتحي جانباً عند أطراف الوادي.. نلتقي بالمقاتلين من مختلف القرى والمناطق.. نتلقى التعليمات.. نتسلَّم ونُسلم تقاريرنا.. ثم يمضي كُل في حال سبيله.. أمامنا عدَّة مهام.. نحتاج إلى عدَّة أيام لتنفيذها. توغلنا عبر وديان تنحدر غرباً.. تجاوزنا عدة مناطق قبلية.. انحرفنا نحو الجنوب عبر وديان خضراء.. زرنا عدة قرى.. قبائل هذه المناطق الغربية يعيشون ضمن تقاليد متوارثة منذ أجدادهم الحميريين.. وقد ظلت بعض العادات الوثنية سائدة.. مثل تقديس الحاكم.. يعتبر الكثير من السكان أن سلطته من سلطة الله.. يعيشون في أوضاع بدائية. ولأن تلك المناطق سلسلة من الجبال المعزولة.. يحتاج العمل النضالي إلى سنوات حتى يتجذر في وعيهم.. فر بعض أنصار السلطة إلى المدن يحملون أوزارهم.. حين ندخل بعض القرى.. كان السكان يتجمعون حولنا.. يستمعون إلينا.. وكانوا كرماء معنا.. الجميع يتشوَّقون للمشاركة.. لم تتحقق للمناطق الوسطى هذه الأوضاع إلّا بعد أن دارت مواجهات مع عناصر القوى التقليدية.. وكانت الغلبة للمقاومة.. ذابت الخلايا الثورية ليتحوَّل سكان بعض القرى إلى تجمع ثوري متكامل. لم تعد المواجهات بين سكان القرية الواحدة.. بل انتقلت بين قرية وأخرى.. أو بين عدة قرى ضد قرية أخرى. في المناطق الوسطى ظهرت هيكلية تنظيمية مختلفة.. فبدلاً من الخلايا السرية الصغيرة،

تشكلت عناصر المقاومة في فرق منظمة واسعة النطاق.. ولكل منطقة تكويناتها ويتم التعامل مع عناصر الخونة والمتسلطين حسب درجة تورطهم.. أمّا في هذه المناطق ومنها منطقتي، فقد استمر العمل بالخلايا الصغيرة السرية.

خلايا تستخدم الآبار المهجورة لإلقاء من ثبت تورطهم.. وأخرى اختارت الجروف العالية لتهوي بعناصر أوغلت في ظلم المزارعين.. لتحلّق النسور فوق جيفهم.. وخلايا برعت في اعتراض الأهداف على الطرقات أو المنازل والمنشآت.. ودوماً ما تنفذ مثل هذه الأعمال قبيل الفجر.. وخلايا متخصصة في زرع الألغام الفردية لاصطياد المستهدفين من الموالين للسلطة.. نادراً ما يتم استخدام الرصاص لتنفيذ عمليات التصفية.

حين التقيت بالرفيق شرهان.. وقد أضحى المسؤول السياسي لمحور المنطقة الغربية بأكملها.. أخبرني بأهمية عودتي إلى عمق المناطق الوسطى.

حدثني عن بعض خصوصياتي.. سبق أن تحدثت بها إلى بعض الرفاق.. شعرت بالإحراج وأنا أستمع إليه.. أخبرته بأني أشعر بهمٌّ كبيرٍ لفراق قريتنا.. كان مستمعاً لطيفاً.. على مدى نصف ساعة أصغى إلي باهتمام.. حتى اكتفيت.. نظر إلى عينيّ مبتسماً.. وقف قابضاً معصمي.

ـ انهض.. وفر دموعك.. عليك بالرحيل ليلة غد.

حياة المناضل ليست ملكه.. عليك بالرحيل إلى المناطق الوسطى.

لن نتركك تدور حول حتفك.. سنهتم بكل ماله صلة بك.

ـ كيف؟

ـ لا عليك.. رفاقك من عناصر الجبهة في كل مكان!!

ـ أنا جاهز أيها الرفيق للرحيل.

أمست كل المناطق والقرى منقسمة بين مساند للسلطة ومعارض لها. المواجهات هنا وهناك.. عمليات تصفية.. إحراق المنشآت والمساكن.. تنوعت المواجهات بين مؤيدي السلطة ورجال المقاومة.

عناصر الجبهة يعتمدون على حرب العصابات بعد أن جعلوا من الجبال مأوى لهم.

كانت الشعارات التي ترفعها السلطة تعتمد على تدنّي وعي أفراد المجتمع في ترويجها مثل: «الحفاظ على الفضيلة.. حماية القيم والعادات المكتسبة.. تطبيق الشريعة والحفاظ عليها..» وتطلق على عناصر الجبهة صفات عدة منها: المخربون، المارقون على الدين.. بل إنها كثيراً ما تتهمهم بالدعوة إلى الانحلال والمشاعية الجنسية.. وذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك في اتهامهم بالسعي لإلغاء الدين ونكران وجود الله.. والدعوة إلى الحكم بالمبادئ الشيوعية.. وإباحة المحرمات.. ساندتها العناصر المستفيدة من نشر تلك الشائعات والقوى الإقطاعية وأصحاب المصالح من القوى التقليدية.. والتيار الديني المتشدد.

رفعت الجبهة الوطنية شعارها: «النضال حتى تحقيق الوحدة اليمنية.. لا لعمالة نظام صنعاء لأنظمة عربية رجعية كأداة لتنفيذ سياسة الغرب الاستعمارية في المنطقة.. العدالة والمساواة والحرية

أساس كل نضال»، كثيراً ما أشعر أن الوطن يعتمد على نضالنا في تحقيق كرامته.. وأول ما يتبادر إلى تفكيري من صنوف الطغيان طغيان شيخنا.. تعامله العنيف مع محيطة.. استغلال نفوذه.. دعم السلطات له.

تعمقت فيَّ روح الفداء والتضحية.. وكل ما تدعو إليه الجبهة من مبادئ.. وهكذا الكثير غيري من الرفاق.. وما كان يزيد من صلابتنا اعتماد سلطات صنعاء على النظام القبلي.. وإطلاق أيدي مشائخ القبائل على مصائر الناس.. في نظام أبوي هو ما أوصل الكثيرين إلى أن يتجهوا إلى رفع السلاح في وجه السلطة.. رافعين شعارات «الحرية والعدالة والوحدة» اعتنقوها يموتون من أجل تحقيقها.. لم تكن قصتي تختلف عمن أقابلهم من الرفاق.. قصص كثيرة يكون محورها التسلط والظلم.. وتحالف السلطة وقوى اجتماعية استبدادية.

استغرق تسللنا إلى المناطق الوسطى خمس ليال وبعض النهارات.. سلكت الطريق ذاتها التي سرت فيها وشرهان أول مرة.. لم يتغير الناس.

علونا قمة جبل العود في المناطق الوسطى بعد سفر شاق لعدة أيام.. كانت سلطات صنعاء توسع من نفوذها يوماً بعد يوم مستفيدة من السلاح الأميركي الجديد.. لتنحسر معظم مواقعنا وتتركز على قمم الجبال العالية.

كتبتها في منتصف ١٩٨٠

12

عذراء

«١١» قمري الحبيب حنظلة..

في زيارات شخنما لي كثيراً ما تسألني عن أخبارك.. هي تعرف أن الحديث عنك يدخل السرور إلى قلبي.. تحادثني حتى تغمر وجهي علامات السعادة.. تنتقل عندئذ للحديث في موضوع آخر.. في زيارتها الأخيرة خفضت من صوتها وهي تحدثني.. قالت كمن يحرر ذاته:

ـ منذ شهور زار شيخكم الصغير دار الشيخ ابن فطمينا.. وقد استطاع إقناعه أن العطوي رجل مارق وزنديق.. وأنهُ يدعو إلى تصفية المشائخ.. ويقول إنهم عاهة في وجه المجتمع وأبرز عناصر تخلفه.. وإن بقاءهم يعني بقاء الظلم والاستغلال والتخلف.

سألتها:

ـ كيف عرفتِ ذلك؟

ـ سمعتهم يتحدثون.. بل إنه قال إن خالك رجلٌ ملحد.. يخلط بين اليهودية والمسيحية والإسلام.. ويؤمن بأن الديانات الثلاث ما هي إلا ديانة واحدة.. ويجاهر بأنه علماني المبدأ.. أقنعه بالتعاون على معاقبته ومكافحة أمثاله.. قال إنه من خطط لاختطاف أبيه.

سألتها وقد أيقنت من صدق ظنوني أن أمي فطمينا قد تعرف الكثير:

ـ وموقف أمي فطمينا من انقلاب ابنها؟

ـ موقف رافض.. فهي لم تكتشف تغيره إلا بعد أن اقتيد خالك إلى دارها في إحدى الليالي.. ليتأكد ابنها من صدق ما يقوله شيخكم الصغير.

عادت بي كلمات شخنما إلى ذلك اليوم الذي رأيت فيه أحد رجال شيخنا في دار أمي فطمينا.. لم تكن تعلم أنني منذ حين أعلم القليل.. استمعت إليها بصمت وحيرة.. ثم سألتها:

ـ وبعد ذلك؟

ـ اقتنع.. وعاهد شيخكم على توحيد الجهود لمواجهة أمثال العطوي.

بدأت بعض الأجوبة تقترب من أسئلة ظلت معلقة من دون أجوبه منذ حين.. كنت في حزن مِما أسمع.. سألتها بلهفة:

ـ أين كنتِ يوم اقتادوه؟

ـ لم نكن في الدار.. أفرغوا الدار من النساء والأطفال.. لكن أحد الحراس حدثني فيما بعد عما دار.. قال إنهم أحضروا فقيهاً لمساءلته بعد أن انتزعوا كتاباً كان بحوزته.. في البداية قاومهم لكن عسكر شيخكم أوسعوه ضرباً.

ـ إلى أين اقتادوه بعد ذلك؟.

ـ لا أحد يعلم.. لكنهم أخذوا برأي ذلك الفقيه.. الذي فضل ضرورة استتابته على أيدي فقهاء المسجد المقدس.

ما قالته شخنما أشعل حرائق قلبي.. تماسكت أمامها.. كان عقلي يتحرك بصعوبة.. لم يأتِ الليل بما يسكن روحي.. أبحث طوال الوقت عمن يواسي همي.. عن معين.

وحيدي..

حين تركني تبعة في يوم الشلال لم يكن يعلم ما حصل بعد هروبه.. كنت قد فهمت من تصرفاته أن هناك خطْباً ما.. جاهد أن يقول لي شيئاً.. استخدم يديه لتوصيل الفكرة.. كان صوت الشلال يطغى على كل صوت.. لم أفهم ما يقوله.. لكني أدركت الموت في عينيه.. خمنت من ارتباك تصرفاته.. محاولاته دفعي لارتداء ملابسي.. محاولته سحبي. حمل متاعه واختفى بين الأحراش عارياً.. كنت أُمنّي نفسي بلحظات غرام وسط الماء.. بركة الشلال تغريني بممارسة الحب.. حين اختفى تيقنت أن خطراً ما قادم.. وأن عليَّ الاختباء.. أعرف جغرافية المكان جيداً.. أعرف

أن هناك فجوة خلف الشلال.. جلت بنظري.. اختفيت خلف الماء عارية.. كوة في بطن الصخر.. بالكاد أخفيت جسدي الصغير.. مثل عرائس الجن أشاهد أشكال الرجال من خلف سيلان الماء. كانت المياه تتساقط لتغرقني مع حركة الرياح.. تغمر جسمي.. أرى منظر البركة من خلف الماء.. صفّ الأشجار الدائري حول بركة الشلال.. لا أرىَ بوضوح.. يجوسون المكان شاهرين أسلحتهم.. أراهم أشكالاً من دون ملامح.. حركاتهم مفزعة.. لم يكن الأمر مزحة.. بحثوا وسط الأحراش والحشائش، تسلقوا الشجر.. أطلقوا الرصاص وسط بركة الماء.. يقترب أحدهم من الشلال يرتد راجعاً.. تذكرت قصة المشركين وغار حراء.. حين صرفتهم خيوط العنكبوت وعش اليمام.. وبيني وبينهم خيوط الشلال.. قطعوا أغصان الأشجار بحثاً.. أطلقوا زخات الرصاص باتجاه السماء.. يقف أحدهم يطيل النظر في المكان يقترب أكثر من مكاني.. تبولت دون إرادتي.. ثم فجأة رحلوا. لم يعَد غير صوت مياه الشلال.. مكثت في مكاني أنتظر عودتهم.. ظللت متخفية.. أشرف النهار على الزوال وأنا أقبع خلف الماء.. شجعت نفسي على الخروج.. أمسى المكان موحشاً.. الشجر صامت.. صوت الشلال.. صدى الطلقات.. ملامح تبعة عارياً.. حركة فروع الريح.. جذوعها.. وجه الماء.. طيران العصافير.. السماء.. أشعة الشمس تعكس تضاعف ظلال الأشياء.. رياح تزيد برودة ملابسي المبللة. اعتليت ربوة السفح.. دنوت من وادينا.. لا أحد.. كأن ما كان مجرد كابوس.. سرت أسابق بقايا خيوط الشمس.. كيف سأبرر لأمي تأخري.. بقايا البلل.

خلف القرية لاحظت على نوافذ الحصن عدداً من النساء يرقبن سيري. في الطريق عيون تتأملني. أمام بوابة الحصن صِبية

صامتون.. تتابع عيونهم خطواتي. أسئلة عشرات العيون تحوم حولي.. كان همي أن أصل حضن أمي.. لم ينبس أحدهم بأي حرف.. خطوت ممر الزرائب.. استدرت لصعود السلم الحجري إلى بيتنا.. عشرات العيون على سلم الدرج الحجري.

ـ أين كنتِ؟

بوجه مكفهر ونظرات غاضبة أطلق فقيه القرية سؤاله.. عدد من الرجال يقفون حائلاً دون صعودي.. دارت في مخيلتي عدة أجوبة.. شعور مبهم.. فضلت الصمت.. تذكرت قول جدك ذات يوم: «الفرد حر حتى إذا نطق.. حينها يمسي أسير كلماته».. صرخ في وجهي:

ـ هل أصابك الخرس؟

أدرت وجهي أتأمل تلك الملامح.. لا يزال هدير الشلال يدوّي.. عري تبعة.. صوت الرصاص.. أبحث عن وجه أمي.. زوجة جدك بين الملامح المحيطة.

أحدهم اقترب من وجهي.. صرخ بصوت كمن يفشي سراً.

ـ كل بنات القرية تعرف أين كنت!!

ـ ولماذا تسألوني ما دمتم تعرفون؟

ـ إذا دليتنا على مكانه يمكنك تجنب العقاب!

ـ لا أعرف عمّن تتحدثون!!

ـ عن تبعة.. حبيب القلب!!

ـ ...!!

ـ إذاً لا فائدة ترجى منها.

نطق الفقيه كلمته الأخيرة وصمت قليلاً.. ظننت أنهم سيتركونني ويذهبون.. لكنه أمرهم غاضباً:

ـ هيا اسحبوها واتبعوني.

أحدهم أطبق قبضته بمعصمي.. حاولت مقاومته.. ارتفع عويل من حولي.. استطعت أن أميز صراخ أمي بين الحشود من دون أن أرى وجهها. تصاعد غبار ممر الزرائب تحت أقدامنا.. تراكم الخوف بداخلي.. أصوات البكاء شبيهة بصلاة الموتى.. كنت قد تركت قدمي تخط تراب الطريق.

سحبوني من بوابة الحصن.. كانت الشمس قد رحلت عن.. اصطبغ الأفق بلون الزعفران.. عيون تشيعني بإشفاق.. أصوات تختلط ببكاء متقطع.. قطعوا بي المسافة إلى دار شيخنا الكبير.. أناس تتجمهر بالخارج.. بهو بإنارة باهتة.. ارتفع صوت الفقيه آمراً:

ـ هيا اصعدوا بها بسرعة.. الشيخ ينتظرنا.

في ديوان طويل تكومت في زاوية قريبة من الباب.. بالقرب من الأحذية.. ينعكس ضوء السقف الباهت على وجوه الواقفين.. أعينهم مفزعة بعد تناول أغصان القات.. ينظرون في جمود.. صورة شيخنا الكبير معتمراً شالاً ذا هدب تتدلى من الجانبين.. ممسكاً بقبضته اليمنى بندقه «الجرمل زاكي».. مكشراً عن ابتسامة شاربيه. عادة ما تخادعنا الصور لتظهر ملامح الوداعة وتفاصيل

الجمال. صور أخرى على الجدران الجيرية الداكنة.. أبسطة مهترئة.. مساند جدارية.. حين دخل شيخنا صمت الجميع.. أخذ مكانه في الزاوية البعيدة.. احتشد الجميع حوله.. تركوني بعيداً.. كان مقطب الجبين.. وجنتاه متكورتان يواصل حشوهما بأغصان القات.. حدثوه عني.. صامتاً رفع وجهه ناظراً إلي.

تمعن.. رفع كفه دون أن ينطق مشيراً إلى من حوله أن يخرجوني.. كنت نكرة بين مجموعة من الرجال.. لا أحد منهم يشبه تبعة.. يسترقون النظر.. يخفون ابتساماتهم.. لا زلت أرتجف من برد ملابسي المبللة.

أقفلوا علي غرفة متربة.. جافاني النوم أحاول تصور شكل الغد.. نوع العقاب.. شكل الشخص الذي سينفذه.. أحلم بتبعة يفاجئ الجميع وقد حضر لينقذني.. يكسر الأبواب.. يحملني ليفر بعيداً.. وتارة أهوّن على نفسي.. أتخيل أحدهم فاتحاً الباب ليسهب في الاعتذار.. أسأل نفسي: هل سأسجن في هذه الغرفة إلى الأبد.. أم أنهم سينقلونني إلى مكان بعيد؟ أفكاري ظلت تحملني عالياً ثم تتركني أهوي.. ملتحفة نصف ذلك الفرش الترب.. لا أدري متى أنقذني سلطان النوم من ذلك العذاب؟ ولا أعلم كم من الوقت مضى؟ لكنه صوت خشن أيقظني.

ـ هيا انهضي.. لقد تكرم شيخنا بإعادتك إلى أمك!

ـ أمي!!

غاصت عيناي بالدموع.. حاولت النهوض.. أخفيت عجزي.. تصنعت الانشغال بنفض الأتربة من على ثوبي ووجهي.. كنت

عاجزة أحاول النهوض.. زجرني صارخاً:

ـ إن لم تنهضي سأغلق عليك الباب وأخبرهم أنك ترفضين.

أمنّي نفسي بأحضان أمي.. وأني سأرى تلك الجبال.. سأحكي لتبعة عما عشته من رعب.. وأضحك عالياً.. ولن أظهر ما أنا فيه من مهانة وعجز.

أيقظني صوت ذلك الرجل:

ـ إذاً أنت لا تنهضين!

ألم شديد ينخر عظامي.. أشجع قلبي.. حاولت صامتة.. لاحظ هو ما أنا فيه.. كقطة هشمت قوائمها الخلفية أزحف.. نظراتي كسيرة.. جامدة.. أخفي ما بداخلي.. مد يده لمساعدتي.. رفضتها في حُمق معتمدة على ذراعي.. تخطيت باب الغرفة.. هبطت السلم المعتم درجة درجة.. واصلت حتى عتبة الباب الخارجي.. شعرت بدفء ضوء الشمس يتسلل إلى داخلي.. قال لي:

ـ انتظري هنا حتى نخبر أمك أن تأتي لحملك.

ـ لا داعي أعرف طريقي.

لم تكن المسافة بعيدة إلى باب الحصن.. لكنني حين أخذت أزحف أدركت كم هي بعيدة بوابة الحصن.. كنت أبكي وأنا أخط بساقيّ على التراب خطوطاً تشبه خطوط المحراث.. أكثر ما شغلني سبب تركهم لي دون عقاب.. إذاً لماذا أحضروني إليهم؟ دوار شديد وقد تجمع من حولي عدد من الصبية.. غابت عيناي عن النظر.

لا أدري كيف نُقلت إلى بيتنا في الطابق الرابع من حصن عرفطة؟ فتحت عينيّ.. كنت وسط أغطيتي.. وجه أمي يعاتبني بدموع ساخنة تذرفها وهي تقبلني.. عدة وجوه تراقبنا.. عيون زوجة جدك العذبة تتابع كل شيء.. حاولت الجلوس.. أحسست بألم يكبل عظامي.. يجزئ أوصالي.. هرعت أمي لمساعدتي.. استويت على فراشي.. أثثت زوجة جدك خلف ظهري بالوسائد.

أجهشت أمي بالبكاء من دون مقدمات.. ما لبثت زوجة جدك أن جلست قبالتها تواسيها.. يهتزان بشكل متواز.. تتناجيان:

يا بخت من دون مولى.. أوَّاه أوَّاه.

من يشتري من يرضى.. أوَّاه أوَّاه.

بنيتي والمسرى.. أوَّاه أوَّاه.

من دبرش من سوى.. أوَّاه أوَّاه.

يا ربنا كيف ترضى.. أوَّاه أوَّاه.

يفرح رضاك أو نشقى.. أوَّاه أوَّاه.

السم أطيب مرعى.. أوَّاه أوَّاه.

والقبر بيت المأوى.. أوَّاه أوَّاه.

وجدت دموعي تنساب في صمت مع وقع كلماتهما.. اجتاحتني مشاعر ضبابية.. رغبة بالبكاء تسيطر على عيني.. فجأة توقفتا عن طقس النحيب.. وكأن لم يكن شيء.. كنت غارقة في حزن متعب ترغبه نفسي..

في صباح اليوم الثاني امتلأ بيتنا بالنساء. أذكر ذلك النهار جيداً.. نافذة الغرفة تطل على جبال تبعة.. الوادي.. روائح البخور.. دخان يحجب لون الجدار.. حركة النسوة كما لو كنا في حفل عرس.. تغمرني سعادة لا يشعر بها من حولي.. هذه أنا في بيتنا.. عدت بناظري إلى وجه أمي.. ابتسمت.. فتحت فمي بالكلام.. أشارت علي بالصمت ويدها تقترب من فمي بلقمة طعام.. نساء من مختلف الأعمار.. قالت أمي تسأل زوجة جدك:

ـ والآن ما العمل؟.

ـ أغلقي النوافذ!

أشعلت أمي فتيل السراج المعلق في سماء الغرفة.. أدخلت عدداً من النساء.. أقفلت باب الغرفة.. بينما البقية ينتظرن في الخارج.. زادت أدخنة البخور.. الكل مشغول بأدعية يرددن بصوت واحد ما ترده إحداهن.. كنت قلقة لما يدور.. تحاملت على آلامي.. نهضت من فراشي متحفزة.. تقدمت زوجة جدك مبتسمة:

ـ لا تقلقي.. لقد دعونا نساء القرية كي يشهدن على طهارتك!!

ـ أي طهارة؟

ـ اهدئي.. وستعرفين!

ـ لن أهدأ.

مذعورة أرفض فعلاً لم أتبينه بعد.. استبدلت ملامحها بنظرات جامدة.. جثمت إحدى النسوة على صدري دون سابق إنذار.. ساعدتها الأخريات بشلّ حركتي وتثبيتي على الأرض.. تزاحمت

الظنون برأسي.. ثبتت أطرافي ست نساء.. حاولت المقاومة.. أن أعرف ما ينوين فعله بي.. عيناي في اتساعهما.. حنجرتي تصرخ.. شُلَّت حركتي تماماً.

باعدن بين ساقي.. تقدمت امرأة مسنة من الاتجاه الآخر.. تُبرعم نظراتها مبتسمة بين فخذي.. تمس بأصابعها المعروقة لهبة سراج.. تقف أمي إلى جوارها حاملة طبق خوص عليه عدة أوان فخارية سوداء.. ركعت المسنة بين فخذي:

ـ لا تخافي يا بنيتي.. افتحي!!

ـ لن أفتح!

أشارت عليهن بنزع ملابسي.. بادرن بنزع سروالي. شعرت بالمهانة.. كان جسمي ينتفض.. يتفصد بغزارة.. باعدن بين ساقي أكثر.. رفعنهما في الهواء.. كل من في الغرفة يتمعن شرخي.. تركن فمي يصرخ وقد انهمكن بفحصي.. برودة أصابعها.. هواء بارد.. خمنته زفير المسنة.. سائل دافئ دهنت به فتحة الـ (...)!! ثم غمست بيضة في وعاء السمن الدافئ.. قرأت سورة الفاتحة وآيات من سورة العذراء بصوت عالٍ.. وهن يرددن بعدها.. يرتفع صوتها أكثر.. يرفعن أصواتهن.. رددت بعد ذلك لحناً حزيناً لم أسمعه من ذي قبل.. شعرت بألم جارح.. دوت مني صرخة ألم.. شعرت بلسعة حرارة البيضة في محاولة لإدخالها في شرخي! تضغط بمرونة ورفق.. ألم يكتم أنفاسي.. برد محموم يسافر تحت جلدي.. ضغطها يتواصل.. تعالت أصوات النساء يرددن ما تنشد به المرأة المسنة.. يرقبن ما تقوم به.. أولجت البيضة ثم نزعتها.. أنشدت لهن وهي تنهض:

ـ اللهم صل وسلم على باهي النور.. زغردن يا بنات.. سمبرية لا تزال عذراء!!.

كانت كلماتها شرارة أشعلت فتيل الزغاريد.. أناشيد من حناجرهن لا تبلى.. جثمت أمي تحتضنني.. تقبل وجهي بدموع ابتسامتها.. وقفت ترجو الحاضرات:

ـ افتحن النوافذ والباب يا بنات.. جميعكن شاهدات على عفة ابنتي.. والله إني كنت قد رتبت لوحيدتي ميتة تليق بما يهمسه الناس في تفريطها بعفتها.. كلكن شاهدات على طهرها.. لقد ثبت أنها لم تفرط بشيء.. وأن كل ما قيل كذب وافتراء.

أخذت أمي توزع حبوب القمح المحمص على النساء.. تساعدها زوجة جدك على صب القهوة وإطلاق الزغاريد بين فينة وأخرى.. وضعن مبخرة طينية يتضوع جمرها تحت أغطيتي.. أحتمي بصدفة رعبي.. نذرت أن أقضي ديناً لتلك المسنة.. أيقنت أنها عقدت صفقة ما.. وأن ما كنت أمارسه من حب مع تبعة ليس تخيلات.. اكتشفت تلك اللحظات أن جسدي لا يخصني.. وأنهم يرون فيه أداة جريمة.. ذلك العضو يهمهم أكثر من أي شيء آخر.. أحمل بين فخذي أمانة لا تخصني.

جاءت من تخبرنا أنهم تركوني دون عقاب كي أكون طعماً لاصطياد تبعة.. وأنني مراقبة.. مرت ليال طوال وأنا لا أبرح البيت.. كنت أشعر بأني سجينة.. أصوات نسمعها طوال الليل.. زوجة جدك تقول لي بأنهم يراقبوننا.. صبايا القرية يأتين بشبق يسألنني عن علاقتي بتبعة.

زادت وحشة القرية.. رائحة الخوف في كل مكان.. كنا نجتمع وزوجة جدك مساء كل يوم.. نتبادل الآراء.. نقتل الخوف في عيوننا.. ازدادت السرقات في الحصن.. أُحرقت بعض مخازن الغلال. تكررت حوادث الاعتداء.. كانت أماسينا تتخللها أحاديث الخوف من المجهول.

في تلك الليلة حين اقترحت زوجة جدك على أمي ضرورة السفر إلى صنعاء.. قالت هامسة:

ـ كثيراً ما أفكر في السفر إلى صنعاء!!

ـ ولماذا صنعاء؟

ـ أخاف أن يعتدي علينا أحدهم ليلاً.. ثم إن العطوي في سجنه بحاجتنا!

ـ وما عسانا أن نصنع له بدخولنا صنعاء؟

ـ نبتعد عن المشاكل حتى تهدأ القرية.. ونكون إلى جوار العطوي لنرعاه!

ـ كيف نرعاه وهو في السجن؟

ـ لأنه في السجن يحتاج إلى رعاية.

ـ الفكرة طيبة.. لكنني لا أريد أن أترك القرية!

ـ أيام ونعود!

ـ تتحدثين وكأننا سنسافر غداً!

ـ فكري في الأمر!

كنت أستمع إليهما توقدان جمر رغبة الحديث.. كان من الصعب أن أشارك في حضور أمي.. فأنا في موقع الشك والريبة لديها.

مرت الأيام وأمي تفكر في الأمر.. وزوجة جدك تلح يوماً بعد يوم حتى وافقت.. حينها بدأنا نعد العدة للسفر.

حددت أمي يوم السفر.. كانت أكثر حماسة.. سألت زوجة جدك:

ـ لمَ تبخلين علي بالحديث عن سر هذا التحول؟

ـ لا أبخل عليك.. لكنها طبيعة أمك التي تشك في كل ما حولها!

ـ سنغادر معاً صباح الغد!!

ـ ستغادرين وأمك فقط!

ـ وبعد ذلك؟

ـ سألحق بكن!

ـ وأمي هل ستوافق على السفر من دونك؟

ـ لا عليك فقد اتفقت معها.. منذ يوم الغد ستبدئين حياة جديدة!

ـ حياة جديدة!

ـ نعم حياة جديدة.. حين تصلين صنعاء ستتعرفين إلى فتاة اسمها خمينة.

ـ من أين لي بمعرفتها؟

ـ هي من ستستقبلك في بيتهم (السمسرة).. ثقي بخمينة!

ـ !!

ـ عامليها كصديقة!

ـ هل هي لطيفة؟

ـ هي لطيفة.. لكن هذا ليس الموضوع!

ـ وما هو الموضوع؟!

ـ هناك ستبدئين حياة جديدة بمساعدتها؟

ـ وأمي!!

ـ لا.. يجب أن لا تعرف شيئاً.. أنت المسؤولة عن أمك منذ صباح غد!!

ـ أنا.. لا أفهم شيئاً!

ـ ستفهمين كل شيء من خمينة.. لكن عليك بكتم بعض الأمور على أمك!

13

فيدل

«١٢» حنظلي الجميل

انشغل الجميع عن ملاحقة تبعة بالبحث عمن يكون مختطف شيخنا الكبير.. عن مكان إخفائه. كانت الشكوك تدور حول تآمر مرافقيه.. وأنهم المسؤولون عن تلك الجريمة. أودعا سجن الحكومة.. رأي آخر أن وجهاء حصن عرفطة من تآمروا عليه.. وقد تم اقتيادهم للتحقيق معهم.. وأن ذلك كان انتقاماً لأعماله تجاه الرعية.. ورأي ثالث أشيع بين السكان.. مفاده أن الحكومة هي من نفذت ذلك لأسباب يجهلها الجميع.. وقد أكد المرافقون والسواق أن الخاطفين كانوا بالزي العسكري.. وهذا ما يحلو للسكان تداوله كأمنية.. أصابع أخرى تشير إلى أن تبعة وجدّك القابع في السجن هما من خططا لذلك العمل.. وأنهما أرسلا رفاقهما المخربين لتنفيذ ذلك.

منذ ذلك اليوم ونساء الحصن ودار الشيخ وبقية المنازل ينظمن نوبات نحيب متواصل. توزع الرجال في كل اتجاه للبحث عنه..

وجنود الدولة موزعون على الرعية.. يفرضون الإتاوات وتوفير طعامهم و(قاتهم) يومياً وفق جدول متفق عليه.

التف السكان إلى ابن شيخنا.. يصفونه بالشيخ الصغير. الدولة اعتبرت ما حدث تحدياً لها.. عززت دعمها لشيخنا الجديد.. جندت عدداً من سكان حصن عرفطة لحمايته من أي تهديد محتمل.. ألبسوهم الملابس العسكرية.. أوكلوا إلى مجموعة أخرى رصد التحركات المشبوهة والإبلاغ أولاً بأول عنها.. ومراقبة الطرق المحيطة بالقرية ليلاً ونهاراً.

ازدادت ضراوة المداهمات والاعتقالات من قبل عسكر وأنصار السلطة لعناصر الجبهة الوطنية في عدة قرى.. تارة هنا وأخرى هناك.. ارتفعت وتيرة المجابهات.. انتشرت أخبار عن اكتشاف جثث متحللة موزعة على جبال وآبار مهجورة.. جثث أخرى مقطّعة وأخرى مسلوخة البشرة.

رسخ شيخنا الصغير نفوذه بتعاون أنصاره.. امتد إلى عدَّة قرى مجاورة.. لم يتجاوز العشرين من عمره.. طلبت منه السلطات الانتقال للسكن في صنعاء خوفاً على حياته.. مخلفاً من يفرض هيبته على السكان من أنصاره.

ترسخت قناعة لدى معظم سكان الحصن بأن تبعة وراء الخراب المستشري للقرية.

وحيدي..

صَلّت أمي صلاة الفجر.. خرجنا ببعض متاعنا ننتظر السيارة التي

ستقلنا إلى صنعاء.. كان هذا في أحد أيام شهر كانون الثاني/يناير ١٩٨٠.. لأول مرّة أغطي وجهي.. هكذا أمرتني أمي لأكون كنساء المدينة. زوجة جدك نبهتني إلى أني سأذهب إلى حياة جديدة.. حياة لا تشبه حياتنا الريفية.. وعليَّ اختيار أرقّ الكلمات حين أتحدث.. وأن لا أرفع صوتي.. علمتني حسن الإصغاء.. أن لا أقاطع محدثي.. علمتني متى أبتسم، ومتى أظهر استيائي.. كيف أضحك هامسة.. وكيف هي ابتسامة صبايا صنعاء.. دربتني على طريقة السير.. فلا يكون هرولة ولا هو بالبطيء.. قالت لي: «صنعاء سوق كبير.. وعلى المرأة أن لا تذهب إلى السوق وحيدة.. وأن لا ترفع ثوبها وهي تسير.. أو تقهقه بصوت عال». علمتني كيفية تناول الطعام.. وأسلوب إلقاء التحية والرد عليها. كنت أصغي لها بخوف ورهبة ونحن ننتظر قدوم السيارة التي سترحل بنا. السائق يعرفه سكان قريتنا وهو ويعرفهم.. هي السيارة الوحيدة التي تقل السكان صباحاً إلى صنعاء.. عبر طريق ترابية هي المنفذ الوحيد إلى خارج القرية. ركبنا السيارة (رانجروفر) في زاوية حوض مكشوف.. إلى جوارنا ماشيتان.. صعدت بنا السيارة على طريق وعرة عبر المرتفعات الشرقية.. معاون السائق يجاهد بوضع الأحجار خلف دواليب السيارة حين تعجز عن الصعود.. يهبط الركاب لدفعها.. كنت وأمي وثلاث نساء ورجلاً مسناً ندعو الله.

أنظر من خلف خماري.. كل ما حولي اصطبغ بلون قاتم حزين.. اللسان الصخري يمتد في الفضاء.. حصن عرفطة يبتعد رويداً.. يتضاءل حجمه.. تهتز السيارة فتزداد أمي تشبثاً بي.. تتبعثر مشاعري.. أكتم صوت حزني.. سالت الدموع تحت خماري.. لم أجرؤ على رفع يدي لمسحها حتى لا يعرف من حولي.. كنت

ونحن نبتعد كمن تنتزع روحها.. الجبال تنظر إلي.. ألم كثيف غطى كل تفكيري.. أسأل نفسي.. أي مصير نحن قادمات عليه؟ نرحل إلى المجهول!

وصلنا إلى منعطف الطريق الذي تم اختطاف شيخنا الكبير فيه.. عرفت ذلك من همس الركاب لبعضهم.. وصلنا قمة الجبل لننحدر في الاتجاه الآخر. اختفت قريتنا.. فراغ مخيف.. إحساس رمادي.. هبطت بنا السيارة في منحدر قصير إلى الطريق العامة.. طريق معبدة.. عدد من العربات تسير عليها. اليوم أرى بلاداً جديدة.. قرى في قمم الجبال العالية.. عربات النقل تسير بسرعة.. مساحات خضراء.. المسافة إلى صنعاء تزينها جبال ملونة.. وديان خضراء.. وسريعاً ما دنونا من المدينة.. لأراها بشكل آخر.. أجمل مما سمعت من وصف.. منارات سامقة.. دور متراصة.. شوارع مزدحمة.. مركبات وأناس يسيرون في كل اتجاه.. نساء يلبسن السواد.. حوانيت كثيرة.. لم أر وجه امرأة.. عربات تجرها الحمير وأخرى الجمال.. مخلفات تغطي الشوارع.. مبانٍ طينية ملونة.

اتجهت بنا السيارة وسط روائح لم آلفها.. إلى (سمسرة) وسط المدينة العتيقة.. سكان حصن عرفطة يرتادونها حين يدخلون صنعاء.. كنت أنا قد سمعت عنها كثيراً من أفواه سكان قريتنا ممن يترددون على صنعاء.. مبنى من الطين.. نوافذ الدّور العلوية مؤطرة بالجص الأبيض.. بابه المقوس بالحجر الأسود.. فسحة داخلية.. وأماكن لونها دخان الزمن باللون الأسود اللامع.. مساحات متصلة ببعضها.. الجزء الداخلي زريبة للبهائم.. وجزء على شكل دكة مرتفعة ينام عليها الفقراء من النزلاء.. عبرنا الساحة السفلية.. روائح الدخان المنبعث من أكثر من مكان..

البعض يعد طعامه.. وآخر قهوته.. والكثرة يمضغون القات. عبرنا الدور الأرضي.. صعدنا الى العلوي.. بهو مفتوح على السماء.. عدة أبواب.. أدخلتنا شابة باسمة إحدى الغرف.. همست في أذني: «أنت سمبرية؟».. لم تنتظر إجابتي.. تابعت قائلة همساً: «وأنا خمينة..».. تأملتها مبتسمةً.. كانت في مثل عمري أو أصغر قليلاً.. ملامح وجهها تفيض بجمال لا يتناسب مع قصر قامتها.. استعذْت صوت زوجة جدك وهي تحدثني عن خمينة.. كم كانت سعادتي وأنا أجد من يهتم بي.. تمزج كلماتها بابتسامة عطوف.. لم تتركني أتعرف إلى أثاث الغرفة.. قالت في ود: أي شيء ينقصك أخبريني.

فراش غامق الألوان.. نافذتان على شارع خلفي.. عرفتني إلى موقع دورة مياه مشتركة لغرف الدور العلوي.. همست مودعة.. سآتيك لاحقاً.

جلبت أمي من القرية كمية من الكعك والدقيق وإناء سمن.. نطهو طعامنا في زاوية غرفتنا.. نفحت أمي أم خمينة كمية من الدقيق.. لم نكن نستطيع النزول في أي مكان آخر.. كانت (السماسر) نزلاً يحل فيها الغرباء والقادمون من الريف.. أحاطتنا أم خمينة باهتمام.. اعتبرنا تلك المعاملة ديناً وعلينا إعادته بشكل أو بآخر.

أمي لاحظت تردد خمينة علينا.. حديثها الهامس.. سألتني.

ـ ماذا تريد منك تلك البنت؟

ـ بل ماذا نريد منها؟

ـ لا أفهم!

ـ نحن لا نعرف أحداً هنا.. ونحن بحاجة إلى من يساعدنا في الوصول إلى سجن خالي.. فمن منا بحاجة إلى الآخر؟

ـ معك حق.. لكنها لا تتحدث معك إلا همساً!

ـ أنت أعرف مني بينات المدينة.

أستعيد حديث زوجة جدك حول خمينة.. اكتشفت أنها أكثر من صديقة.. أخبرتني خمينة: «أن شخصاً مكلفاً بترتيب بيت خاص بنا.. كما أنه المعني بتوفير ما نحتاج له.. وأن علي أن أذهب معها لنلتقي به..». كنت في حيرة من أمري.. أسأل نفسي.. من وراء كل ذلك.. ولِمَ تركتني زوجة جدك أواجه حيرتي؟.. أمي لا تعلم بما يدور.. أنفذ ما أوصتني به زوجة جدك.. حفاظي على السرية.. كما قالت لي: «أمك ستتقبل الوضع بعد مقاومة.. ستواجهك بالرفض.. عليك بالصبر.. لا تضعفي فأنت قادمة على حياة جديدة.. تحتاج تلك الحياة إلى السرية التامة.. وأمك بطبيعتها فضاحة وغير كاتمة للسر».

في الصباح الباكر خرجت وخمينة.. عبر أزقة المدينة العتيقة.. متاهة لا تنتهي.. دور عالية.. عقود الحجر قناطر معلقة فوق رؤوسنا.. قباب مساجدها.. مناراتها تطعن كبد السماء.. سحائب بخور من أبوابها.. كل شيء يتثاءب.. خمينة تستعيض عن قصر خطواتها بسرعتها.. سلسلة من العقود الحجرية المتصلة بين الدور العالية.. أشارت خمينة:

ـ ها قد وصلنا المسجد المقدس.

توقفنا جوار بابه.. حجر أسود معقوف في أعلى بابه.. عميان ومتسولون أسفل الباب.. تلصصت من بوابته.. جدار خارجي أسود من الحجر القديم.. سرت خطوات.. أطللت من بابه الكبير.. أعمدة في صفوف طويلة.. هدوء وسكينة.. رجال يلبسون البياض.. أحزمة ذهبية مزخرفة على الجدران.. مخرمات خشبية تتدلى من السقوف.. أبسطة فوق بعضها، البعض يقف ثم يركع ليسجد.. ألوان متعامدة تارةً متداخلة بشكل منتظم.. وأخرى بشكل مبعثر.. ولجت مذهولةً لِمَا أراه.. صدّني رجل أبيض الملابس معمم الرأس.. له ملامح مشوشة.. يسير بعكاز معدني.. هي المرة الأولى التي أشاهد فيها مسجداً من الداخل.. قالت خمينة:

ـ سننتظر (الرفيق فيدل) هنا.

ـ فيدل!

ـ الأفضل أن يسبق اسمه بصفة الرفيق.

ـ الرفيق فيدل.

ـ أحسنت.. ومن المستحسن ألا تنطقي ذلك أمام غيرنا.

همست وهي تشير لي إلى شاب قادم:

ـ ها هو قادم.

صافحها مبتسماً.. كان الشارع شبه خالٍ.. قالت له وهي تشير إلي:

ـ وهذه سمبرية التي التقينا من أجلها.

نظر إليّ هازاً رأسه.. ثم أشار:

ـ هيا اتبعاني.

سرنا خلفه عبر محيط المسجد المقدس.. شاب جامد الملامح.. يعاملنا بآلية حادة.. اتجه بنا جنوباً هذه المرة.. أزقة جديدة تفضي إلى ساحة كبيرة اصطفّت المباني المزخرفة حولها.. عبرنا أطراف سوق العطارين.. كنت حذرة وقد تغلبت على خوفي.. أستحضر حديث زوجة جدك.. بالأخص قولها: «لنا في صنعاء أصدقاء.. «و» تعاملي مع خمينة بثقة». أرى زوجة جدك كمن ترافقني بنصائحها أينما أسير.. كأنها معي تتابع تنفيذ ما أوصتني به.. ترمقني.. تلاحقني.. تتفحص خطواتي.. تذكرت وصاياها: «سيري بأنوثة لا مهرولة ولا بطيئة».. أراقب خطوات خمينة.

وقف بنا فيدل أمام منزل من حجر الصوان غير المشذب.. باب خشبي هرم.. دخلنا إلى حجرة مستطيلة معتمة.. غرفة بها القليل من الأثاث ذي الألوان البنية.. وأخرى نظيفة ومرتبة.. وثالثة مستطيلة.. مطبخ معظم أوانيه فخارية رصت على تنور طيني. صعدنا على درج حجري.. عند اللفة الثانية دورة المياه.. بقية الدرج تفضي إلى الدور العلوي.. به غرفة علوية صغيرة.. لها نافذة تطل على الشارع الأمامي للبيت.. سرير صغير وفراش جديد.

قبل أن يستأذن بالانصراف قال:

ـ هذا بيتكم يمكنك تسلّم مفاتيحه منذ الآن.. سأحضر صباح بعد غد لمعرفة ما تريدون.

نظرت إلى عيني خمينة لا أدري ما أقول.. وكأنها عرفت ما أنا فيه من حيرة.

ـ ستكونين وأمك في رعاية دائمة.

ـ من يوفر لنا كل هذا؟

ـ ستعرفين لاحقاً!

ـ وأمي!!

ـ هذا شأنك.. لن تنقصك الحيلة بإقناعها.

عدت إلى أمي سعيدة.. أخبرتها مبتسمة وأنا ألوح بمفاتيح البيت:

انظري ماذا لدينا؟

وقفت تنظر إلي مندهشة وقالت في بلاهة:

ـ مفاتيح!

ـ احزري مفاتيح ماذا؟

ـ لا أعرف.. أخبريني أنتِ!

ـ هذه يا أمي مفاتيح بيتنا الجديد!

ـ بيتكم.. أي بيت؟

ـ سأصطحبك لتتعرفي عليه صباح الغد!

ـ هل جننت.. أخبريني عما تهذين!

ـ لقد تسلّمت للتو مفاتيح لبيت سنسكنه في صنعاء بدلاً من السمسرة!.

ـ ومن أعطاك هذه المفاتيح؟

ـ هذا سؤال.. لا يمكن الإجابة عليه إلا بعد أن تزوري البيت غداً

وتتعرفي عليه!.

وقفت تنظر إلي وكأني فتاة فقدت عقلها.. شعرت بالارتباك.. تمنيت لو أن زوجة جدك معي لترى ما أنا فيه.. ابتسمت في وجه أمي في حيرة.

في الصباح لم ترفض اصطحابي إياها إليه.. كنا بمعية خمينة التي لم تتفوه طوال الطريق بأي كلمة.. وحين وصلنا قالت لأمي:

ـ هذا بيتكم.. يمكنك أن تدخليه.

لم تنطق أمي بأي كلمة.. أدخلتنا وانسحبت منصرفة.. وما إن أغلقت الباب حتى انفجرت أمي باكية.. احتضنتها.. استجمعت قواها لتدفعني.. كان نشيجها محزناً كطفلة ضائعة.. قليلاً ما رأيت أمي تنتحب.. لا أدري كيف أتصرف إزاء ما أنا فيه.. غضبها عدائي.. هي أمي التي أعرفها.. كثيرة الكلام قليلة التذمر.. حين تخيفني ألجأ إلى زوجة جدك.. من يأتيني بها الآن؟ من يساعدني على تهدئتها وكسب ثقتها..؟ أنا ابنتها التي لم أنفكّ عنها منذ ولدت.. صرخت في وجهي:

ـ من أين لك بهذا البيت؟

ـ ...!

لم أتفوه بكلمة.. كنت أبحلق في عينيها صامتة.

ـ من وراء ذلك.. ولمَ؟ لا يمكن أن تكون خمينة إلا وسيطاً..؟ هل فكرت بما وراء ذلك..؟ أنت لا تزالين صغيرة.. لا يوجد من يقدم لك شيئاً كهذا من دون مقابل.. إلا إذا كان لديك ما

تقدمينه له!! وأنت ماذا تمتلكين؟

أسئلتها أعادتني إلى نصائح زوجة جدك.. احترت بماذا أجيبها؟ أنا أعرف أمي.. لا يمكن أن يمر عليها الأمر بسهولة.. حاولت ترتيب أفكاري.. أن أبحث عمّا يقنعها.. كنت أفكر.. فأنا لا أملك كل الأجوبة.. نهضت وقد اربدّت ملامح وجهها رافعة كفيها في الهواء.. أدخلت أصابعها في ثنايا شعر رأسي شدتني بقوة أرضاً.. جثمت على صدري.

ـ ما قصة هذا البيت..؟ ابتعدي عن تلك القزمة.. قلبي لم يطمئن لوشوشاتها.. علينا العودة سريعاً إلى قريتنا حصن عرفطة.

تصنعت الأنين.. لم أقاومها.. تشبثت بأضلاعي.. أئن من وجع محتمل.. أبكي بقوة.

ـ سأقتلك إن لم تقولي كل شيء!.

تهوي بكفيها على وجهي باكية بشكل هستيري.. تركتها تفعل بي ما تريد حتى تعبت.. كنت أخشى من أي جملة قد أنطقها فتثيرها أكثر.

مرت أيام من الصمت المتواصل.. رفضت الانتقال إلى البيت.. أوحيت لها أن وراء وجود ذلك البيت رغبة جدك بأن نظل قربه.. وافقت على مضض.. أخيراً انتقلنا إليه.. هددتني إن كان ما أقوله غير صحيح فإن عقابي بعد ذلك عسير.. قالت مهددة:

ـ سأتأكد من ذلك عند زيارتنا له!!.

كانت زيارتنا لجدك أسبوعية.. زارته أمي مرات.. أكد لها صدق كلامي.. أنقذني.

كان صيف عام ١٩٨٠ قد نشر مناخه الماطر.. أمي طيلة الأشهر الماضية ترقبني بحذر.. تحاول تجميع ملاحظاتها.. تستنتج.. تتابع تصرفاتي.. زيارات خمينة واهتمامها بنا.. الرفيق فيدل وزياراته المنتظمة.. لم تصل إلى نتيجة.. تراكمت بداخلها الشكوك.. كُنت حذرة.. رسائل تبعة تصلني بانتظام عبر خمينة.. يرسل إليَّ الكثير من الكتب بين فينة وأخرى.. سريعاً ما ألتهمها.. تستهويني قراءة الكتب التاريخية والسياسية.. لم تكن حياتي إلا صراعاً مع أمي وقراءة كل ما يصلني من تبعة لأفهم ما حولي.

شددت أمي رقابتها عليّ.. حرصت على ألّا أغيب عن ناظريها.. إذا خرجت من البيت من دون علمها أو تأخرت قليلاً تقيم الدنيا ولا تقعدها.. خططت أن تكون علاقاتي خارج البيت محدودة.. لم يكن لي من صديقة غير خمينة.. أجاهد أن أزيل شكوك أمي.. ما تفتأ تراقبني.. كانت تؤمن أنها ستفاجئني يوماً متلبسة لتثبت صحة ظنونها.

14

تبعة

بعد فترة من السكن في صنعاء زارني تبعة. عرفت منه أن البيت الذي نعيش فيه هو صاحب الفكرة بتوفيره لنا.. وأن الرفاق في قيادة الجبهة من وفروا لنا كل ذلك.. كنت في السابق أتساءل وأبحث عمن وراء ذلك.. وكانت أسئلة أمي تثير فيَّ البحث عن أجوبة.

في ليلة زيارته جاءتني خمينة تدعوني في استعجال للخروج معها.. حينها كانت الشمس تدنو من قطافها.. أخذتني جانباً حتى لا تسمعها أمي.. همست:

ـ لدي خبر يسعدك!

تحدثني في اضطراب واضح.. قلت لها متعجبة:

ـ أفصحي!

ـ ستخرجين معي!!

ـ إلى أين؟

ـ إلى بيتنا!

ـ في هذا الوقت!!

ـ لن تعودي إلا صباح غد!

ـ ما الأمر؟

ـ ستعرفين لاحقاً.

ـ لن تقبل أمي أن أخرج ولا أعود إلا غداً.. لماذا لا تكون معنا!

ـ لا يمكن!!

ـ لن توافق على خروجي في هذه الساعة!

ـ تدبري الأمر.

ترددت في إخبار أمي.. ثم حدثتها مستأذنة.. رفضت الموافقة.. ألححت عليها.. أشارت عليَّ أعود سريعاً.. خرجت وخمينة.. وصلنا سمسرتهم.. دخلنا غرفتها.. ذهلت حين همست ضاحكة:

ـ اخلعي ملابسك!

ـ !!

ألجمتني جملتها.. استعدت كلمات أمي: «خمينة قزمة فاسدة».

ـ هيا بسرعة.. ارتدي هذه الملابس!

تتحدث وقد مدت إلي بثوب ذكوري وشال ملون!

ـ ولمَ هذه الملابس؟

ـ أخفضي صوتك. والبسيها بسرعة!

وهي استبدلت ملابسها وتحولت إلى شاب قصير.. حدثت نفسي: أي مصير تقودني إليه؟ منذ عرفتها أحببتها.. حتى أني أخجل أن أبوح إليها بما يجول في خاطري الآن.. رضخت لإصرارها القوي على تغيير ملابسي.

تبعتها نحو أطراف صنعاء.. بعيداً عن الأسواق.. ومتاهة الأزقة.. شوارع لا أعرفها.. اتجهنا غرباً حتى الأطراف.. قالت:

ـ عليك أن تسيري هكذا كما يسير الرجال.

ـ سأحاول.

قلدتها.. تذكرت وصايا زوجة جدك في مشي إناث المدينة.. استعدت طبيعتي القروية.. قالت ساخرة:

ـ من يتابع خطواتك يفكر بأنك رجل بحق.. لا تلتفتي إلى الوراء.. سيري بشكل مستقيم!

ـ حاضر، لكن إلى أين نحن ذاهبتان؟

ـ لن أخبرك.. وإن أردت العودة عودي!!

ـ لكي يطمئن قلبي فقط.

صوت أمي يلاحقني: «خمينة قزمة فاسدة احذري خداعها».

ـ اطمئني.. ولا توغلي في القلق!

سرت خلفها صامتة والخوف يهزني.. سريعاً ما دخلنا مزارع الكروم.. ابتعدت المنازل.. عواء كلاب يستقبلنا.. ريح باردة.. ابتعدنا عن المدينة.. خمينة تعرف طريقها جيداً.. أتبعها.. الأفق ينفث ظلمةً حالكة.. هبطنا منحدرات صخرية تشبه منحدرات قريتنا.. دخلنا وادياً مليئاً بعرائش العنب.. أصوات الضفادع تتوقف لوقع أقدامنا ثم تعاود.. حقول من الأشباح.. إيقاع مضخات المياه تتعالى.

ـ أين نحن؟

ـ نحن في وادي ظهر!

ـ وادي ظهر.. لقد ابتعدنا كثيراً وأخاف أن نتوه!

ـ أنا معك.. لا تخافي!!

بدأ الخوف يعشش في صدري وأنا أسير خلفها على سواقي المياه.. قلبي يخفق.. لم أعد أقوى على الكلام.

توقفت جوارها.. همست: علينا أن ننتظر هنا.. اجلسي جواري.. كانت تمسك بذراعي.. فيما كنت أرتجف بشدة وأنا أحاول أن أتخلص من فكرة أن يكون في الأمر شأن آخر.

برد مخيف يتخلل عظامي.. ضجيج روحي يتعالى.. التربة تحت أقدامنا شديدة البرودة.. ترفع عنقها.. تصيخ السمع.. تستقيم ثم تجلس جواري.. تضمني في خوف.. يجتاحني الرعب.. سيقان الكروم تحجب عنا كل شيء عدا سنا القمر.. تفكيري شبه مشلول.. ضباب المكان يزيد من استسلامي.. بدأت أتقزز مما يجول في خيالي.. وكيف ستكون علاقتنا بعد اليوم.. لم تحدثني يوماً عن غرامها بأنثى!!.

فجأة نهضت.. أشارت إلى ضوء صغير يومض ثم ينطفئ بحركة منتظمة!.

أشعلت بدورها مجموعة أعواد ثقاب.. لوحت بها في الهواء.. سمعت وقع أقدام. قالت لي:

ـ الآن توجهي قدماً.. سأنتظرك هنا.

ـ إلى أين أذهب؟

ـ أريدك اكتشاف المفاجأة بنفسك!

دارت بداخلي مخاوف كثيرة.. لم أستطع تحديد ما أتصرف وسط ظلام دامس.. زوجة جدك يأتيني حديثها: «ثقي بخمينة». قلت لها:

ـ لن أتحرك أبداً إلا إذا عرفت ما يدور!!

ـ إنه تبعة جاء من أجلك!!

لم أقو على استيعاب ما سَمعت.

ـ تبعة!!!

ـ هيا تقدمي.. سأنتظرك هنا حتى أعيدك إلى البيت عند الفجر.

هدير يصم مسامعي.. نسيت أني بزي رجل.. لم أعد أميز ما حولي.. ضوء صغير قادم من بين سيقان الكروم.. شعرت بدوار.. تماسكت.. لم أعد أميز ما حولي.. وحيدة في مواجهة مع نفسي.. لا أعرف أأبكي أم أضحك..

ـ سمبرية.. سمبرية!

أرهفت السمع.. كرر النداء.. ميزت صوته.. نطقه لحرف الراء.. كأنني في حلم.. ضغط شديد على حواسي.. أحلام ملونة تجتاحني.. نسيت ما حولي.. جثمت على الأرض.. اقترب.. كان صوته ساحراً.

ـ سمبرية.. أنا تبعة!!

تبعثرت مشاعري أكثر.. صوت الشوق يتدفق بداخلي.. أخفيت وجهي بين كفيّ وأنا أبكي من فرط السعادة.. نهضت فردْت ذراعيّ.. كنت راضية بما أنا فيه.. فاح قلبي بروائح الحب.. احتضنته.. حملني يدور كمروحة القش.

ـ لماذا تبكين؟.

تسللت.أصابعه لتحتضن وجهي.. رفعه قبالة وجهه.. رأيت وجهه الجميل.. دموعي تغسل عتمة الليل.. قبّل عيني.. قطرات الدموع على خديَّ.. ملامحه الهادئة.. احتواني من جديد بين ذراعيه.. رائحة لذيذة هي رائحة جسده.. احتضنني بقوة.. ارتخيت على صدره.. أصابعه تُمسد شعري.. توارى برد الليل.. ضمني بين أحضانه كثيراً.. سألت نفسي: وماذا بعد؟ عدت أتأمل وجهه.. أقبل عينيه.. شفتيه.. أحاول أن أعوض ما فات من حرمان.. عصف بي الشوق وكأني في حلم.. غير مصدقة أنه بين أحضاني.. أخاف فقده.. اقتربت شفتاه من أذني.. همس:

ـ لقد غامرت كي أراك.

ـ أنا غير مصدقة أنك معي.

ـ أفكر كل لحظاتي بك.

ـ ألا زلت تتذكر آخر لقاء؟

ـ كلما تذكرته أشعر بالخجل.. كيف طاوعني قلبي أن أهرب وأتركك؟.

ـ أنا سعيدة لأني بين يديك. أشعر بالأمان حين أفكر فيك.. رسائلك المشبعة برائحتك.. الكتب التي تحمل أفكارك.

ـ ستنجلي الأزمة وسأعود قريباً لنعيش معاً.

ـ إحساسي طوال الأيام الماضية بأنك ستأتي.

ـ حين سكنتِ صنعاء.. كان ذلك من أجل أن نلتقي بسهولة.. لكن عيونهم وبنادقهم تترصد كل شيء.

ـ غيابك وسجن خالي جعلنا أيتاماً.

ـ خالك سيطلق قريباً.. وهذه الأيام ستزول بغير عودة.. سنعيش معاً في دولة الوحدة.. تسودها مبادئ الحرية الاشتراكية.

لم يترك لي تبعة حرية الحديث.. بدأت أرتّب مشاعري.. أفكاري.. الأسئلة تتكاثر بداخلي.. الكلمات تتزاحم على طرف لساني.. ضوء القمر ينفذ من بين عيدان الكروم.. ما لبثت السحب أن حجبت وجه القمر.

فرش تبعة معطفاً عسكرياً طويلاً.. وضع رشاشه (الكلاشن) جواره.. عدة أكياس.. غمرني بدفء كلماته...

لم يستأذن أحدنا الآخر.. خضعنا لجوع أرواحنا.. شفاهنا تتسابق.. أصابعنا.. صدورنا.. سريعاً ما التحمت أجسادنا.. لم أتخيل يوماً أن نلتقي لنمارس العشق كما الناس لقد تعودنا أن نمارسه في البراري والكهوف.

قال منتشياً:

ـ دهر من الأحلام يسكنني.

ـ منذ يوم الشلال أنتظر هذا الليلة.

ـ أشعر بجسدك يتوهج ضوءاً.. رئتك تتنفس عطراً.. أبرعم نشوة شوقي.. لهيب حرماني.

حاولت أن أجاريه رقة الكلام.. مناغاة الجسد.. كان يدهشني.. أشعر بأني طوع أصابعه.. طغت غلمتي.. جعلني أطير فوق نشوته.. عاملني كما لو كنا في معركة من الكر والفر.. التحام وفك.. استبد بي الجوى.. أتلوى تحته.. رغبة تجتاح صهيل قلبي.. احتضنته.. علوت عليه.. استدار ليطرحني أرضاً.. لأول مرة يئن من دون اكتراث.. ثم يعوي بصوت يخترق الأسماع.. أدركت بأن شبقه يسحقني.. وشوشته بكلمات استعرتها منه.. كل ما عليَّ هو تلبية ما يقول.. قطرات العرق المخلوط بروائح دافئة.. النشوة ترفعنا إلى ذرى المتعة.. أعقبها خدر مسكر.

هدأ كل شيء.. التصق كل منا يحتمي بالآخر.. اكتشفنا أن برودة الليل تزداد.. غالبني نعاس شديد.. قاومت كي أعيش حلمي.. كانت قُبلة تسلب وعيي.. يترك لماه في موضع القبل.. يطرز حوضي.. جذعي عمودي الفقري.. عنقي.. حلمات

صدري.. سُرَّتي.. في كل قبلة يترك للريح منفذاً.

تصاعدت أدعية صلاة الفجر، إنها أصوات مآذن المدينة تأتي من بعيد.. لم أشبع.. حاصرنا ضوء يتسلل في خجل من الأفق الشرقي.

نهض من تبعة دون مقدمات.. كعادته صامتاً.. قبل الفراق يتصرف بحنق.. تأملته وأنا أرتدي تنكري.. حمل جسمه الناحل عدة أردية ملابس ثقيلة.. زنر خاصرته بأربع رمانات.. قلت له في حزن:

ـ ستغادرني!

ـ سنلتقي.

لم يتفوه بعدها بكلمة.. كنت أنتظر منه قبلة وداع.. اقتربت منه.. احتضنته.. أصبح مختلفاً.. تركته.. لم يلتفت إليَّ حين سار.

في تلك اللحظات راقبته عيناي.. لوحت له.. لم يلتفت.. بكيت قليلاً.. سار باتجاه الجنوب.. أراقبه يسير في عتمة الفجر.. تقافز بعده عدد من رفاقه.. لاحظت أنه يسير وقد شاب ساقه اليسرى عرجة خفيفة.. حجبته عنا غمرة المزارع. أخذ الضوء ينشر أشرعته.. كنا في منطقة نائية.. جبال بعيدة تحرس الوادي.. وهج الصباح يحمل أسراب العصافير.. جسدي أصابه إرهاق لذيذ!.

هزتني رعشة أفقدتني سعادتي.. لم يكن تبعة على ما يرام.. هناك ما يحزنه.. شيء لم يبح به.. كانت خمينة قد اقتربت. وأنا أهم

باحتضانها.. قلت منتشية:

ـ لا أعرف كيف أشكرك.. تتحملين كل هذا البرد والتشرد من أجلي.

ـ سعادتك هي سعادتي.. ولا شكر؟.

ـ أين كنت طوال الليل؟

ـ كنت أتابع حفلتك الصاخبة.

كلماتها جعلت قلبي يستعيد دفئُه.. قلت في خجل:

ـ كنا في حديث متواصل.

ـ حديث هيّج كل من في الوادي!!

ـ أخجلتني.

سألتها في لهفة:

ـ من أين تعرفين تبعة؟

ـ أنا وأمي وأبي نعرف كل رجال قريتكم وكل نسائها.

ـ كيف أبلغك من أنه سيأتي؟

ـ أنا على يقين من أنك سألتِه!

ـ هل أنت جبهوية؟

ـ كل الأحرار جبهويون؟

ـ قال لي تبعة إن الجبهة هي من وفرت لنا البيت.

ـ ما يقوله الرفيق تبعة هو الصح.

ـ أرجوك نوريني.

لأول مرة أعود من سمسرة خمينة إلى بيتنا بمفردي.. كنت أسير محاولة أن أتخيل رد فعل أمي من قضاء ليلي خارج البيت.. لا أريد لأحد أن يفسد عليّ سعادتي.. قررت أن أترك الأمور للحظتها دون ترتيب مسبق.. أمي كانت تنتظرني خلف الباب.. لم تتحدث إليَّ.. لم تنظر إلى وجهي.. تركتني واتجهت إلى غرفتها.. صوت بكائها طالع من القلب.. كنت في حيرة.. دخلت إليها.. وقفت أسأل نفسي.. ماذا علي أن أقول؟ هل أبوح لها بسعادتي؟ هل ستستوعب عذر غيابي؟

كانت منكفئة على فراشها تنتحب.. خفت إن لمستها تنتفض.. كنت في حيرة من أمري.. أتوقع منها أي تصرف عنيف.. فجأة رفعت رأسها تنظر إلي.. وجهها مبلل.. عينان حمراوان.. خصلات من شعرها المحنّى من دون غطاء.. ملامح شرسة.. كنت أحاول أن أستنتج ما تفكر به.. أشعر بالإحباط.. أقنعت نفسي أن أحتمل أي تصرف مهما كان عنيفاً.. لكنها عادت بوجهها لتدفنه بين كفيها صامتة كطفلة بائسة. اقتربت دون تفكير.. احتضنت رأسها.. لم ترفضني.. عادت تنتحب.. أنفاسها حارة.. دموعها غزيرة على سطح كفي.. فكرت كثيراً قبل أن أعترف لها:

ـ لقد أخطأت.. ولن أكرر ذلك.. أعتذر لك.

خرجت كلماتي ليرتد بكاؤها كصدى جريح.. واصلت إلحاحي:

ـ لن أكرر ذلك.. أعدك.. ماذا أفعل حتى ترضي عني؟

ظللت إلى جوارها طيلة النهار. وهي رافضة الحديث.. تناول الطعام.. كان البيت جحيماً.. والوقت يمر بطيئاً.. فجأة توقفت عن البكاء.. وقفت أمامي تنظر إلى عيني.. ابتسمت تحتضنني.. كنت في حيرة لهذا التبدل.. نطقت:

ـ أنا خائفة.. خائفة؟

ـ ممَّ؟

ـ خائفة منك.. وخائفة عليك.. من طيشك.. فقط.. لـمَ لا تشاورينني.. تشاركينني.. تستشيرينني؟

ـ أعتذر.. لن أكرر فعلتي؟

ـ أخاف من ضياعك.. أخاف عليك!

من جديد عادت إلى النحيب.. دخلت غرفتها.. تبعتها.. أحاول تهدئتها.. وقفت.. أشارت إلي بالخروج وهي تمسح وجهها.. أذعنت لطلبها.. صعدت الغرفة العلوية.. قضيت ليلتي أعيد استرجاع ليلة الوادي.. كم كانت مفاجأة فريدة من خمينة.. إحساسي بإنجاز شيء جديد يضاعف ثقتي بنفسي.. فرحتي بتعميق علاقتي بها.. التنكر بملابس ذكورية والسير في الشوارع حرة.. إحساسي الممزوج بالرغبة والخوف من الغد.. ذلك المجهول الذي يطلق في عقولنا مجاهل التفكير.. ارتياد عوالم لم نرتدها من ذي قبل.. إحساسي بأني وقعت في فخ لذيذ.. والخوض في التفكير بالغد.

صباح اليوم التالي هبطت وقد منطقت أفكاري.. سمعت طرقاً على بابنا.. توقعت أن تسارع أمي كعادتها لفتح الباب.. تكرر

الطرق.. نهضت أنا لفتح الباب.. كانت خمينة.. احتضنتها.. استخدمت أصابعي لإفهامها حتى لا تسمع أمي.. أن تصعد معي الغرفة العلوية.. لم أكن أعلم أن أمي تترصد حركاتنا.. صرخت في غضب:

ـ جئتِ في وقتك.

وقفت مرتبكة.. ابتسمت خمينة دون أن تنزعج.. بينما أمي تتقدم نحوها قائلة:

ـ أنتِ أيها الفاسدة.. لا أريد رؤية وجهك.

وقفت مندهشة تستنجد بي. لم أتحرك.. كنت أريد المزيد من غضب أمي حتى أعرف ما تفكر به.. ردت عليها خمينة:

ـ شكراً خاله!

ـ أنا لست خالتك.. أنتِ سوسة.. مفسدة للبنات!!.

ـ لكني أحبك.. وأحب سمبرية!

ـ لا أريد حبك هذا.. فقط أتمنى أن تبتعدي عنا!

كنت أخاف أن تبادر أمي بالاعتداء على خمينة.. وقفت بينهما ممسكة بمعصم خمينة.. تملصت من يدي.. اتجهت نحو أمي التي لاذت بغرفتها باكية.. تبعتها خمينة.. جلست جوارها.. احتضنتها.. سمعتها تتذمر مني ومن معاملتي لها.. سريعاً ما غيرت سبب غضبها إلى اتهامي بالعصيان.. وسوء المعاملة.. والسخرية منها.. وأنني أخفي عليها أموراً كثيرة.

كانت تريد أن تعرف ما يدور حولها.. تريد معرفة كل شيء..

كنت أراقبهما من خارج الباب.. لكن خمينة أشارت علي بإقفال الباب عليهما.. لا أدري ما دار بينهما.. خرجت خمينة مبتسمة.. صعدت بها الغرفة العلوية. سألتها:

ـ كيف حال أمي؟

ـ أمك تخاف عليك.. وبداخلها شكوك لم تفصح لي عنها!

ـ شكوك!!

ـ طمأنتها من دون أن أفصح عن أي شيء.

ـ أعتذر لك.

ـ لا عليك.. أمك هي أمي.

ـ أخاف أن تكون قد جرحتك.

ـ ما بيننا أكثر من أن تؤثر عليه كلمات أم عطوف.

ـ شكراً لك.

ـ اليوم أتيتك لإخبارك بأن الوطن بحاجة إلينا.

ـ أنا مستعدة.. فقط أمي.

ـ أمك مثل أي أم.. تخاف على ابنتها.. تريد أن تعرف ما يدور حولها.. تراك طفلة.. وتعتقد أنها الوحيدة القادرة على حمايتك.

□ □ □

الغالي..

بعد عدة أسابيع غمرتني أوجاع لم أعهدها من ذي قبل. جسدي

فقد توازنه.. كل أوصالي تؤلمني. ظننت في البداية أنها نتيجة للقلق الذي نعيشه.. اصطحبتني خمينة وأمي إلى أحد الأطباء.. كتب لي ما يجب تناوله.. التفت إليهن وقد ابتسمت عيناه. قائلاً:

ـ عليكم برعايتها.. البنت حامل!

ـ حامل!!.

قالتها خمينة وهي تنظر إلى أمي.. اكفهر وجه أمي وهي تلح على الطبيب بالتأكد.

ـ أمتأكد مما تقول؟

ـ أنت أمها!

ـ نعم أمها ويهمني أن تتأكد.

ـ أنا متأكد.. وعليك الاهتمام بها.. خاصة إن كان هو الحمل الأول.

سقطت أمي أرضاً!.

صرخت دون ترتيب مني:

ـ يا لفضيحتك يا سمبرية!!

انشغل الطبيب بإنعاش أمي مرتبكاً.. تحلّق حولنا عدد من الرواد.. همس يتحول إلى أسئلة.. لا أدري كيف أتصرف..؟ ولا كيف سيكون رد فعل أمي بعد أن تفيق..؟ حملناها بعد أن خرجت من إغماءتها.. خرجنا من عيادة الطبيب وهي تهذي:

ـ حامل يا سمبرية.. يا فرحتي.. هذا ما كان ينقصنا.. بل هذا ما كنت أتوقعه.. كنت وخمينة نحملها في صمت.. استقللنا سيارة أجرة.

الحبيب حنظلة..

أنا على يقين من أن أمهات كثيرات لا يسعدن عند سماع مثل هذا الخبر خاصة إذا كانت في مثل وضعي.. كنت في تلك اللحظات مثل أمهات قليلات أجابه كل شيء. يتنفس رأسي بالسعادة.. يشع جسدي بالفرح.

منذ أن سمعت الطبيب وأنا أشعر بأني امرأة مختلفة عن سائر النساء.. تجاوزت شعوري بالكبرياء إلى الشعور بأني متميزة.

هي تلك الليلة التي التقطتك فيها أحشائي.. ليلة الوادي.. اليوم أشعر بأن لحياتي قيمة.. إحساسي بأن لي قضية أعيش من أجلها.

لم أكن أشعر بسعادة ناقصة حين كانت ترمقني أمي بنظراتها الصامتة.. أتألم لأجلها فقط.. أراها أكثر حزناً.. أخاف من تهورها.. أن تضع لي السم.. أن تذبحني في نومي.. فكرت كثيراً في مصارحتها.. لكن خوفاً يسكنني من أن تنشر ما أقوله بين صديقاتها.

في ليالي الحمل الأولى أتخيلك شكلاً بداخل تلافيف جسمي.. أتعرى.. أخط بالقلم على بشرة بطني.. أرسم أحلاماً أهديها إليك.. أقرب المصباح الكهربائي فوق بطني أعكس ما رسمته

إليك.. رسمت روائح الزهور.. وصوت خرير الجداول.. أسراباً صغيرة من العصافير.. فراشاً عملاقاً.. تخيلت عينيك تتابعان ما أرسم.. وأتخيلك مثلي تقهرك الوحدة.. فقد كنت ملاذي في وحدتي.. أرسم ابتسامتك في مخيلتي.. لم أتخيلك إلا ملاكاً مكتملاً.. تحملق بعينين في ما يدور حول جدار بطني.. تجدِّف في فضاء رحمي بيديك.. تتمعن في ملامح وجهي.. تسأل:

ـ لمن هذا الوجه؟

أتذكر أن علي أن أبتسم حتى تتعرف إلي.. حملقت في عينيك مبتسمة:

ـ هذه أنا حاملتك.. المتشوقة لقدومك.

تبتسم قائلاً.

ـ أنت!.

أكمل:

ـ أنا ظليلتك.. حنونتك الشغوفة بك.. بل قل أنا أكثر من خادمتك.

ـ وأنا ما أكون؟

ـ أنت هبة الله.. نوره.. محبته.. أنت أجمل الصفات.. وأرقّ ما يكون بين الكائنات.

في إحدى الليالي كنت أسهر معك.. أحببت أن أعرفك بمحيطك.. نرهف السمع لما يدور حولنا.. غطيط أمي المتقطع.. هرير قطتنا السوداء.. فوجئت بمداعباتك لي.. شيء ما يلامس

تجويف بطني.. كمن يكتب أو يرسم شيئاً.. نسيت ما حولي.. فضلت أن أتعلم منك.. تابعت نشاطك.. كنت أضحك.. ثم أخط بإصبعي على بشرة بطني.. أناجيك بلغتك التي ابتكرتها.. تخط بأصابعك خطوطاً.. أرد عليك بأخرى.

ضحكت وغطيت وجهك بيديك.. لم تردّ علي.. ثم تركتك تغوص في نوم عميق.. جلست أنتظر صحوك.. لمحتك حين اتخذت وضع العصفور المحلق في سموات خيالي.. نظرت إليك مبتسمة.. ومن يومها أخفي ملامحي عنك حين أكتئب.. أحرص أن أكون مبتسمة.. لم أتفوه لحظة بأي كلمة نابية في حضورك.. أنتقي أجمل الكلمات.. أتمدد على الفراش أحضن ما برز من بطني.. أغني حتى تعود أنت لقيلولتك.. ثم أنام سعيدة بذلك الشعور الفريد.. أخاف أن يكون حملي مجرد وهم.. أصحو من نومي مذعورة.. أتحسس بطني.. أبتسم حين أدرك أنك لست وهماً.. أستحضر روح تبعة الذي لا يعرف بأنه سيصبح أباً عما قريب.. ذلك الحبيب الذي يعيش لقضية جعلني مؤمنة بها ينتقل من قمة إلى أخرى.. بين أزيز الرصاص وروائح الموت.

وها أنا أجاهد كي لا تسمع دوي القذائف في الجبال القريبة.. حيث تبعة ورفاقه يقاتلون.. أحميك من روائح البارود.. أحكي لك حكايات حول عوالم أكثر سلاماً ومحبة.. أبعدك عن المناظر القبيحة.. أتجنب الحديث عن سجن جدك.. ملاحقة زبانية شيخنا الصغير لتبعة.. أبحث عن القيم الجميلة.. الشوارع النظيفة.. أحمل نفسي وأسير بك بعيداً عن أصوات النحيب والصراخ.. أذكر أنك كنت تطرب لكل صوت جميل.. أشعر بك تَسبح في شراييني راقصاً.. أسرع الخطى حين يعلو عويل من مكبر صوت مئذنة

قريبة.. أو من مغنٍّ قبيح.. وأسير الهوينا حينما يرتل قارئ بصوت جميل.. أنا على يقين من أنك تمتزج بمؤثرات محيطنا.. ولهذا حاولت أن أساعدك على أن يكتمل تكوينك بعيداً عن مؤثرات القبح.. لتخرج إلى الحياة وقد قضيت وقتاً رائعاً. كنت أقضي نهاري فرحة من أجل زرع الفرح في تكونك.. أحبب إليك الليل كما أنا أحبه.. أحببت أن تكون أنت عالمي.. وأضحت حياتي لها معنى بعد وجودك.. لم يعد منزلي الصغير موحشاً.. لم يعد يهمني صمت أمي.. ولا يقينها بفسقي.. ولا أخشى ثرثرتها عند زيارة إحدى الجارات أو البوح بما نحب إخفاءه.. ولم يعد يهمني في الحياة إلا أنت.. أعد الأيام ليوم خروجك.. أرسم ملامحك: عينا جدك فمي أنا.. وجنات تبعة.. وطول جدك الأول.

كنت قد انشغلت بك كائناً في أعماق مشاعري.. أواجه ظنون أمي التي لا تعرف شيئاً.. أنتظر قدوم زوجة جدك التي لم تفِ بوعدها.. وتتبعنا إلى صنعاء.. كنت أنتظر قدومها بفارغ الصبر كي تساعدني على أمي.

وحين وصلت إلينا في أحد أيام صيف ١٩٨١ كانت باكية.. أخبرتنا أن شيخنا الجديد قد حصل على أمر بهدم منازلنا في حصن عرفطة.. قالت:

ـ لا أحتمل رؤية هدم الحصن.. أشعر أنهم يهدمون روحي!

قالت أمي بحزن تواسيها:

ـ لماذا لا نخرج ندعو سكان الحصن لمنعهم!

ـ كيف لنا ذلك.. الكل خائف.. لن يساندنا أحد؟!

ــ ويتركون منازلهم تنهار؟.

ــ لن يجرؤ أحد من سكان الحصن على الاعتراض.. حتى لا يطلق عليه صفة شيوعي أو مخرب.. ومن ثم يقتاد للسجن!

خيم علينا حزن شديد.. عادت أمي لنحيبها ثم تهدأ.. لتبدأ زوجة جدك.

ــ لو لم يكن هذا البيت لما وجدنا سقفاً يظللنا.

أكملت عبارتها لتواصل نحيبها.

طرق شديد على الباب الخارجي للبيت.. تمطت الهرة.. توقفت أنت عن الحركة.. كان غطيط أمي قد تحول إلى كلمات مفزعة.

ــ من بالباب؟.

تكرر الطرق.

سمعت صوتها مع وقع أقدامها باتجاه الباب:

ــ من يطرق الباب؟.

ــ أنا العطوي!

15

بغداد

«١٣» حنظلة..

استقبلنا جدك بعد إطلاقه من سجنه الأول. كانت أمي قد سجنتني ومنعتني من الخروج طيلة الشهور السبعة الماضية.. حجبتني عن مقابلة أي كائن.. حاولت إقناعي بإسقاطك.

فتحت أمي الباب.. يقف وسط زخات المطر.. شال مبلل يلف وجهه.. يتأبط مصحفه الأحمر.. فتحت أمي ذراعيها في لهفة.. غاصت.. ارتفع صوتها باكية.. أقبلت زوجته التي أيقظتها جلبتنا.. قالت حين رأته:

ـ قلبي دليلي.. لقد حدثتني أحلامي أنك قادم!!

يخطو متسربلاً بهما مبتسماً. أتأمله.. لم يتغير كثيراً.. لحيته التي ازداد حيّز البياض فيها.. بشرة وجهه صافية.. قامته المتناسقة..

ابتسامته الهادئة.

تحلقنا حوله ننتظر حديثه.. أمي تتفرس وجهه.. تشرق ابتسامتها من بين دموعها.. زوجته تهدهده كطفل.. كنا ننتظر حكايات سجنه.. وكيف تم إطلاق سراحه.. معرفته بعنوان بيتنا.. لم يحدثنا بشيء. تناولنا العشاء معاً.. تركنا وصعد الغرفة العلوية.

في صباح اليوم التالي اجتمعنا حوله.. ظل صامتاً ينظر إلى عيوننا.. كأنه الدهر لا ينقضي.. تخيلت الغرف الباردة.. أسئلة المحققين التي لا تنتهي.. وجوه جلاديه.. كانت عيناه تحدثانا.. يرسم ابتسامته.. يحافظ عليها.. يحاول إطالة أمدها.. تنزلق لتسقط على الأرض.. تتطاير شظاياها.. تتعرى ملامح وجهه.. تعود ملامح معاناته إلى الظهور.

حين سألته عن ظروف اعتقاله.. نقله من سجن إلى آخر.. تحدث مبتسماً عن وظيفة السجان.. تحول الإنسان إلى مجرد سوط.. يمسي الوطن كفناً كبيراً.. لم أفهم شيئاً. أكرر عليه أسئلتي.. يحدثنا بصوت هامس.. غداً يشيخ الطغيان ولن يجد من يعيد إليه صباه.. من يحدّ أنيابه.. وسيَبلى السوط الذي نظفره من جلودنا.. ولن يجد الجلاد من يسمع مبررات طغيانه.. نحن من نمنحهم أسباب بقائهم.. ونصوغ قصائد أمجادهم.. فلا طغاة بلا أفراد متواطئين.. حين كان السجان يبتسم كنت أنا أبتسم سعيداً.. كأنه السجين الذي ينتظر الإفراج.. وهو المجلود الذي ينتظر آخر جلدة.. وهو المعذب الذي يعد الأيام كآخر أيام عذابه.

أحدث نفسي: سجين لا يحب الحديث عن ظروف سجنه.. ولا

أين كان..؟ ولا كيف تم إطلاق سراحه؟ حزمت كلماتي ولذت بالصمت.

منذ عودته هدأت أمي بعض الشيء عن مضايقتي.. وإن كانت تحاول الاستمرار في عزلي.. تتأملني وقد علت وجهها ملامح الحزن.

ذات صباح.. أشار علي جدك بالجلوس.. أقفل جناحي مصحفه.. قال لي:

ـ أريد أن أسمعك الآن!

في البداية شعرت ببعض الإحراج وأنا أحاول إخفاء بطني.. كنت أود أن أسأله عن عذابه.. أن أعبر له عن حاجتنا وشوقنا إليه.. لكنه بادر كمن أدرك ما يعتمل فيَّ.. وقال:

ـ لا عليك.. أعرف أنك حامل.. وأنك في أيامك الأخيرة.. وأعرف موقف أمك!

صمتّ.. لم أدر ما أرد به عليه.. انفجرت باكية.. واصل كلامه: هي أمك.. خلقت مزيجاً من الطيبة والسذاجة.. وعليك بالصبر.. أنا سأحاول أن أغير موقفها تجاه ما في بطنك.

احتضنني بحنان.. مسح على بطني المتكورة.. أخذ يتلو: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه سُبحانهُ وتعالى عما يشركون* ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون».. «اسمع يا الله صيحتي، وأنصت إلى صلاتي. من أقصى الأرض أدعوك، إذا انكسر قلبي. أهدني إلى صخرةٍ عالية. لأنك

أنت حماي وحصن منيع في وجه العدو. أسكنّي في جوارك طول الحياة فأحتمي بستر جناحيك».. «بالإيمان نالت سارة نفسها القدرة على أن تحبل مع أنها عاقر لأنها اعتبرت أن الذي وعد أمين، فولدت من رجل واحدٍ قارب الموت نسلاً كثير مثل نجوم السماء ولا حصر له كرمال شاطئ البحر».. « من هذه الطالعة من البرية؟ كأشجار النخيل، تعبق بالمر والبخور وكل العطور».

أومأت له برأسي في خجل.. أعقب: ربنا يعينك. كنتُ سعيدة بكلماته.. أردف قائلاً:

ـ تحمّلي حبها وحرصها عليك.. فهي لا يمكن أن تتقبل فكرة أن يزوج الفرد نفسه!

ـ لا تتركني وحدي؟

ـ سأتدارك الأمر ولو بعد حين!

نهضت وقد امتلأت إصراراً على بذل المزيد من الصبر على أمي ولا أملك غير ذلك.

يقضي جل وقته في الغرفة العلوية.. قليلاً ما يحتاج لنا. يغلق الباب في عليائه.. أرهف السمع.. صوت صلواته في هدوء الليل.. ترانيمه في الصباح الباكر جوار ضوء النافذة.. يغيب بوجهه بين دفتي مصحفه الأحمر لساعات.. يهبط دورة المياه. مردداً أدعيته.. طرطشة الماء.. يتلو إنشاد أدعيته بشكل متواصل.. ينتشر ضوء صوته في أرجاء البيت.

لم تتغير ملامح وجهه حين أخبرتاه نائحتين أن منازلنا في حصن عرفطة قد تم هدمها.. قالت له زوجته:

ـ لم يعد لنا في القرية سقف يظللنا.

قال لها:

ـ دار شيخنا صفى ثأره القديم مع حصن عرفطة.

ـ وما هوَ العمل؟

ـ لا عليكن.. سأرحل من غد إلى القرية.. كي أعمل على أن يكون لنا سقف يظللنا هناك.

خرج إلى قريتنا مصطحباً زوجته.. هامساً في أذني: «حين تلاحظين حركة حول البيت ليلاً لا تخشي شيئاً.. إنهم يتنصتون.. يبحثون عمن يساعدهم على تلفيق تقاريرهم!» لكلماته الأخيرة وقع الرعب على قلبي. أغلقت الباب.

حنظلة أملي..

كانت الليالي كئيبة. عدت إلى الشعور بالقلق.. وعادت أمي إلى طبيعتها في مراقبتي. ألوذ بالصمت.. أنشغل برصد وميض جمر السجائر حول بيتنا ليلاً.. همس يتعالى ليتحول إلى أحاديث مسموعة.. وقع أقدام وضحكات عالية.. أتسلل صباحاً.. أطوف حول البيت.. أجد أعقاب سجائر متناثرة.. بقايا أعواد القات.. رطوبة البول.. اثر أقدام على التراب.. تثيرني الكوابيس عند سماع مواء قط.. أو أسنان فأر في عتمة الليل.. وعند صفير الريح.

تتربص أمي بي.. تدهمني بكلماتها المتوجسة.. لا تعرف المداهنة.. ولا تجيد إخفاء ما تفكر به.. مرت الأيام وهي تعذبني بكلماتها.

إلى تلك الليلة التي قررت أن أواجهها.. حدثتها عن قراري بالخروج إلى أرض الله.. أن أتخلص مما أنا فيه من عذاب وأحافظ على ما في بطني. في البداية وقفت دون حركة.. ثم احتضنتني وهي تحدثني بصوت هادئ. كما لو لم تكن أمي التي أعرفها.. سألتني متوددة:

ـ من لنا من سند في هذه الحياة؟

سؤالها فاجأني.. حدثت نفسي: إن قلت تبعة أكون صادقة.. ستندهش من إجابتي.. لن تقدّر مشاعري.. وستطرح أسئلة كثيرة لتعرف المزيد.. لن تستوعب ذلك وسأفتح بيننا نافذة الخلاف. قلت لها بصوت منكسر:

ـ خالي.. وزوجته.

لا تعرف أمي بقولها إنها كانت محقة.. وإنها قد أصابت بعض الحقيقة.. لكنني فضلت الهدوء.. وقلت:

ـ كما تريدين يا أمي!

ـ أريدك أن تكوني معي صادقة.. أنا أمك التي تخاف عليك.

ـ كما تريدين!

ـ ما أريده أن تردي على قدر سؤالي.. أسألك فردّي علي بصدق.

ـ رددت عليك بخالي وزوجته.

ـ نعم أخي العطوي.. صدقتِ لكني في قلق متواصل عليه.. فهو رجل مهدد في أي لحظة بالحبس.. ولهذا فهو أملنا.. وهو الرجل

الذي يعتمد عليه. لكنني أشعر أنك لم تعودي تلك الفتاة التي تحب أمها.. وأشعر أن صنعاء قد سلبتك مني.. وأننا أمسينا غريبتين عن بعضنا.. وأنك تخفين عني الكثير.. ولم تعودي تحبينني.. لماذا تخفضين صوتك عندما تتحدثين مع الآخرين؟ خاصة مع تلك الفاسدة خمينة.. تعاملينني كما لو كنت غريبة.. لا أريد أن تكون معاملتك لي إسقاط واجب.

ذهلت من حديث أمي.. لم تترك لي شيئاً.. كنت على يقين من أنها استعارت لسان إحدى صديقاتها وما أكثرهن.. احتضنتها بكل صدق وأنا أوشوشها:

ـ أمي هذا ليس كلامك.. أنا أحبك.. وكلنا نحبك.

ـ إن كنتِ تحبينني أجيبي على أسئلتي!

ـ أعاهدك أن أغير نفسي.. وأنتِ أتمنى أن تعامليني كصديقة. لقد كبرت ولم أعد طفلة.

ـ لمَ كل هذا الغموض؟

ـ أي غموض؟

ـ البنت خمينة.. فتاة فاسدة.. ستلبسك العار.. اتركي صداقتها.. وفيدل.. ما سر علاقتك به.؟. هل تعرفين أسرته؟ منذ انتقلنا إلى صنعاء وهو مهتم بك.. لمَ كل هذا الاهتمام بك.؟ أريد منك أجوبة!

وضعتني أمي في زاوية ضيقة.. أبحث عن مخرج.. كدت أفقد هدوئي.. أفكر في إيقاف هديرها.. مندهشة للتحول الذي طرأ

عليها.. أجبت عليها:

ـ لماذا لا نشارك خالي في هذا الأمر..؟

ـ لا أخفيك أني سألته!.

ـ وبم أجابك؟

ـ ألم أقل لك إنه الآخر قد تغير!

ـ ماذا قال لك؟

ـ قال: هم أصدقاء لنا.. وما يقدمونه من عون علينا أن نتقبله وأن نرده لهم يوماً ما.

ـ وماذا بعد؟

ـ أنت ابنتي ومن حقي أن أخاف عليك.. وأن أحافظ عليك.

ـ وما هو المطلوب مني؟

ـ أن تقطعي علاقتك بالقزمة خمينة.. وكذلك فيدل.

ـ اعلمي أن علاقتي بهما علاقة سوية.. خمينة فتاة جيدة لم أجد في مثل وفائها.. لا توجد لي صديقة غيرها.

ـ لي صديقات كُثر.. سأعرفك على بعض بناتهن لتختاري من تحبين.. فقط ابتعدي عن خمينة وفيدل.

ـ فيدل لا توجد بيني وبينه أي علاقة!!

ـ هو من صنيعتها.. وما في بطنك.. أجزم بأنه الفاعل.. وعليك إخباره بعدم التردد علينا.. وإن كان يحبك عليه أن يأتي بوليّ أمره للتفاهم حول الزواج!!.

كانت الحيرة تزداد بداخلي.. الصوت هو صوتها.. وهي من تجلس جواري.. لكن أمي لا تجيد الحديث كما هي اليوم.. أمي لا تعرف ترتيب أفكارها كما هي اليوم.

وعدتها أن أكون واضحة.. قبلت الأمر على مضض.. جدك له الدور الكبير في ترويضها وجعلها تتعايش مع وضع لم تقتنع به.

□ □ □

قويت علاقتي بخمينة.. تأتي لنخطط باستقطاب عناصر نسائية جديدة إلى صفوف الجبهة.. كنت يوماً بعد يوم أكسب المزيد من التجارب النضالية والمعارف التنظيمية. هي أكثر تجربة.. تزودني بأخبار المواجهات بين السلطة وعناصر الجبهة في المناطق الوسطى.. تسلمني رسائل تبعة.. كانت لها أنشطة سرية واسعة.

بالأمس زادت السلطة من حملتها لتجنيد أبناء القبائل وكسب ولائهم.. اتسعت مطاردات عناصر الجبهة الوطنية.. وانتشرت ظاهرة اغتيالاتهم.

حلمي الجميل..

هو ذا عام ٢٠٠٣ تبدأ أيامه.. وأنت مستمر في صمتك.. زادت وحشة الليالي والأيام.. أصارع ظنوني.. أطارد شبح الفقد من تفكيري.. لكنها أخبار العراق من ترهق نفسيتي.. الطابور الخامس.. ثارات العرب.

وليدي.. ليتك تحس بإحساسي ولو للحظات.. لم تكن يوماً بهذه

القسوة.. ألحق بك لو أنت غادرت الحياة.. وهذا ما يرفضه إحساسي الذي يؤكد أنك ما زلت تعيش.

وسائل الإعلام ترصد لنا الصراع بين واشنطن وبغداد.. يروجون امتلاك العراق لأسلحة محرمة.. وعن علاقة صدام بالإرهاب العالمي.. ورفضه تزويد لجان التفتيش الأممية بالمعلومات والتقارير.. وعن رفضه مبدأ نشر الديموقراطية في العراق.. وأنا أشعر بمعاناتك.. لم أعد أفرق بين العراق وبينك.. حين يتداول مجلس الأمن قراراته أعتقد أنهم يناقشون استمرار صمتك وعدم اتصالك بنا.. وأنهم سيرغمونك على مهاتفتنا. وحين أصدر مجلس الأمن قراره رقم (١٤٤١) ضد العراق كنت على يقين بأن ذلك أتى عقاباً لك لعدم الإيفاء بوعدك والكتابة إلى أمك.. كنت أنتظر تواصلك معنا حتى ينقشع الحصار عن العراق.

السعودية فتحت قواعدها لسلاح الجو الأميركي.. ومصر فتحت مجالها الجوي للقاذفات الأميركية.. عبور قطع الأساطيل من قناة السويس.. أشفق عليك.. أسألك: لماذا كل هذا العناد؟ هل تحتاج أنت إلى كل تلك الحشود حتى ترضخ للاتصال بنا.

ولدي الغالي..

للمرة الثانية ترتفع أصوات أئمة مساجد صنعاء بالدعاء لبغداد.. أردد معهم.

أعود بذاكرتي إلى حرب أميركا الأولى على العراق.. حينها كان عمرك تسع سنوات.. يومها سمعت أنت أئمة المساجد يرددون تلاوة سورة (الفيل) عقب صلاة المغرب.. كنت حينها تسألني:

«لمَ يرددون سورة الفيل؟» أحتار في صياغة الإجابة.. أردفت بجملة أخرى: «ونحن في المدرسة مقرر علينا حفظها!».. تركتك تفهم ما يدور بطريقتك الخاصة.. الأدعية نفسها يرددونها اليوم: «اللهم جمّد الدماء في عروقهم، أحصهم عدداً، وفرقهم بدداً، ولا تترك منهم أحداً، سلط عليهم الأوبئة والكوارث والمحن، اللهم اجعل نساءهم سبايا وأموالهم عطايا للمسلمين».

سنوات من الدعاء دون إجابة.. لا سورة الفيل أعادت إلينا طير الأبابيل.. ولا الله استجاب لنا.. ترى لماذا لا يستجيب؟.

تبعة اختار حياته وانقطع عن التواصل بنا!! يعيش حياته بعيداً عني.. كنت سأقتنع منه بكلمات عبر الهاتف.. لم تعد تجدي أشياؤه الأخرى.. لم يعد يمتلك ما تطمع به النساء!!

أكتب إليك هروباً من جنون وحدتي.. لقد تحولت الكتابة إلى علاج يمدني بالأمل.. ولهذا لا أستطيع أن أتوقف.. فأرجو حين تقرأ رسائلي أن تقرأها بروح الإنسان.

□ □ □

تردد الأخبار أن أميركا انتزعت من دول العالم حق تحرير العراق!! وحق إزالة أسلحته الدمار الشامل!!.

أخفي قلقي أمام من حولي، كما لو كنت في معركة مع الكل.. كان علي أن أظهر بمظهر الأم القوية.. وحين أختلي بنفسي أكون امرأة أخرى امرأة هشة بائسة.. أكبت نحيبي.. وعندئذٍ إذ أعود للكتابة إليك.. فكيف طاوعتك نفسك على كل هذا الصمت؟..

أم أن قلبك لا ينبض!!

الحبيب حنظلة..

زارتني شخنما خلال الأسبوع الفائت ثلاث مرات.. نقلت إلي عتب أمي فطمينا من عدم زيارتها.

أنظر إلى شخنما صامتة.. تتحدث دون توقف.. تتنهد مبتسمة.. تلح علي أن أفتح قلبي بالحديث.. أسألها:

ـ ما جدوى استمرار علاقتي بها؟ أنا إنسانة مهمومة: بمصير ابني.. باختفاء خالي.. بضياع زوجي.. مهمومة بمرض أمي.. ماذا أقول لك؟

ترد علي مهدئة:

ـ هي تحبك وستساعدك.. خاصة في البحث عن خالك.. تستطيع التعاون معك.. وإن كنت لا ترغبين بزيارتها في دارها أطرح عليك أنا فكرة أن تلتقيا في الحمام القديم.

كانت الفكرة غريبة بعض الشيء.. سألتها مستغربة:

ـ لمَ الحمام؟

ـ أنت ترفضين زيارتها في دارها.. وهي تلح في طلبك.. الحمام القديم مكان محايد وعام.. مكان للاسترخاء!

فكرت في مقترحها.. اكتشفت أن بداخلي بقايا رغبة للقياها.. قد يساعدني ذلك إلى اكتشاف خيوط جديدة.

قلت لها مترددة:

ـ أخبريها بموافقتي!

لم أتوقف عن البحث عن جدك.. قضيت الأشهر الماضية في زيارة عدة أمكنة.. زادت ثقتي بقدراتي وأنا أتجاوز بعض الصعاب.. أعتمد في تحركاتي على التنكر.. أتحرك بمرونة بفضل اقتنائي عدداً من الملابس الذكورية.. حتى أني تعودت على قضاء يومي أسير في الأسواق والأحياء.. أرتاد المطاعم بحرية.

في أحد الأيام كنت في سوق الفضة حين عصفت بأنفي رائحة تشبه رائحة بخور المسجد المقدس. وقفت محتارة.. أفحص ما حولي الشارع مزدحم.. المسجد المقدس غير قريب.. أسأل عيني.. من أين تنبعث تلك الرائحة؟

رجل عجوز ربط مبخرة بخيوط داكنة.. تحركها أصابعه في الهواء.. يردد:

«غَفر لك ولوالديك يا مصلي على النبي.

هبة من بخور الجنة.. يا مصلي على النبي.

صدقة قليلة تذهب ذنوباً كثيرة.. يا مصلي على النبي.

ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.. يا مصلي على النبي».

يبدو من هيئته أنه شحاذ مسن.. وجهه حالك التجاعيد.. تحفّه لحية بيضاء عشوائية.. كفاه ضخمتان.. يعتمر عمامة.. ينتعل حذاء كبيراً مهترئاً.. قفطاناً غامقاً.. يسير وسط الجموع متثاقلاً.. يتجه إلى حانوت.. ثم الآخر.. يكرر أنشودته في كل مرة.. أشرت عليه أن

يتوقف. وقف أمامي فاغراً فاه.. ناظراً بابتسامة بلهاء إلى وجهي.. مردداً: «الصلاة على باهي النور.. سيد الحظوة والسرور.. شفيعنا يوم النشور.. صاحب الريحان والبخور.. العاشق لبنات الحور...» قاطعته بسؤالي:

ـ لو سمحت من أين لي هذا البخور؟

لم يرد علي.. أدخل يده جيب قفطانه.. نثر بعض حصوات صمغية.. يحرك جمر مبخرته.. يلهو بها في الهواء.. قال مبتسماً:

ـ هل لي بصدقة؟

ـ سأعطيك ما تريد.. لكن قبل ذلك أخبرني من أين لك بهذا البخور؟

ـ هذا البخور من المسجد المقدس.. لماذا؟

ـ أريد مثله؟

ـ هذا البخور لا يباع في السوق.. لكن إن أردت سأعطيك القليل مما معي!!

ـ ومن أين يأتون به؟

هذا لا يعنيك.. إن كنتَ تود إعطائي بعض المال أعطني دون تحقيق.. وإلا فربك الرزاق.

مضى من أمامي حنقاً.. يسير متنقلاً بين أبواب الحوانيت.. مكرراً أدعيته ذاتها. مضيت في أثره.. الجميع يعرفونه.. البعض يسأل عن صحته.. أحدهم يطلب منه الدعاء.. وآخر يحاول استبقاءه لمداعبته.

16

اغتيال

«١٤» وحيدي حنظلة..

من كثر انشغالي بك أتابع أخبار العراق منذ مغادرتك إليها.. و(قناة الجزيرة) تشفي نهمي.

الحرب الأميركية على بغداد، جعلتني أسير شاشة (التلفزيو).. أسهر أتابع رصد الكمرة لشوارع بغداد وساحات.. نقل حي، عيني تبحث وسط الجموع.. إحساسي بأني سأراك في أية لحظة.. أتابع رصد الكمرة. لكنهم ينتقلون إلى تغطية الإنزال الجوي الأميركي.. زحف القوات البرية.

أمسيت شريكة في مهرجان كبير.. لم تعد أفلام (البرنو) ولا (الأكشن) تدهشني.. أتابع تقدم القوات خطوة تلو أخرى.. أشارك في قصف جوي على (الرصافة).. وآخر على (الدورة) أشعر أنني أقود مدرعة ضمن جنود (الصدمة والترويع).

أمسيت أرى ملامحك على خارطة العراق.. قوات (المارينز) تزحف فوق وجهك.

العراق استوديو كبير.. لم أعد بحاجة إلى صالات عرض مغلقة.. ولا أحتاج إلى تذاكر دخول.. عروض مباشرة.. أستنشق روائح شواء الأجساد.. ألوان الدماء.. صرخات الثكالى.. استغاثة الجرحى.. أشاهد الصواريخ منذ تركيبها على ظهور البوارج والطائرات إلى لحظات إطلاقها وحتى إصابة الهدف.. تطاير الأشلاء.

كل شيء مشاهده حية غير معلبة.. مخرج الفيلم حدد هوية البطل منذ البداية.. استطاع أن يكسب عاطفة المشاهد.

صغيري..

كنت أتابع علّي أراك بين الجموع الهاربة.. لحظات تكميم تمثال الزعيم بالعلم.. سحله في ساحة الاحتفالات.. لحظات اقتحام ساحات الجامعات والمعامل.. تجمهر الناس ينظرون إلى أنقاض مساكنهم.. دخول (المارينز) القصر الجمهوري.. أبحث بين الوجوه فلا أراك.. لأكتشف أن الجميع يحمل نفس ملامحك.. الأطفال.. النساء.. المسنون.. الشباب.

لقد رأيت جسدك ممدداً من الجنوب إلى الشمال.. تذكرت لحظتها استشهاد الحسين.. ونرى كل العراق كربلاء.. ونضيف عاشوراء جديدة إلى مناسباتنا.. نمارس ما شاء لنا من اللطم والنواح.

جنود (المارينز) يرددون صلواتهم عند كل مساء:

«إله الحقيقة والأب والابن وروح القدس.. اجعلوا صلواتنا للذين لا

يعرفونكم كي تسّبح شعوب الأرض باسمكم.. ساعدوا وألهموا عبادكم حملة الإنجيل.. أحبوا الإيمان الضعيف.. ادعموا إيماننا عندما يكون هشاً.. جددوا حماية مبشرينا.. اجعلوا منا شهوداً لطيبتكم.. وزيدوا حبكم وقوتكم وإيمانكم لمجدكم ولخلاص العالم.. آمين».. فلا أعلم لمن أوجه دعائي.

المجنزرات تمر أمام نصب الحرية.. وعربات (الهمر) تزأر من ساحة الاحتفالات وتحت قوس النصر.. على جسور: الأحرار.. ١٤ تموز.. الرشيد.. وجسر الشهداء.

عناصر شركة الخدمات العسكرية (المرتزقة) يلتقطون الصور التذكارية أمام تمثال (كهرمانة).. وعند الحضرة (الكاظمية).. أتابع على المحك.. أشلاء دون ملامح.

□ □ □

هجرت مشاهدة القنوات الفضائية حَنَقاً.. هربت بذاكرتي من الحاضر إلى الماضي.. قبل عشرين سنة.. بعيداً عن الشعور بالعجز.. إلى رسائل تبعة.. فتشت بين الرسائل الكثيرة.. اخترت رسالة بعثها لي بعد ليلة الوادي.. كان قد تأخر كثيراً في إرسالها إليَّ.. عرفت بعد قراءتها أن جبهات القتال على الحدود ظلت ملتهبة.. وأن تبعة كان منشغلاً.. اعتذر لي عن تأخره.. وقال في رسالته:

«١٠» معبودتي الفاتنة..

لقد تأخرت في كتابة رسالتي إليك.. لم أنشغل عنك إلا بك.. ذكرى ليلة الوادي.. روائح اللقاء ظلت عالقة.

حبيبتي يا من أعطتني فلسفة الصبر والبقاء.. معاني العاطفة المشتهاة.. هل تسمحين لي بتقبيل الثرى الذي تقفين عليه.. هذا الفضاء الذي تتنفسينه.

معبودتي الفاتنة.. تقرر تكليفي قائد مجموعة للتدريب على سلاح روسي جديد.. قضينا خمسة عشر يوماً من التدريب عليه في معسكرٍ ناء.. سلاح يُحمل على الكتف.. يعمل على إطلاق إشعاع يفجر الجسم الذي يصطدم به بعد اختراقه مهما كانت صلابته.. بالإضافة إلى تدريبنا على تقنية زرع شبكات الألغام.

في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الثاني/يناير ١٩٨٢ كلفنا بالتحرك إلى العقبة الحمراء في منطقة (رداع). أبلغونا بالسرية.. وتوخي الحذر.. سرنا ليلاً عبر منطقة دمت ثم جبال (الرياشية) شمالاً.. كان علينا قطع المسافة في أقل من عشرين ساعة.. حملنا عتادنا وسلكنا مرتفعاً شاهقاً أوصلنا إلى العقبة. بعد بزوغ شمس يوم جديد حضرنا اجتماعاً سرياً.. تم تسليمنا خط سيرنا إلى موقع تنفيذ العملية.. الخارطة دقيقة.. تبين لي أن المكان هو جسر تحت الطريق العام الواصل بين مدينة (ذمار) ومدينة (رداع).. حملنا أسلحتنا وأجهزة الاتصال والخرائط.. غادرنا إلى الموقع عند المساء.. انحدرنا سيراً على الأقدام.. في حذر نقترب من الطريق العام حيث تُحكم قوات السلطة ومناصريها قبضتها على جزء من قرى السفوح.. نسير في أرض مستوية.. وجهتنا نفق السيل المار تحت الطريق العام.. أمامنا عدة كيلومترات.. نتسلل ببطء وسط الظلام.. صعدنا تلالاً.. تجنبنا وديان مزارع القات.

عرفت لاحقاً أن مهمتنا اعتراض موكب الرئيس صالح القادم من صنعاء في طريقه إلى مدينتي رداع والبيضاء.. كم كان وقع الخبر

شديداً على حواسي.. قررت عدم إبلاغ الرفاق.. تخفينا ننتظر الصباح.. بين وقت وآخر تمر أنوار العربات ثم تختفي.

يمر الوقت سريعاً.. أشرقت الشمس.. المعلومات تفيد أن الهدف وصل مدينة ذمار قادماً من صنعاء.. وأنه يلقي كلمة تحريضية في حشد شبابي بذمار.. ثم يتجه بعد ساعة في طريقه إلى رداع والبيضاء.. المعلومات تفيد بأنه سيصل إلينا بعد ساعتين. فحصنا المكان.. جسر خرساني صغير.. جدرانه من الحجر الأسود.. لا وجود لأي حياة في هذه البقاع غير أحراش بائسة.. عملنا طوال الليل على زرع شبكة النواسف في مواضع مدروسة.. حفرنا ثلاثة عشر خندقاً على جانبي الطريق.. ستة في الجانب الشرقي.. والبقية في الجانب الآخر.. بين كل خندق وآخر خمسة أمتار. تم تمويه الخنادق بفروع شجيرات مشوكة.. سلاحنا ست قاذفات صواريخ محمولة روسية الصنع.. سلاح حديث يخترق الدروع ليفجرها من الداخل في ثوان.. ثلاثة مدافع رشاشة.. وعدة رشاشات هجومية (كلاشن).. مجموعة من القنابل اليدوية.. كنت أنا المكلف بالضغط على صاعق شبكة الألغام في الوقت الذي تمر على الجسر عربات الموكب.. وفي نفس اللحظة يتم إطلاق الصواريخ المحمولة على العربات المسلحة.

رياح باردة.. المجرى تحت الجسر تغطيه أشجار الطلح الجافة.. كنت في قلق شديد.. أخذنا مواقعنا تحت فروع الأشجار المشوكة.

المعلومات التي تصلنا تباعاً تفيد بأن الموكب مكون من تسع وعشرين عربة.. منها: سيارة إسعاف.. وسيارة تحمل أجهزة

اتصال.. يتقدم الموكب ستة أطقم مسلحة.. ثم خمس سيارات صالون فارهة.. يستقل أحدها رأس السلطة في صنعاء.. ثم أربع سيارات تحمل جنوداً.. تتبعه خمس سيارات مماثلة.. وبقية السيارات لمرافقين إضافة إلى الوجهاء ومشائخ المحافظة.

كان تسليح الموكب.. ثمانية (آر بي جي) وتسعة رشاشات (م ط) وأكثر من مئة رشاش (كلاشنكوف).. وراجمة صواريخ.. إضافة إلى سلاح المرافقين من مشائخ القبائل.

الوقت يمر.. كل شيء صامت.. بداخلي صخب يتعالى.. ذرات تراب ناعم.. زواحف صغيرة.. ضجيج عربات عابرة في الاتجاهين.. ثم يعود الصمت.. الشمس تصعد أكثر.. صمت مخيف.. دائرة الاتصال تفيد أن الهدف يقترب أكثر.. سرب عصافير يقف على أفرع الشجيرات المظللة لنا.. قطيع أغنام يظهر من بعد.. المعلومات تفيد باقتراب الهدف.. تبقت دقائق لوصوله.. أعطيت أوامري بالاستعداد.. معنويات الرفاق مرتفعة.. دون مقدمات وصل الأمر إليَّ عبر جهاز الاتصال بإلغاء العملية!!

ارتبكت لم أصدق ما أسمع.. كنت على يقين من أن في الأمر خدعة.. كيف أقنع بقية الرفاق؟ شككت في أن تكون دائرة اتصالاتنا مخترقة.. لم يتبق غير دقائق على وصول الهدف.. عاودت اتصالي.. تأكد لي أن المعلومات سليمة.. وأنها صادرة من القيادة.. المعلومات تفيد أن الهدف يقترب والزمن لا يتجاوز الخمس دقائق.. أخبرت الرفاق بالأوامر الجديدة.. حاول البعض التمرد.. حيرة تغلف المكان.. كنت أمام خيارين.. قررت حسم الأمر.. وجهت كلامي:

ـ لا يبرح أحدكم مكانه حتى عبور الموكب.. والعملية تم إلغاؤها وعلينا التنفيذ.

صرخ أحدهم بقوة:

ـ أنت تعرضنا للموت!!

ـ نحن في أمان إذا ما التزمنا بتنفيذ الأوامر.

لحظات من الهدوء.. صمت مريب.. كنت أتخيل أحدهم وقد تمرد.. أطلق ما بحوزته من قذائف لينفجر الموقف.. وتعم الفوضى. كان موقفاً صعباً.. هدير عربات الموكب تقترب.. أراقب ما نحن فيه.. أتوقع مفاجأة.. قذيفة تتلوها قذائف.. أستعد للموت.. أراقب رؤوسهم.. انسل الموكب.. كنت أود أن أصرخ فرحاً.. تنفست هواءً نقياً لانضباط رفاقي.

حبيبتي..

انشغلت ورفاقي في جدل حول أسباب إلغاء تلك العملية؟ لو نُفذت هل كنا سننتصر؟ هل كان قرار الإلغاء قراراً حكيماً؟ كيف سيصبح شكل السلطة في صنعاء بعد الاغتيال.؟ لا أحد يستطيع أن يرسم ملامح الغد!.

رفاقنا من على العقبة الحمراء كانوا يتابعوننا أثناء عودتنا من خلال المناظير لحظة بلحظة.. وحين وصلنا إليهم أدخلونا في دوامة الأسئلة. حاولنا التعبير عن خيبة أملنا.. الجميع يواسينا.. يتساءلون مثلنا.. من وراء إلغاء العملية.. البعض يجزم أنها قيادة الجبهة.. وآخر يؤكد أن الرفاق في عدن تدخلوا لإيقاف التنفيذ لحسابات

خاصة بهم.. والبعض يؤكد أن موسكو من ألغت العملية.

أحمل بداخلي تفاصيل ذلك اليوم.. وكثيرا ما أخلو إلى نفسي، لأدخل في متاهة من الأسئلة.. لكنني لا أصل إلى نتيجة.

ودعنا الرفاق في العقبة الحمراء.. عدنا جنوباً نحمل عتادنا.. لم تعد أرواحنا تقوى على النقاش.. (١٣) عنصراً أصابت كل منا صدمة الإلغاء.. لم نعد من ذلك النفق كما ذهبنا إليه.. نخبئ رعبنا ولا يريد كل منا الحديث عن تلك اللحظات.. ماذا لو..؟ ماذا لو..؟ أصبحت لتلك المفردات ألف وجه ووجه.. وما إن يجد أحدنا جواباً حتى ينفيه سؤال آخر.

على تلك القمم المطلة على مدينة قعطبة عدة كهوف يتخفى فيها الرفاق.. يشاركنا عدد كبير من الأطفال والنساء وكبار السن من سكان قرى تلك المرتفعات بأغنامهم ودوابهم.. في أطراف تلك الجبال تدور معارك بين عناصرنا وعناصر التيار السلفي المدعوم من سلطة صنعاء منذ أواخر عام١٩٨١ لمواجهتنا.. اتسعت سطوتهم.. واكتفى جنود السلطة ببسط نفوذهم على الطرق الرئيسة والمناطق المنبسطة وبعض قمم الجبال.. لقد تحولت المنطقة إلى منطقة محروقة.

في كهوف جبل عمار نظمنا سلسلة من العمليات القتالية.. بالتنسيق مع رفاقنا في جبل المصنعة وجبل الشعر والعود.. استطعنا في إحداها حصار موقع عسكري بمنطقة (حجاج.. شباعة) في دمت.. استسلم كل من كان في الموقع.. في معركة تالية اعترفت إذاعة صنعاء بسقوط طائرتين فوق جبال البيضاء.

كانت المعارك تدور على امتداد مئات الكيلومترات.. وحتى تعدل نتيجة تلك المعارك لجأت السلطة مرة أخرى إلى سياسة شراء بعض قادة الجبهة بدفع رشاوى كبيرة ومنح البعض مراكز قيادية في الدولة.. ومن أجل فتح شهية المتخاذلين أعلنت إذاعة صنعاء عن انضمام ثلاثة من قياديي المقاومة مع تسليم مواقعهم في قطاع البيضاء.. تم استقبالهم في احتفال حاشد بصنعاء.. وعرض ما سلموا من عتاد عسكري متنوع.. تم إبراز الحدث إعلامياً بشكل ملحوظ.. كما اعتمدت السلطة على تنفيذ عدة حملات لتصفية ما تبقى من مواقع المقاومين.. فتارة بالحوار وأخرى بتفويض التيار الديني للقتال بالإنابة.. وثالثة بتأليب القبائل.. ورابعة بإغراء بعض القيادات بالمال والمناصب القيادية.

القادمون من مناطق بعيدة قلة.. وجلّ الرفاق بأسرهم من سكان المناطق الوسطى.. معظم رفاقنا من تلك المناطق الداخلية عادوا إلى قراهم البعيدة.. والبعض اختار عدن كمنفى اختياري. كنت في حيرة.. أسأل نفسي.. هل علي أن أزحف وحيداً لإعلان الوحدة من صنعاء؟ ها هي قياداتنا تتساقط تحت إغراءات الهبات والمناصب الوهمية.. ورفاقنا من أبناء المناطق الوسطى يدافعون عن حياتهم ومزارعهم وممتلكاتهم.. ماذا تبقى لي هنا؟ على مَاذا أقاتل؟ كنت في حيرة من أمري.

أنظر إلى السماء.. أبحث عن حلول لحالتي.. لو عدت فهناك ينتظرني الرصاص.. وإن بقيت فسأكون غريباً وسط سكان هذه المناطق بعد أن رحل الرفاق. سحب نقية آتية من أعالي جبال (جحاف) المطلُّ على مدينة الضالع.. آليات السلطة تتحرك بحرية في الأودية والمناطق السهلية.. تحاصر الجبال بمن فيها.. طقس

شتوي يغرق الوديان والتلال ببرودته.. الشمس بصفرتها تثير في النفس أشجاناً.. جبل العود يفصله عن موقعنا نقيل حدة.. بقايا الرفاق وسكان القرى موزعون على جروف وكهوف وشعاب سلسلة جبال العود وخوال والشعر غرباً. دخلت الكهف وسط ظلام دامس أفكر في الرحيل من جبال أخذت من دمي ومن آمالي الكثير الكثير.

قطعت عدن عنا إمداداتها التموينية والعسكرية.. أوامر بإخلاء بعض المواقع العسكرية التي كانت الجبهة قد سيطرت عليها منذ منتصف عام ١٩٧٨.. تسليم نقاط التفتيش بطول الطرق الرئيسة.

استحدثت السلطة نقاطاً عسكرية جديدة ضمن خطتها لتقليص المد الثوري.. شقت طرق إلى قمم بعض المرتفعات الإستراتيجية وأنشأت مواقع عسكرية.

كان ذلك تنفيذاً لاتفاق قمة الكويت مارس/آذار ١٩٧٩ بين صنعاء وعدن.. كما هو معلن.. لكن الحقيقة أن قيادة عدن انقسمت على نفسها.. خرج عبد الفتاح إسماعيل من السلطة ونُفي إلى موسكو. أول قمة بين الشطرين بعد نفي فتاح عقدت في تعز ثم في عدن وصنعاء والحديدة. بعد أقل من شهرين من نفي عبد الفتاح كانت الحرب قد أخذت وجهاً جديداً.. خفّت المواجهات المباشرة.. كنا في وضع هدنة غير معلنة.. لا نزال نسيطر على منطقة المرتفعات الممتدة التي تقلصت إلى (٣٠٠) كيلومتر.. ابتداء من ذي ناعم البيضاء شرقاً إلى العقبة الحمراء في رداع.. وإلى جبال عمار والشعر والعود وحتى جبل المنار ببعدان

والحشا وماوية جنوباً ومناطق أخرى في السلسلة الغربية لجبال اليمن.

وضعت السلطة خطة لعزل المرتفعات الخاضعة للجبهة الوطنية.

توقف الدعم من عدن باعتماد شق صف قيادة السلطة فيها.

استمر دعم التيار السلفي لموجهة الجبهة ومناصريها.

وكذلك دعم القوى التقليدية من مشائخ القبائل وغيرهم.

سلم الرفاق في عدن كشوفات أعضاء وقيادات الجبهة الوطنية داخل الشطر الشمالي.. وبذلك انكشف الغطاء وأضحت صنعاء على اطلاع بخارطة الخلايا السرية للجبهة.. وعندها بدأت صنعاء بتنفيذ خطة شاملة لملاحقة وتصفية تلك العناصر على مدى سنتين.

زرعت سلسلة حقول ألغام فردية لعزل المرتفعات الجبلية التي لا تزال رافضة لأي اتفاق مع السلطة لإحكام الحصار عليها.

عقدت الصفقات المشبوهة مع بعض القادة الميدانيين لتسليم مواقعهم.. دمرت قرى بأكملها خلال أشهر نتيجة لدعم السلطة وتشجيع سياسة الثأر والانتقام بين سكان المناطق المناوئة. لم تنتهِ العمليات العسكرية كما أعلن عن إنهاء وجود الجبهة الوطنية.. أضحت مقاومتنا تعتمد على قدراتنا الذاتية وتلاحم السكان.

سكان المرتفعات شبه محاصرين.. لا يستطيع أحد الخروج عن نطاق المرتفعات.. ومن خرج لا يتوقع رجوعه.. اعتمدت السلطة سياسة تكثيف الملاحقات.. لجأ السكان للدفاع عن أنفسهم وحماية ممتلكاتهم بتنظيم أنفسهم معتمدين على ما يمتلكون من

أسلحة شخصية. وعلى امتداد أشهر تحولت قرى تلك المرتفعات إلى قرى مهجورة وأخرى حوّلها القصف إلى أطلال.. تكاثر سكان الكهوف والمغارات والشعاب.. ازداد عدد المعاقين بفعل تعرض الرعاة والفلاحين للألغام الفردية.. نسير لنصادف أطفالاً بترت سيقانهم.. وآخرين فقدوا أعينهم.. نساء أصبن عند بحثهن عن الماء والحطب.. لا يستطيع أحد اللجوء للمستشفيات في المدن خوف الاعتقال.

نرحل من جبل إلى آخر.. نمر على قرى أمست أطلالاً.. يستضيفنا أنصارنا بين الشعاب.. أو في الكهوف.. أطفال وشيوخ في العراء.. تحركاتهم محدودة نتيجة لسلسلة حقول الألغام المنتشرة في سفوح الجبال وعلى قممها. كان سكان قرى المرتفعات قد هجروا قراهم.. يلاحقهم سكان قرى موالون للسلطة بهدف إبادتهم لموقفهم المناصر للجبهة.. واتهامهم بقتل آخرين في المواجهات التي دارت خلال سنوات خلت.. والبعض يقاتل طمعاً في الاستيلاء على أراضي أنصار الجبهة الزراعية.. فكان الحصار المضروب على مناطق كاملة ما يدفعهم للتخفي في الشعاب والكهوف والمغارات العالية.. نراقب الحشود العسكرية من مواقعنا في الكهوف والمغارات.. السلاح الجديد: مدرعات (ايه إم ٦٠) وناقلات الجنود (إم ١١٣) وصواريخ (تاد).

ننظم العمليات الليلية.. تدوي الانفجارات ويضيء موقع تجمع الآليات.. ننسحب تحت جنح الظلام إلى المرتفعات.. نعود نخطط لعملية لاحقة.. استخدمنا تقنية زراعة الألغام لاصطياد الآليات العسكرية.. لم يكن من وسيلة لمجابهة السلاح الأميركي الجديد سوى حرب العصابات.. حوصرنا عدة مرات.. نتسلل من قمة إلى

أخرى.. على الدوام ننسحب شرقاً.. حوصرنا بعد عدة أشهر من الكر والفر إلى جبال (الرياشية).

نمتلك أحد المعاقل الحصينة (العقبة الحمراء).. تقلصت مواقعنا وتحولت بفعل الحصار المستمر إلى مواقع منفصلة عن بعضها.. قرى ومغارات.. التسلل ليلاً من جبل إلى آخر.. إحدى وسائلنا للتواصل والتنسيق هي دائرة الاتصال.

صدر قرار القيادة بالتخطيط والتنفيذ لسلسلة من الاغتيالات ضد العناصر السلفية.. رداً على ما تقوم به أجهزة الاستخبارات بالتنسيق مع العناصر السلفية من مطاردات وتصفيات لعناصرنا في شتى مناطق الوطن.

استنفرت صنعاء عناصرها السلفية لمواجهتنا. ظلت تلك العناصر تتجمع من عدة مناطق.. لم نكن مدركين لعددهم وعتادهم.. وفي شهر كانون الأول/ديسمبر كان هجومهم المدعوم بقوات برية وجوية يفوق قدراتنا.. قاتلنا لأكثر من ستة أشهر.. امتلأت مجاري السيول والمنحدرات بجثث عناصرنا والعناصر المناصرة لنا من سكان المنطقة.. انسحبنا باتجاه أعلى الجبال منكسرين.. استمرت تداعيات المعركة.. قصف وحرق عدة قرى بأكملها من قبل السلطة والعناصر السلفية.. ليبدأ الحصار على المناطق الجبلية بأكملها.

كانت أول معركة نواجه فيها التيار السلفي.. وعلى مدى عدة أشهر استمر الكر والفر سقطت عدة مواقع بأيديهم.. تعاظم نفوذهم المدعوم من صنعاء.. الممولة تمويلاً كاملاً من الرياض.. دحرنا في مذبحة لم نذق شبيهها على كافة المواقع والمعارك.. انسحب من

تبقى منا إلى موقع جديد.. استمرت عمليات حرق البيوت.. نهب الممتلكات وطرد السكان.. تولتها العناصر السلفية تحت شعار تطهير المنطقة من العناصر الشيوعية.. هرب من كان يساند الجبهة من قراهم.. أحكمت العناصر السلفية قبضتها على مواقع عديدة.

عدنا لاتباع تكتيك أضرب واهرب. كان أسلوباً ناجحاً لقتال قوات السلطة.. سلسلة من العمليات الناجحة ضد المواقع العسكرية.. زادت سلطات صنعاء من دعمها للعناصر السلفية لملاحقة وتصفية عناصرنا القيادية في عموم الوطن.. سريعاً ما تعاظم تنظيمهم.. وانتشرت عملياتهم ضدنا.. ليجد عناصر الجبهة أنفسهم أمام خصم يتبع نفس الأسلوب في القتال.

نشط جهاز الأمن الوطني لملاحقة عناصرنا واغتيال أعداد كبيرة منهم.

رفيقتي ودنياي..

القتال هنا يشتد يوماً بعد يوم بعد أن نجحت صنعاء في إحداث شرخ كبير بين رفاق عدن. تولى علي ناصر أكثر من منصب قيادي.. بدأت الأمور تسوء لدينا.. انقطعت الإمدادات.. أضحى الرفاق في عدن متفرغين لحياكة المؤامرات فيما بينهم.

يحشد نظام صنعاء القبائل من أقصى الشمال ليرسلها دعماً للمد السلفي.. أعلنها حرباً جهادية.. نقاتل من جبل إلى آخر.. نحاول أن نحافظ على بعض مواقعنا.. ترابطنا بسكان الجبال المعزولين في قراهم.

حبيبتي

أقتطع من لحظات نومي لأكتب إليك.

ضاق صدري.. تذكرت طفولتي.. أبي.. مولانا.. قريتي تلك الجبال التي احتضنت تشردي بعد هروبي من زريبة شيخنا.. بكيت كثيراً. حين أتذكرك تعود السكينة إلى نفسي.. تبددين ظلمات قلبي.

الليلة قررت أن أحسم أمري.. ثلاثة خيارات: البقاء هنا حتى آخر رمق.. أو العودة إلى جبال منطقتنا.. أو الرحيل إلى عدن. مكبرات الصوت في المساجد تردد دعاء بعد كل صلاة.. أللهم انصر جندك على عناصر الإلحاد وقوى الشيوعية الماركسية.. سلسلة مطاردات لا تتوقف.. فقدنا جل مواقعنا.. تحالفت قبائل المنطقة مع التيار السلفي الممول من السعودية.. ضاقت بنا السبل.. نحن محاصرون على الحدود الشطرية.. جثث الرفاق على الطرق وسفوح الجبال.. الكثير منهم في سجون السلطة.. قررت أن أسلك طريقي إلى عدن.

حررت الرسالة في يناير ١٩٨٢

17

خمينة

«١٥» سلوتي في وحدتي حنظلة..

أوراقي تراكمت ولم تجد طريقاً إليك. سأظل أكتب إليك حتى تظل بداخلي حياً ترزق.. قلبي يحدثني بأنك ستقرؤها يوماً ما.

كثيراً ما تتنازعني الظنون.. وأسأل نفسي.. هل أملي وهْم؟.. هل سأراك؟.. أسئلة كثيرة.. بعضها تقودني إلى أجوبة مأساوية.. تساورني أفكار محزنة أكثر من أي وقت مضى.. أخاف موتك.. أخاف مناجاتي لسراب. وما يجعلني أقاوم ظنوني أن أستمر بالكتابة إليك.

هذه الليلة شاهدت أخبار العراق في أكثر من قناة إخبارية.. تيقنت أنك تعيش ظروفاً استثنائية.

وحيدي.. سأسمح لنفسي بالنواح قليلاً.. سأقرأ عليك من روحي

ما تيسر من سورة الرفيقة خمينة.. سأعود إلى شتاء ١٩٨٢. عرفتني خمينة بمعظم تفاصيل صنعاء.. علمتني حب صنعاء.. عشق أزقتها.. قناطرها التي توصل بين دورها العالية.. علمتني كيف يعيش الفرد من أجل قضية.. لا تعرف اليأس.. أينما تكون تزرع الأمل.. لم أسمعها يوماً تشكو أو تتذمر.. لم تسمح لي أن أكون شريكتها في ما تعاني.. كانت دائماً تنشر البهجة في من حولها.

مزقوا وجهها الطفولي.. أسكتوا ابتسامتها.. رحلت لتترك لي هامشاً صغيراً من عالمها.. قبل أن يذبحوها احتجزوها عشرة أيام في مبنى الأمن السياسي.

راقب السفاحون تحركاتها.. تواصلها.. رصدوا أنفاسها.. اصطادوها.. كما لو لم تكن تلك الفتاة الناشئة في مجتمع يحقر المرأة. كنت أنا واحدة من شبكتها في صنعاء.. لا أعرف أحداً غيرها.. وهكذا بقية الرفيقات.. توزع وقتها للالتقاء بهن.. البعض في المساجد.. والبعض في الحمامات التركية.. وأخريات في المقائل.. مناسبات الأفراح.. الأتراح.. كانت المدينة تصحو على منشورات تغطي الأحياء والأزقة والساحات.. بل ودوائر السلطة.. عبر شبكة من الرفاق والرفيقات يقومون بذلك.. إضافة إلى توزيع الذخيرة والإعانات المالية والغذائية.. حين كانت مدينة صنعاء تستعد للحظة الصفر.. لحظة بدء الزحف الوحدوي من أعماق محافظة البيضاء وإب وذمار وتعز.

خمينة طلبت منا الاستعداد للحدث العظيم.

فجأة تغير كل شيء.. طلبت مني عدم التواصل بها إلى حين..

قالت: إن سلطة صنعاء حصلت على خارطة لشبكة المقاومين في عموم المحافظات الشمالية ضمن صفقة أبرمت مؤخراً بين العليين في لقائهما بتعز حزيران/يونيو ١٩٨٢م.. بدأت الأجهزة وأعوانها بحملة ملاحقات وتصفيات واسعة ضد الخلايا السرية للجبهة الوطنية.. اختفى الرفيق فيدل فجأة.. وجدت جثته تطفو صباح يوم جمعة فوق مياه أحد المستنقعات بأطراف صنعاء.. اختفى عدد من الرفاق في ظروف غامضة.. عند كل صباح يشاهد الناس الجثث ملقاة عند أطراف المدن.. اختفاء عدد آخر لتجد جثثهم في مدينة أخرى. أصبحت قلقة على خمينة.. أخاف فقدها.. لا أتخيل حياتي بدونها.. غامرت في إحدى الليالي.. كنت في شوق.. ذهبت إليها:

ـ لا أستطيع احتمال عدم رؤيتك لأيام.

ـ ألا تخافين على نفسك من الموت!

ـ لا أدري.. لكن علي أن ألتقي بك مهما كان الثمن.

ـ ستنجلي يا سمبرية.. أنا مراقبة.. خطر عليك إن التقينا.. اتركيني أيام هذا الأسبوع أفكر في حل.

مرت أيام الأسبوع الأول.. تلتها أيام أخرى.. زرت بيتها.. لم أكن أعلم أنهم اعتقلوها منذ أيام.. وأنهم منعوا زيارتها.

سيطر علي الخوف.. زاد شعوري بالخراب.. كانت الشكوك تغلفني بضباب كثيف.. كنت أعاني من رقابة أمي.. في كل مرة أجلس إليها أبذل جهداً كي ترضى بخروجي.. كانت متيقنة من فسوقي.. وكلما أستأذنها بالخروج تشك في أنني ذاهبة إلى موعد غرامي.

في ظهيرة ذلك اليوم جاءت إحدى الرفيقات لتخبرني أن خمينة تنتظر لقائي في مسجد النساء. تبعتها.. عبرنا أزقة المدينة العتيقة.. جوار الحمام التركي.. عبرنا أسواقاً قديمة.. وصلنا الباب الخلفي للمسجد المتفق عليه.. باب النساء في الجهة الجانبية.. جلبة وأناس كثيرون يتجمعون.. جنود.. لم أر امرأة واحدة.. كل المتجمعين ذكور.... حاولت الدخول.. اعترضني أحدهم... سألته:

ـ ماذا هناك؟

ـ قتيلة!

ـ قتيلة!! أين؟

ـ بداخل المسجد!

ـ من قتلها؟

ـ لا أعرف.. لكنهم يقولون إن مجموعة من النساء تعاونّ على قتلها!!

ـ هل عرفوا من تكون؟

ـ لا أعرف!

ـ انقبض قلبي.. عدت أسأل الرفيقة:

ـ كيف عرفتِ أن خمينة هنا؟

ـ أخبرتني إحدى الرفيقات أنه سيُطلق سراحها اليوم.. وأنهم سيأتون بها إلى المسجد ثم يتركونها.

ـ من تلك الرفيقة؟

ـ لنا رفيق داخل جهاز الأمن الوطني.. وزوجته.

ـ ولماذا المسجد؟

ـ لا أعلم!

جلست على حجر أستطلع الأمر.. سمعت أحدهم كان خارجاً للتو من الداخل يحدث آخر:

ـ فتاة.. دُس رأسها في فتحة المرحاض!! الدماء على الجدران.. قطع لحم.. يبدو مما رأيت أن أكثر من امرأة تعاونَّ على قتلها.

ـ لماذا؟

ـ يقال بأنها إحدى معاونات المخربين في صنعاء.. وإنها شيوعية!

شعرت بالغثيان.. عرفت أنها خمينة.. طافت ملامحها البريئة في خيالي.. ضحكتها.. صوتها الهادئ.. حاولت تمالك نفسي.. انتظرت بعيداً وأنا أشعر بالدوار.

أحدث نفسي: إذن فقدتها إلى الأبد؟.

تعاون مجموعة من الرجال على إخراجها من مسجد النساء.. اختلست النظر.. هالني ما رأيت.. شهقت من الرعب.. وجهها الطفولي مهشم.. دماء تقطر.. تدلت أطرافها المهشمة.. حملوها بسجادة ممزقة.. قال أحدهم منتشياً:

ـ هذا جزاء العاهرات.

وآخر قال:

ـ على المجتمع أن يطهر أوساطه من أمثالها.

منذ مقتلها وأنا ألزم بيتنا.. لم أزر والديها.. أشعر أنني من يستحق المواساة والرثاء.. أمي زارتهم عدة مرات.. لم تحادثني عن شيء.. شعور بذنب كبير.. أحسست بفقد جارح.. قبل مقتلها كنت أقضي ليلي على أمل لقياها.. منذ لحظة مقتلها أعيش دون أمل.. لم يعد لي من صديقة.. زوجة جدك في القرية.. أمي تتهمني بتجاهلها.. وأني بنت عاقة.. وعلاقتي بالله منقطعة.. جدك منذ خرج من السجن لا أعرف ما يدور في رأسه.. لا تجرؤ على الاختلاف معه.. أحاول أن أتخيل حوارهما.. أرى زوجته لها قلب طفلة يتوهج بالمحبة.. لا تكره أحداً.. تنظر إلى زوجها كما لو كان إلهاً في شكل إنسان.. تشاركه ما يعتقد.. تنظر إلى كلماته بقدسية.

بعد مقتل خمينة أمسيت كالجرذ.. أخاف من كل شيء.. ألوذ بالغرفة العلوية.. لا أبرح بيتنا.. أنتظر قدومك.. لم تعد تهمني حياتي بعد أن رحلت خمينة وتركتني من دون سند.

غيرت أمي من أسلوب تعاملها معي.. لم تسألني عن مشاعري.. لم تتحدث فيما حدث.. تركتني وما أنا فيه.. تبدو هي الأخرى حزينة على مقتل خمينة.. لم تعلق على شيء.. لم تذكر حتى فيدل الذي لم نعرف له يوماً عنواناً.. تراقب حزني بأسى.

كنت أنت قد بلغت الشهر العاشر.. تحبو في كل اتجاه.. حركتك تثير فيَّ البهجة.. تملأ البيت صراخاً.. تعبث بكل ما تطاله يدك.. يأتي جدك إلينا.. يجلس جواري.. يفتح مصحفه الأحمر.. يترنم: «أيها السيد الرب أي خير في ما تعطيني وأنا من غير عقب ووارث بيتي هو إلياعازر الدمشقي.. أنت لم تعطني نسلاً.. وها

هو عبد مولود في بيتي يكون وريثي.. فأجابه الرب.. لن يكون هذا لك وريثاً بل الذي يخرج من صلبك يكون وريثك.. وأخرجه الرب إلى الخارج.. وقال: انظر إلى السماء وعدَّ النجوم.. إن استطعت ذلك.. ثم قال له: هكذا يكون نسلك.. فآمن بالرب.. فحسبه له برا.» يصمت ثم يتلو: «وتعمد يسوع في نهر الأردن وخرج في الحال من ماء النهر وانفتحت السماوات له.. فرأى روح الله تهبط كأنها حمامة وينزل عليه.. وقال صوت من السماء: وهذا هو ابني الحبيب الذي به رضيت.»

أمي اقتربت مني أكثر.. تفيض طيبة وحناناً.. امتلأ البيت دفئاً.. لكنها لم تقربك إليها.. كنت أحاول تعويضك كل نقص. بكاؤك.. مناغاتك.. صراخك.. رائحتك.. كل ذلك أعطاني حياة جديدة بعد أن كانت قد بدأت معاني الحياة تفقد ألوانها. حين أيقنت برحيل خمينة، وأني لن أقابلها بعد اليوم أبكي.. أستحضر أوقاتي معها.. كلماتها.. وجهها اللبني الصغير.. حبها اللا متناهي.. حين كان صوتها يقول لي:

ـ غداً سننسى ما نحن فيه اليوم.. وسنعيش في وطن تسوده العدالة والمساواة، وطن يمتد من البحر إلى البحر.. وطن يرفض التشطير.

ـ كيف؟

ـ لا يعقل أن لا يستجيب الله لنضالنا.. أن تذهب كل هذه التضحيات سدى.

أتذكر حوارنا قبل عدة أشهر من مولدك.. أختنق بغصة مرة.. لو كنت أنجبت بنتاً لسميتها خمينة.

من يعرف بما يدور في خلدي هي زوجة جدك.. هي من رسمت

تلك العلاقة.. وهي من عرفتني بخمينة.. فحين تترصد حزني على فقدها تساعدني كي أتجه بروحي إلى واد آخر:

ـ لا ينقصنا غير تبعة.

قالتها وهي تحتضنك.. سقطت من عيني دمعة شاردة.

قلت لها.

ـ هل علم أنني كنت حاملاً منذ ليلة الوادي.. وبأني أصبحت أماً؟

ـ سيعلم يوماً!.

سماك جدك حنظلة.. قال إن تبعة كان يحب أن يتخفى تحت كنية أبي حنظلة.. حتى أن اسمه الحركي كان كذلك.

كنت بعد مقتل خمينة سلوتي وملاذي.. لو لم تكن موجوداً لانتحرت وتركت حزني على خمينة يأكل نفسه بديلاً عن قلبي الذي يذوي تحت وطأة قسوته.

لم يعد يهم إن خاصمني العالم أو صالحني..

بعد مقتل خمينة انقطعت رسائل تبعة وانقطعت أخباره.. انقطعت الإعانات وأمسينا نعيش الكفاف.. عرفت من جدك أن قيادة الجبهة قد انقسمت بين موالٍ للسلطة وآخرين لا يزالون يعتصمون في أعالي الجبال منتظرين يوم وحدة الوطن.. وقلة قليلة غادروا إلى عدن.

بعد تلك الأحداث بدأت وأمي نتدبر متطلبات حياتنا من خلال ما يجود به جدك.. وما يصلنا من عائدات أرض أمي في القرية.

صغيري الحبيب..

مر الشتاء ولا شريك لك في حياتي.. أغسل بشرة بطني.. ألصقك بها عارية.. أدفّيك.. تعودت أن تنام على ذلك الوضع.. لا أتركك إلا للضرورة.. كنت أعتقد أنني مريم البتول.. وأنت عيسى ابن الله.. وأن مولدك معجزة.. أرى ذلك في عيون جدك.. في هديل صلواته.. لم ينقطع عن زياراتنا يوماً.. حين يصل يبحث عنك.. أول عمل يقوم به يحملك مبتسماً.. يتلو عليك: «المجد لله في الأعالي.. وعلى الأرض السلام.. وفي الناس البهجة...أنت ابني الحبيب.. بك سررت كل سرور».

ثم يضعك في مهدك الخشبي بهدوء ليلتفت حوله مبتسماً.

يتركك ليعود إليك يحملك من جديد بين كفيه.. يطوح بك نحو السماء مردداً صلواته عليك.. يظل يدور في ما يشبه دوران الصوفية.. ينظر في عينيك.. ينشد: «كن وديعاً يا بني في كل أعمالك، فيحبك الذين يرتضيهم الرب. تواضع كلما ازددت عظمة فتنال حظوة عند الرب. قدرة الرب عظيمة جداً ومع هذا بالمتواضعين يتمجد».. ومع كل نشيد وتلاوة تنفجر ضاحكاً.

حين تعود إليّ من مدرستك.. تحكي لي عن أقرانك وكيف يعيرونك بأبيك.. وذلك المعلم الذي يطلق عليك: «ابن المخرب» وحين تتعارك مع أحدهم ينبزك بابن الشيوعية.. وكثيراً ما تطرح عليّ أسئلتك: «أين أبي؟ من يشبه يا أماه؟ ولماذا لا يأتي؟». أبحث عن أجوبة لأسئلتك.. أصف لك تبعة بقلب المحبة.. أرسم له صفات الاكتمال.. أجعل منه عاصفة من الجمال.

طفل تشب يوماً بعد يوم وسط جو من الخوف.. كل من يتعرف إليك خارج البيت ينظر إليك بشماتة.. والبعض بتعالٍ.. والقلة بعطف وسخرية.. لا تعرف أباك.. ترسم ملامحه من خلال ما تسمعه من نعوت مهينة.. لتعود منكسراً.

حين تنام.. أفتح مصحف جدك وأتلو: «قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً* وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلوات والزكوات مادمت حيا* وبَراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا * والسلام علي يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعثُ حيا * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون».

وحيدي المتربع على عرش البعد.. قليلاً ما كنت أحس بالطمأنينة.. صراع مرير.. غياب قاس.. لقد جاهدت أن أكون لك الأم والأب.. أن أعوضك عن غياب جدك المتكرر.. أن أكون لك الأمان في أوقات الخوف.

كثيراً ما تعود من الشارع فأحتضنك.. أحاورك.. أعرف مدى إحساسك بقهر الآخرين.. حين يعاملونك كنكرة دون سند.. أحتويك.. أتذوق بلساني طعم دموعك.. أطرز وجهك بقبل كي أرضيك.. أعتصرك حتى تشعر بالحماية.. أخرج معك إلى الشارع.. أحاول أن أزرع في نفسك الشجاعة.. أن أزيل من قلبك الشعور بالخوف. كلماتك لا أفهمها.. تلوك الحروف باكياً.. تمزج صوتك بالصراخ.. أحاول أن أجاريك.. أن أبدو كمن تفهم كل حرف.. أهدهدك.. تشرق الابتسامة من ثنايا دموعك.. أخفي إحساسي بالإحباط.. ولا أتركك حتى تحلق ضاحكاً. أستمد من براءتك الأمل لغد أكثر أماناً وسلاماً.. أمنّي نفسي بأن السعادة تكمن في الأيام القادمة.. وأنك ستكبر لتأتي

على يديك السعادة والأمان اللذان افتقدناهما.

هذه أنا اليوم أنتظر عودتك من بغداد طبيباً.. أعشم عينيّ برؤياك.. وملامح وجهي بابتسامة محياك.. أحلم بأن تمد أناملك لتعالج جروحاً مزمنة بداخلي.. أن تبعد شبح لعنة الفراق لكل من أحب.. أنا على ثقة من أن أول الغيث هو أنت في كل شيء.

وحيدي القاسي.. تنقضي السنة الرابعة لوداعك.. واختفاء جدك يستمر.. والعام والنصف على مقتل زوجة جدك.. وهكذا بقية الأحداث تتوالى لتزيدني حزناً. ذكرياتي الحزينة سلسلة من الفقد.. خمينة.. فيدل.. تبعة.. أرتب الشهور.. وأستشهد بسنوات تنطق بندوب روحي.. ولا أدري كيف ترسم الأقدار أيامي.. فقط هو الأمل يرسم عودتك.. لن أتنازل أو أساوم القدر في ذلك.. عاد من كان قد سافر إلى بغداد.. فر سكانها والبعض بيننا هنا في صنعاء وأنت لا إجابة.. كل من يسألني عنك لا يصدق بأنك صامد هناك لإكمال دراستك رغم الحرب.

□ □ □

أحداث لقائي الأخير بأمي فطمينا تثقل كاهلي.. التقيتها بعد انقطاع طويل.. ضاق صدري بما في نفسي.. رغبة جامحة تدعوني لكتابة تلك الأحداث.. أود أن أكتب حتى أخفف عن وحدتي.. لم أحدد لمن أبوح.. شعرت وأنا أمسك القلم بأني أكتب إلى روحي.. أضحى علي أن أكتب فحسب.

قبل الموعد بدقائق أقف أمام الحمام القديم.. هي المرة الأولى التي أرتاده. أتأمل مبنى أفقياً أبيضاً.. قباباً بيضاء تعلوها ندوب زجاجية

ملونة.. في الزاوية أدخنة منبعثة.. أكوام العظام والروث.. كميات الرماد على حائط طويل.. حين كنت أسير بموازاة جداره في الأيام الماضية، ظل يمثل ارتياده لي حلماً.. سعادة لا توصف أن أذهب في صحبة من نوع خاص.. هي المرّة الأولى التي سأرى أمي فطمينا بعيداً عن فراشها.

وقفت أمام باب الحمام أنتظر قدومهن.. مشاة في كل اتجاه.. فتيات.. نساء من مختلف الأعمار.. حوانيت تعرض مناشف وفوطاً وملابس داخلية.. ليَف.. عطور.. كريمات.. مشروبات غازية.. باعة على الأرض.. متسولات افترشن أطفالهن.. ضجيج من كل مكان.. منازل طينية شاهقة.. أسلاك نحاسية معلقة.

وقفت سيارة بيضاء أمام الباب.. نزلت شخنما.... ثم أمي فطمينا.. خفق قلبي خجلاً.. تسير بخطوات بطيئة.. تئن أقدامها تحت ضغط جسمها المتكور.. تقدمت لمساعدتها.. دلو مليء بالملابس.. وأكياس أخرى.. لأول مرّة أحاول احتضانها واقفة.. ازداد حجم جسمها.. عاتبتني.. تخطو بصعوبة.. تقدمت شخنما نحوي مبتسمة.. هبطنا سلماً حجرياً معتماً.. عالم غريب.. جدران رطبة.. هواء دافئ.. أصوات متداخلة.. ضحكات. على ما يبدو الكل هنا يعرف شخنما.. الكل يحتفي بأمي فطمينا.. دخلنا بهواً دائرياً واسعاً.. قبة عالية يعلو تجويفها نتوءات زجاجية ينفذ منها الضوء.. مصاطب حجرية.. بركة ماء صافية.. نساء يلفهن البياض.. مباخر متقدة.. أبواب في عدة اتجاهات.. امرأة مسنة تلف حطب جسدها بمنشفة دبقة.. تستقبلها صبية بيضاء بفرح مصطنع.. تسير بخطوات مغناجة.. قبّلت كف أمي فطمينا..

ضباب دافئ يأتي من أبواب حجرية.. نساء يخرجن ليدخل غيرهن عبر تلك الأبواب.. ضحكات تأتي من جوف تلك السراديب.. خلعت حذائي حين رأيتهن يخلعن.. تخففت من ملابسي بعد أن قمن بذلك.. كنت أفعل ما يفعلن.. لكني فضلت أن أراقبهن. نساء من مختلف الأعمار يجلسن على مصاطب حجرية.. وبعضهن على الأرض الصمّاء.. مهرجان من الأكتاف والأعناق العارية.. البعض لففن شعُورهن.. والأكثر تركنه مبعثراً.. فناجين القهوة وقناني المشروبات الغازية.. كؤوس أوعية الماء البارد.. كنت مذهولة لهذا العالم!! اضطجعت أمي فطمينا بجسدها المترهل.. يدبغن شعر رأسها بالزيت.. ثم أطرافها.. جسدها من زاويتي أراه كتلة لحمية مفلطحة.

شخنما تشاركهن تدليك سيدتها.. التفتت أمي فطمينا بابتسامة باردة.

ـ لقد جئت من أجلك.. هيا شاركينا!

التفتن جميعهن إلي.. الجميع لهن نظرات متشابهة.. لا أعرف ما أقول.. نطقت:

ـ هذا لطف منك.. وأنا جئت ملبية لدعوتك الكريمة.

ـ هيا اخلعي ملابسك وسلمي جسمك لمن يحسن تدليله!

تمترست صامتة.. حياة لتقاليد مختلفة.. فسحة لنساء المدينة.. ولذوي الرغبات الحميمة.. تلتقي فيه اللطيفات.. وتتماهى العلاقات.

كنت أبحث عما كانت تقوله لي خمينة.. أبحث عن صوتها.

لفت انتباهي تلك السواعد المنهمكة بدلك جبل جسم أمي

فطمينا.. تخور تحت وقع قبضات أيديهن.. وتارة تغط وتشخر.. تتلفظ بكلمات وشتائم تضحك من حولها. المرأة اليابسة تحمل صينية.. أوعية صغيرة.. قوارير.

ـ اليوم نحتفل بزيارة صبيتنا اللطيفة فطمينا.

تضحك ملء شدقيها.. تصفق النساء.. يتداخل الهمس.. وكؤوس الشراب.. فناجين القهوة.. أغصان القات.. روائح النارجيلة.. أطباق الكعك والحلوى الصنعانية.

حملت إحداهن دُفاً.. نقرت بأناملها.. بدأت بالصلاة على النبي.. بينما رؤوس الصبايا تهتز طرباً وقد أسبلن جفونهن. وقفت صبية بصوتها الرقيق.. ارتفع أكثر.. أغمضت عينيها منتشية.. أخرى أخرجت طبلة صغيرة.. وثالثة تتمايل راقصة.. انبرت صبية أخرى ترتعش في دلال.. ثانية وثالثة.. اكتملت الدائرة.. امتلأت قبة البهو أصواتاً وأجساداً.. أدخنة البخور المتصاعد.. أكف تصفق.. وكؤوس الشراب تدور.

جسدي يتفصد عرقاً.. دفعت إحداهن شخنما إلى دائرة الرقص.. شجعنها بالتصفيق.. اهتز قوامها في تناسق.. تبعثرت نظراتهن.. ترتج أردافها مع كل حركة.. صدرها الرغد النافر.. أذرعها وسيقانها.. تلاطفها الصبايا بهمسات التشجيع.. لا أدري كيف تولدت لدي مشاعر الغيرة.. هي المرة الأولى التي يشدني جسد أنثى.. كنت أصارع مشاعري المتناقضة.. أتابع حركات جسدها.. ردود أفعالهن.. كلماتهن تخدش الحياء.. قطرات العرق على أكتافها.. ظهرها.. بشرة بطنها.. أفخاذها.. لم يتبقَّ من جسمها غير تلك القطعة الرطبة التي تستر عانتها.. كنت في كرب شديد مما حولي.

رفعت المرأة المتيبسة ذراعها لتصمت المغنيات وتهدأ الدفوف.. خلْت طقوس الحمام انتهت.. لكن صوت أمي فطمينا أرتفع من جديد:

ــ هيا يا بنات إلى أحواض الحمام.

تساءلت في سرّي:

ــ أي أحواض؟

يبدو أنها سمعتني.. التفتت قائلة:

ــ شاركينا.. لا تقفي هكذا.. معيب أن نتركك وحيدة.

ــ سأتبعكن.

اكتشفت أن كل ذلك الغناء والرقص ما هو إلا مقدمة لطقوس أكثر إثارة. دخلنا ما يشبه السرداب.. ممر حجري ملتو.. عرفت بعدها أن للحمام مجاهل سفلية وممرات.. وحُجراً واسعة.. سارت أمي فطمينا في ممر معتم على إيقاع الدفوف.. يحطن بها من كل جانب.. زفة بطيئة.. تتقدمنا حاملات المباخر.. تبعتهن.. ممر ساخن رطب يفضي إلى حجرة امتلأت بذرات الضباب.. لا تنفذ الأصوات من هذه الحجر.. كل شيء هنا معتم وحار.. أحجار سوداء.. الأرضيات.. الجدران.. الأعمدة القباب.. مياه ساخنة تتدفق إلى أحواض الزوايا.. تناثرت الأجساد حول الأحواض الرخامية.. وعلى مصاطب وردية.. همس الزوايا.. أصوات العتمة.. قرقعة أكواز الماء.. الأحجار تحت أقدامي تزداد صلابة.. الضباب يحجب كل شيء.

نساء كالحلم.. هالة ساحرة تجعل كل من في الحمام صبايا.

صغيرات.. حتى أمي فطمينا.. الضباب يخلع على الأجساد ملمس الزبدة.. الكل عاريات.. البعض تركن صنابير المياه تتدفق على أجسادهن والبقية تمددن أرضاً.. لم أكن أتوقع عزلة كتلك.

اتكأت أمي فطمينا على الجدار.

أصبحن موزاً منزوع القشر.. شعرت بالتقزز والغثيان من منظر جسدي الضامر.. أسقطت شخنما تلك الخرقة الرطبة من على عانتها دون اكتراث.. لحقتها الصبايا.. قرأت الفاتحة.. قل هو الله أحد.. ابتعدت عن عيونهن.. استجرت بظلام الزاوية البعيدة.. الكل مشغولٌ بملذاته.

صدح صوت شجي على إيقاع دف.. حلقن حوله.. تشابكت السواعد في دائرة دون ملامح.. رقصاً عنيفاً.. عرفت أن ذلك من طقوس الحمية وتهيئة الأجساد لطرد سوائل الأجساد.. رددن بعد المغنية بنفس اللحن بعد كل مقطع.. كان إيقاع الدف يزداد سرعة وحركتهن أيضاً.. كؤوس الشراب تدور.. تجرعت الأول.. الثاني.. الثالث.

منظر لم أعهده جعلني أتذكر أنوثتي.. مناظر تثير في رغبات مكبوتة.. تزرع برأسي نشوة لذيذة.. أثداء عتيقة تتدلى في ضمور.. وأخرى شابة تهتز في خفر.. مؤخرات ترتج.. أصوات تناغي بعضها.. شعر يتدفق إلى الأرداف.. انحناءات لينة.. أجساد مطواعة.. خطوات شخنما الراقصة تثير فيَّ الخجل.. حين ترفع ذراعيها يشمخ ثدياها.. تتلاعب بساقيها في حركة راقصة.. تلتفت إليّ بنظرات نشوى.. تمسك بيدي.. تمسح بكفيها مؤخرتها. أنثى لا ينقصها الخيال.. لا أعلم لمَ ينفّرني جسدها.. كتفاها..

خصرها.. ردفاها.. فخذاها.. بطنها الغائر.. أضلاعها.. أنظر إلى جسدي الهزيل.

سألت نفسي: هل بداخل الأنثى تختفي بقايا ذكر؟ أتأملها وأنا منكرة على نفسي تلك الإثارة.. أتمنى على ذلك الجسد أن لا يستنفد سحره.. تأملتها أكثر.. لم تكن هي تلك الصبية التي أعرفها.. وجهها يبتسم.. تغمز.. تصرخ في دلال.. ولم أعد تلك المرأة التي أتيت إلى هنا.. بياض جسدها يعبق بحمرة طافحة.. ثدياها كرتان متماسكتان.. قدماها الصغيرتان ترتفعان في دلال.. تقاطيعها الصبيانية تثيرني.

ـ من يصعد بأقدامه؟.

جاء صوت أمي فطمينا مستنجداً. صمت كل شيء.. صعدت بعض الصبايا على ظهرها.. أقدام الصبايا تنزلق تحت رقبة عريضة.. تصل الأكتاف.. العمود الفقري.. أسفل الظهر.. الأفخاذ.. الركب.

ـ أين سمبرية؟

كنت أخشى ذلك النداء.. خطوت نحوها.

ـ هذه أنا.

التفتت من على وجه الأرض.

ـ لا تخجلي.. شاركيهن.

كنت في خدر لا يوصف.. نسيت عريي.. لم أعد أخجل.. عيناي تستكشفان ذلك الجسد المتكور تحت الأقدام الصغيرة:

ـ أين الزيت؟

بمرحٍ صبَّت إحدى الصبايا خيطاً لزجاً من قنينة صغيرة.. ينساب من جنبات جسمها الضخم.. إلى خصرها العريض إلى أكتافها.. أكفنا عملت على عصر كل جزء في ذلك الجسد.. رهبة المنظر حين استوت على ظهرها.. وأضحى وجهها نحونا. صبَّت الصبية زيتها فوق الأثداء المفلطحة.. البطن المنبعجة.. فخذها.. أصابعنا تعتصر سمنتها.. صوتها يتأوه.. الأكف تعمل بنشاط.. انفرج فخذاها.. دغل محروق.. كانت أصابع شخنما قد انزلقت بي إلى ذلك الشرخ.. كنت أعتقد بأنني أنثى فحسب.. انهارت قناعاتي.. أشعر بأن داخلي يختبئ فحل بليد. دون وعي سال فمي قطرات على سرَّة أمي فطمينا.. تسمرت مذهولة وقد مدت أصابعها أعلى ساقي.. ظننتها تتوكأ لتستوي على بطنها.. لكن أصابعها كانت تتسلق.. سرت فيَّ قشعريرة باردة.. وصلت أصابعها أعلى فخذي.. خانتني ساقاي.. انهارت مقاومتي.. جفلت حين امتدت أصابعها تداعب عانتي.. أغمضت عينيّ.. انهرت راكعة.. تكومت أجسادهن حول جسدي.. سرحت في نشوة تضاهي يوم الشلال يوم يوم قفزنا عرايا.

شعور جارف بالنشوة.. أن تلتقي عيناي بعيني فطمينا.. لم تعد تهمني أعينهن.. فقط أشتهي صديقتي شخنما.. عينا فطمينا تطاردان عينيّ.. لحظات من المطاردة..

مجموعة من الصبايا مددني بين أيديهن.. سكبت فطمينا خليطاً من زيوت زكية الرائحة.. دلكت بشرتي كما لو كانت طبيبة.. حاولت التحكم بنفسي.. استرقت النظر.. أنامل شخنما تجوس بشرتي.. همس ماجن.. فقدت السيطرة على خجلي.. انكفأت

على جسدي.. تهمس في أذني بكلمات لا يجيدها أفحش الذكور.. كلمات تستثير غرائزي.. تدعوني إلى تقليدها.. اهتزت مسامات روحي.. مشاعر مجنونة تملكت كل حواسي.. فتحت عينيَّ.. لقد غيَّرتني اللحظات.. قبيل الحمام لم أتخيل منها تلك التصرفات.. وفي لحظات جعلتني أدرك أني إنسانة لا أعرف حتى نفسي.. بدأت الكلمات تتدفق من شفتي أجزل مما كانت تتفوه به.. أرى ابتسامة على وجهها.. في لحظات تجاوزت بي عوالم لم أكن قد فكرت فيها يوماً.. وقفت.. أشارت شخنما بالجلوس مواجهة لها.. همست لي وهي تتأمل عيني:

ـ هل زال الخجل؟.

رددت عليها وكلي خجل:

ـ انسكب حبك في كياني.

ـ أنا على يقين من أنك الآن بخير.

ـ بل أكثر من ذلك. وأجزل من أن أصفه بالعشق. أنت قديسة.

ـ أنت بحاجة إلى مثل هذه المشاعر.. بحاجة إلى أن تكتشفي ملذَّات روحك.. وأن تنظري إلى ما حولك من عدَّة زوايا.. الحقيقة لها عدَّة أوجه.

ـ أزلتِ عتمة مشاعري.. نقيت غبش يقيني عززتِ إيماني.

أشارت علي أن أفصل بين مشاعر الأمس واللحظة.. كما لو أني كائن ولدت للتو. كنت أناقض نفسي.. التصقت بها من جديد.. أوصلتني إلى مرحلة متقدمة من الوجد والتوحد.. خفق قلبي مما أنا

فيه.. لكن صوت فطمينا حسم الموقف:

ـ شخنما.

ـ أوواه.. ما بالكم تفسدون ما بيننا!

ـ تلطفي بها.. أمامك كائن في بدايات عطاء الروح وفيض المتعة.

أخذت بيدي.. سرنا وحيدتين إلى سرداب آخر.. اختفينا عن أعين الكل.. تهنا في ضباب متعتنا الأولى.. كانت روحي تتوق إلى مساحات من الإشباع. تلك اللحظات جعلتني أعيد تركيب مفاهيمي.. أكتشف عوالم لم أكن لأدركها لو لم أعش تلك اللزوجة.. حجرة جانبية.. تمنيت أن أظل في حيوات تلك اللذة. لم أتصور أن تفجر شبقي امرأة.. أحلامي على مر السنوات الماضية تدور حول أن يعتليني رجل.. أن يحيلني إلى شلالات من المتعة.. لكني لم أتصور أنثى.. لقد تناغم كل أجزاء جسدي.. أيقنت أن شخنما تدرك ضراوة مفاتنها.. وسح نظراتها.. ألقمتني صدرها.. تحولت إلى فرس محيل.. ضحكات نشوى.. تتهادى بين فينة وأخرى.. أرجاء الممرات.. الحجر الأسطوانية.. أرواح تلتقي بين الحلم والنشوة.

شخنما وضعتني على عتبة إحساس لم آلفه.. كنت أعتقد أنها جاهلة.. هذه الدقائق سلّطت أضواءها على قلبي.. علمتني أن الإنسان أي إنسان ليس بشكله ولا بعمله.. ولا بما يملكه وما لا يملكه.. الإنسان جوهر.. ولا يمكن إدراكه إلّا نزعنا كل فواصلنا وأغشيتنا.. كل أقنعتنا.. واليوم أزلت كل ما يفصلني عن جوهري.. لقد شعرت بذلك الجوهر الذي أفتقده.

اقتربت.. مددتني من جديد.. حولتني إلى وليمة لمفاتنها.. لم يعد لدرجة حرارة أحجار الأرض من معنى.. أصبحت في هامش لا تنطبق معه القياسات المتعارف علها.. تناسخت حواسها.. أعضاؤها.. تقربني من عليائها.. ذلك الوجه حنطي اللون.. ملائكي الملامح.. الشعر المبلل بالنشوة.. عطر إبطيها.. صدر يخترق جدران حرماني.. ريش أضلاعها.. إيقاع حركاتها.. يرقص.. يلهث.. أغمض عيني.. أفتحها على مساحات من فتنة الروح ووجد الأنفاس.. تهمس.. توشوشني.. تسمعني أحلى كلام.

لم يعد من أحد.. ضحكات تتهادى من بعيد.. تحملها ذرّات الضباب وروائح العطور.. قالت:

ـ أن نكون خلف الجدران وحيدتين.. فهذا ما يرفعنا إلى بلوغ ما نبتغيه!.

ـ لم أفهم!!

ـ علينا بالتحليق إلى تضوع البهاء.. جسدي الذي يغويك هنالك ما أغوى.. ما هو أشد من السحر!!

18

شخنمنا

لم أسأل فطمينا أثناء وجودنا معاً في الحمام عن أي موضوع.. لقد قضينا ما يشبه الحلم.. لكنها علمتني أسلوباً مختلفاً للحوار.

دهمني شعور مخيف.. شعور من فقدت توازنها.. من تقف على مفترق طرق.. قيم تهتز.. ومشاعر تتوالد.. أجلس إلى أمي بشعور مغاير.. أنظر إلى من حولي بمشاعر مختلفة.. أسير في الشوارع بقلب جديد.. أتأمل العابرات كما لو لم أعد أنثى.. أعشق تقاطيع بعض الأجساد.. شفاه وجه أسمر.. صدراً في طور تبرعمه.. أسير بين الجموع بنظرات مختلفة.. أسأل نفسي: ماذا لو تجاوزت النساء عقد الجسد بالمزيد من تدليله؟.

تعددت جلسات الحمام.. اتسعت دائرة صداقاتي.. طرحت على بعض النسوة تكوين جمعية نسوية تُعنَى بشؤون المرأة.. وتنشط بتدريب الفتيات على مهارات جديدة.. منها فن التطريز. والخياطة.. ومهارات أخرى.

وعدتني فطمينا بالدعم المادي.. شكلنا الجمعية من صديقاتنا الحميمات.. اتفقنا على أن أكون أنا وشخنما المسؤولتين عن تسيير أنشطة الجمعية.

انتظمت زيارات شخنما لي.. نصعد غرفتنا العلوية.. نقضي معظم ليالينا معاً.. نبتدع نشوتنا.. نتجاوز في أحاديثنا إلى همومنا الخاصة.. تستمع إلي بسعادة.. تجاذبني الحديث.. يتفرع الكلام ليأخذ منحى آخر.. نترك لأجسادنا فسحة من الإغواء.. لا نطفئ السراج.. يتحول الضوء إلى خيوط شبقة.. خدر الكلمات المغناة.. اللمسات المرتعشة.. تجوس ألسنتنا ما شاء لها من اللذة.. يسيل لعاب أجسادنا.. تفرد أرواحنا ذروة أجنحتها.. تبلغ أفق النشوة.. تغمض بأجسادنا شعلة الظلمة.

اخترنا للجمعية مقراً مجاوراً لمنزلنا في صنعاء القديمة.. سميناها (جمعية خمينة النسوية).. نفذنا دورات منتظمة.. عدة أشهر اتسعت خلالها أنشطة الجمعية لتشمل تنظيم دورات في مجال اللغة الإنكليزية.. مبادئ فن الرسم.. والتجميل.. وفن الرقص.

همّ البحث عن خالي يسكنني.. وكانت شخنما تشاركني الهم ذاته.. شرحت لها تفاصيل ما توصلت إليه في بحثي.. عرضت عليها ما يمكن أن يساعدنا في مواصلة البحث.. الأجزاء المنزوعة من المصحف الأحمر.. الممزقة والمطموسة.. ما وجدته في ذلك اليوم من الأناجيل المفقودة.. شرحت لها أسباب مقاطعتي لبيت فطمينا.

كنت بحاجة إلى من يقول لي أين أقف.. وماذا يجب عمله.. لم يعد ما أخفيه عليها.. أمست أقرب الناس إلى قلبي.. كان حبها

قد وصل حدود اللاعودة.. فاجأني حين عرضت عليَّ الزواج.. احتضنتها صارخة بفرح:

ـ لكنني لم أسمع بمثل هذا.. ثم أنا على ذمة رجل!!

قالت لي في خجل:

ـ لا أريد لك أن تخدعيني مع أخرى!

ـ أنا التي أحتاج لك.. لن أتركك أو أخدعك!!

ـ أقسمي.

ـ أقسم.

ـ لا يكفي.. ولن أقتنع إلا إذا تعاهدنا على أن تكوني أنتِ فيها الرجل!!

□ □ □

عزيزي..

عرضت شخنما عليَّ مشاركتي البحث عن جدك.. أسعدني عرضها.. شرحت لها كل ما توصلت إليه.. وما بيدي من أدلة. قررنا البدء بذلك الشحاذ الذي يجول بمبخرته أسواق صنعاء القديمة.. تنكرت بزي ذكوري وهي ظلت أنثى.. خرجنا ننتظر مروره عند زاوية الشارع المتفرع من سوق البز وسوق العطارة.. الشمس لا تزال في ربع قوسها.. حين رأته بنفسج قادماً من رأس الشارع، أشارت عليَّ:

ـ انظري هناك من القادم!

تبعناه.. سمعت صاحب حانوت بـ(مولانا).. تكرر النداء وهو يخرج من السوق عبر أزقة حي (الأبهر) ثم السائلة وباب السبح.. ليستقر بمقهى أمام قبة المتوكل بميدان التحرير. جلسنا على مقعد مجاور نرقبه.. وضع مبخرته فوق الطاولة.. رفع رأسه.. ينقل نظره بين مارد الثورة ودار الشكر.. يرتشف شاياً من بقايا علبة قسطير.. أخرج حفنة من العملة المعدنية.. وضعها أمامه.. يتلفت حوله.. انصرفنا بنظراتنا بعيداً حتى لا يتضايق.. أكمل إحصاء حصيلته.. عاد طالباً شاياً.. أثناء ذلك كنت أفتش بذاكرتي عن ذلك الاسم.. حين سمعت اسم (مولانا) رجف قلبي.. بحثت في الماضي.. تذكرته لقد ورد في رسائل تبعة.. أيكون هو؟ تأملته.. احتجت بعض الوقت حتى تجرأت على الاقتراب منه.. جلست قبالته.. رمقني بنظرة فاحصة وغمغم:

ـ الله يصرف عنا حمق الأوباش.

ثم نظر بعيداً.. حاولت أن أرسم ابتسامة على وجهي، أدركت أنني استثرته بتطفلي.. قلت له بصوت هادئ:

ـ كيف الصحة؟

ـ...!

ـ أرجو أن لا أكون قد أزعجتك!

ـ أتعتبر الحشرية لطفاً!!

ـ أستغفر الله.. وأعتذر إن كنت قد ضايقتك.

ـ فقط أسألك.. ماذا تريد.. إن كان عندك لِله أعطني؟

قررت أن أجرب لفظ ما سمعتهم يطلقون عليه:

ـ عفواً يا مولانا.. لا أقصد مضايقتك.. هل تسمح لي بالحديث إليك؟.

ـ إن كنت مصمماً تفضل.

التفت بعيداً في ضيق.. كنت أنا قد وجدت نفسي منقادة في كلامي.. شعرت بأنه رجل غريب بعض الشيء.. وقد تخلص مما كنت أعتقد أنه مصاب بتخلف عقلي.. لاحظ النظرات المتبادلة بيني وبين شخنما.. قال لي في توجس:

ـ هل تلك الفتاة معك؟

ـ نعم هي زوجتي!

عاد بعينيه إليَّ كمن يستعجل الانصراف.. قررت أن أكشف جزءاً من أوراقي.. دنوت برأسي.. اتكأت على سطح الطاولة احتضنت وجهي بين كفي.. خفضت من صوتي:

ـ اسمح لي أن أحكي لك بعض همومي..

نظر إلى ملامحي في حذر وريبة صامتاً.. تابعت أنا حديثي بسؤال آخر.

ـ هل تتذكر أنك يوماً قد تعرفت على شاب باسم تبعة أو أبي حنظلة؟

صمتّ وأنا أتابع وقع السؤال على ملامحه.. أنتظر ردة فعله.. اتسع صمت عينيه.. حاول يناور.

ـ أبو حنظلة.. تبعة!! قد يصادف الإنسان العديد من الشخصيات في حياته بمثل هذا الاسم أو نفس الكنية.. لا أستطيع أن أجزم بذلك.. لكن قل لي من أنت؟ وماذا تريد مما طرحت؟. لقد طلبت مني أن أساعدك بينما لم تلزم نفسك بشيء.

أدركت من نبرة صوته أن من أمامي هو (مولانا) نفسه الذي ذكره تبعة في رسائله ولا أحد سواه.. وأن اسم تبعة.. أبي حنظلة قد أثاره.. قلت له بصوت ملؤه الرجاء:

ـ أنا ابن أخت العطوي.. الذي هو والد تبعة.. وأعتقد أنك عرفته في عام ١٩٧٨.

فجأة أزاح وجهه بعيداً كمن شعر بالاختناق.. تذكرت أن بعض رسائل تبعة في جيبي.. أخرجت إحداها فردتها أمامه.. واصلت حديثي:

ـ أرجو أن تقرأ هذه.

التقط الورقة.. قربها من وجهه.. كنت أحاول أن أستنتج مشاعره.. ماذا لو خاب حدسي ولم يكن (مولانا) الذي أظنه هو؟ ماذا لو كان هو ليس (مولانا).. وتصنع أنه هو؟ كيف أعرف صدقه من كذبه؟ حين أكمل قراءة الورقة.. أخذ يطويها وهو ينظر إلي قائلاً:

ـ من أنت بالتحديد؟

ـ أنا ابن عمة تبعة الغائب في عدن منذ سنوات.. وقد ترك خلفه زوجة وابناً.. ولا يعلم أن والده يتعرض لمحنة السجن منذ أربع سنوات!.

ـ أين بقية الرسالة؟

ـ لدي.

ـ وما هو المطلوب من رجل مسن مثلي؟

ـ إن كنت (مولانا) الذي أقصده يمكنك أن تفعل الكثير لمساعدتنا.

ـ وما يمكنني فعله.. افترض أنني مولاكم!

ـ تستطيع أن تساعدنا. ويمكنك أن تشاركنا في حل متاهة نعيشها.

ـ وضّح أكثر.

ـ سأحكي لك حتى تتخلص من شكوكك.. خالي اختُطف منذ أربع سنوات.. ولا نعرف مكانه.. وهذا البخور الذي تستخدمه هو أحد الخيوط التي قد تمكننا من الوصول إلى مكان احتجازه!

ـ وبعد.

كمن يقفز في الظلام.. قررت المغامرة في التوضيح أكثر.. وجدت نفسي مجبرة على كشف المزيد من أوراقي.. أخرجت قطعة القماش الذي وجدتها في بيت فطمينا. وقلت له:

ـ لا نعرف لخالي مكاناً.. لكننا وجدنا قماش هذا الكيس الصغير.. له نفس رائحة بخورك.. وجدنا بداخله بعض أوراق مصحفه الذي كان معه.. هل اتضح لك الأمر؟

وضعت ذلك الكيس الصغير بين أصابعه.. أغمض عينيه يستنشق رائحته.. أخذ يتفحصه باهتمام.. صمت قليلاً ثم قال بصوت منخفض:

ـ الآن اتضح لي أنك لا تخادع.. وأستطيع أن أدلك على بعض ما ينير لك الطريق.. هذا البخور خاص بالمسجد المقدس.. يتم جلب البخور من جزيرة سقطرة.. وقماش ذلك الكيس الصغير يوفره للمسجد تاجر في سوق البز اسمه يوسف لاستخدامه كأكفان للموتى.. ويعرفه الجميع باسم (المريكني).

شجعني حديثه على أن أحكي له المزيد.. قلت له:

ـ تسللت إلى داخل المسجد المقدس قبل أيام.. رأيت رجلاً أعرج يقوم بخدمة المسجد.. يشعل المواقد والمباخر.. يعتني بالحجر الملحقة وبقماش الأكفان.

ـ ذلك الرجل هو مجرد حارس (سنيدار).. لكنني أعرف الكثير من أسرار المسجد.. فلي بذلك الأعرج معرفة.. يدعوني إلى المبيت معه بعض الليالي.. أقوم ببعض خدماتي له.. بالمقابل يزودني بما أحتاج له من بخور.. وقد لاحظت أن هناك من يأتون بهم مكبلين في أواخر الليالي.. يعقدون لهم جلسات سرية.. يقوم مجموعة من الفقهاء بمحاولات استتابتهم.. بعد أن يتحققوا من درجة انحرافهم.. يجوز أن العطوي من بين من أتوا بهم إلى المسجد.

قلت له وروحي تتوق إلى المزيد من المعلومات:

ـ وجدت بعض ملابس خالي بداخل تلك الغرف أثناء بحثي عنه.

ـ متى؟

ـ في لحظات تسللت إلى داخل الملحق الداخلي للمسجد.. ووجدتها بين مجموعة من الملابس بداخل إحدى الحجر الداخلية.

ـ أمتأكد؟

ـ متأكد.

ـ إذاً هو ضمن من اقتادوهم لجلسات الاستتابة في المسجد.

ـ ها قد اتضح لك ما نحن فيه.

ـ وماذا يمكنني فعله؟

ـ أن تساعدنا في الوصول إلى حقيقة مصير خالي.

ـ سأحاول أن أبحث عن أدله بداخل ملاحق المسجد.. قد يكون محجوزاً في أحد السراديب!!

ـ ومتى نراك؟

ـ بعد أسبوعين.. هنا في مثل هذا الوقت.

أحسست بأن كلماته صادقة.. انصرف من دون أن يودعنا.. سرت أسأل شخنما:

ـ هل نستطيع إنقاذ خالي أم أنهم قتلوه؟

ـ اليوم كسبنا صديقاً جديداً.. سنتعاون للوصول إلى الحقيقة.

ـ أنا على يقين من أنه سينجح في ما نوى عليه.

وحيدي..

ارتفع صوت مؤذن مسجد قبة المتوكل إيذاناً بدخول صلاة الظهر. كنا قد حضرنا في الموعد الذي ضربه لنا مولانا.. نترصد قدومه.

الوقت يمر.. نتفرس في الوجوه القادمة عله يكون أحدهم.. ارتفع صوت مؤذن صلاة العصر دون جدوى.. انصرفنا صامتتين.. بداخلي تعتمل الأسئلة تلو الأسئلة.

طفنا الأسواق.. أزقة صنعاء القديمة.. ننتظر المقهى.. لم نهتد إلى وجوده.. سألناه أصحاب الحوانيت.. صاحب المقهى.. كل الأجوبة واحدة.. لم يروه منذ نصف شهر.

طرأت لنا فكرة.. أن نقوم بزيارة يوسف المريكني الذي ذكره لنا (مولانا).. رجل في العقد الخامس.. يقبع داخل حانوت صغير مكدس بالأقمشة والخيوط.. ودود.. مبتسم على الدوام.. سألناه عن (مولانا).. فكان الرد الذي سمعناه من أصحاب الحوانيت.. نصحنا بأن نزور سنيدار الجامع المقدس.. ونسأله عن (مولانا).. فهو صديقه ولن نجد أخباره إلا لديه.. وصفه لنا بالأعرج.. الذي يسير على ساق معدنية.

استأذناه.. سرنا تائهتين.. قالت شخنما:

ـ احتمال أنهم قتلوه!

وجف قلبي لعبارتها.. سألتها:

ـ وعلامَ يقتلونه؟

ـ لا أعرف لكنني قلت احتمال!

اتفقت وشخنما أن نقضي الليل معاً.. كنت محبطة وقلبي منقبض.. بحثنا عن أسباب اختفاء (مولانا).. وفي ما يجب فعله.. طرحت عليها فكرة التسلل إلى داخل المسجد المقدس.. أن نبحث عن تلك السراديب التي ذكرها لنا (مولانا). قالت متوجسة:

ـ والأعرج.. ذو الساق المعدنية!

ـ سنتحين فرصة خروجه إلى أروقة المسجد.. وحينها نتسلل إلى الحجر الملحقة!

ـ وإذا باغتنا بعودته؟

ـ لا تكتفي بطرح الأسئلة.. فكري معي.

ـ يجب أن نستعد لأسوأ الاحتمالات.. أن نصطحب ما يساعدنا على إنجاح مهمتنا.

ـ مثل ماذا؟

ـ حبال لتكبيله.. سكاكين للدفاع عن أنفسنا.. كيس لإخفاء ما نريد حمله.. قطعة قماش لتكميمه.. مخدر لشل وعيه.. مطرقة لكسر قفل ما.. هيا فكري معي حتى لا تتحول مغامرتنا إلى حماقة.

لم ننم ليلتها.. ارتدينا أزياء ذكورية.. حملنا ما نحتاج له.. خرجنا قبيل صلاة الفجر.. أضواء الأزقة باردة.. أحجار الأزقة عارية.. هدوء مخيف.. الدور صامتة.. المساجد تردد أدعية ناعسة.. نتنفس بخاراً أبيض.. وصلنا بوابة المسجد المقدس.. قلة من كبار السن.. دخلنا دفء الأروقة.. عبرنا الرواق الخلفي.. رائحة البخور تسافر في كل الزوايا.. الباب الداخلي للملحق مقفل.. انتظرنا جانباً نصلي.. لم يطل بنا المقام خرج بعكازه المعدنية.. أصداء الأذان تضفي على تجاويف المسجد رهبة.. أبتعد.. تسللنا بهدوء.. أنوار حجرة الأكفان خافتة.. عبرت وشخنما تتبعني إلى الممر الطويل.. استكشفنا الغرفة الجانبية.. روائح عطنة تنفست بعمق.

ـ تجاوزنا أبواباً عديدة حتى نهاية الممر.. عدة حجر مهملة.. باباً خشبياً سميكاً.. فتحناه.. درجات متربة تقودنا نحو الأسفل.. ظلام ممزوج بصمت مخيف.. خليط من الروائح العفنة.. أشعلنا شمعة.. فضاء سفلي دون حدود.. أعشاش العنكبوت تتدلى من السقوف.. خطونا بحذر على درجات غطتها الأتربة.. أتلمس مفتاحاً لنور مفترض.. ارتعشت أصابعي خوفاً.. رعب يتخلل رأسي.. هبطنا أكثر في درجات لا تنتهي.. أفق من الظلمة لم نتبين نهايتها.. جدران من الصخر الخشن الأخضر.. أعمدة منبعجة.. الكلس يرسم خرائط صامتة على الجدران.. فراغ يبهر العيون.. روائح خانقة.. جلت بنظري.. فراغ يمتد بعيداً دون نهاية.. زوايا بعيدة لا يصلها الضوء.. اكتشفنا بوابة ذات لون برونزي إلى شمالنا.. أشعر ببرد الخوف.

ثلاث فتحات كبيرة في الجدار الأيمن.. خطونا على أرض ترابية ناعمة.. حجرة في زاوية قريبة.. كومة من الملابس والأوراق.. اقتربنا.. نسيج العناكب يأخذ مداه. في على امتداد النظر.. كميات من الرماد.. استخدمت أصابعي لتقليبها.. خليط الرماد بقايا أوراق وملابس محروقة.. أغلفة جلدية.. نبشت برفق.. التقطت بعضها.. تأملتها.. تملكتني الدهشة.. بقايا أوراق وأغلفة.. وشيء ما يشبه بقايا ذلك الجزء من المصحف الأحمر.. رقوق التوراة وقد أكلت بعضها النار!! بقايا شعر.. يا لفجيعتي.. عظام محروقة.. انتصبت مرعوبة.. أتخيل صراخ جدك وقد شبت النار في أطرافه.. نظراته تستنجد.. (مولانا).. واللهب يأكل صوته.

بيوت العناكب تسيطر على فضاء واسع..

إصبع الشمع الوحيد يكاد ينتهي.. الوقت يمر.. لا نسمع شيئاً.. لا

نعرف إن كان المصلون قد أنهوا صلاتهم.. هل لا يزال ذو الساق المعدنية يدور بين المصلين بمبخرته الكبيرة..؟ لا أسمع غير جريان الدماء في عروقي.. أنفاس شخنما.. صدى أقدامنا.. صعدنا نحمل عظاما ورقوقاً محروقة.. همست شخنما: «ماذا لو فتحنا ذلك الباب القريب؟» التفتّ أستحثها على اللحاق بي. كان وجهها جامداً.. تتحرك كما لو أنها امرأة آلية.. لم يعد لي من قدرة على التفكير.. أشعر بتسارع خفقان قلبها.. عدنا نرهف الصمت.. قلت لها وأنا أهز كتفيها بعنف:

ـ هيا نخرج من هذا التابوت الكبير.

ركضنا صاعدات برعب أفكارنا.. عند الباب نلهث.. وقفنا نصيخ السمع.. لا يزال الصمت يسيطر على الملحق.. كنا في بداية الممر العلوي.. هدوء غريب.. خطونا بحذر.. الحجرة الأولى لا أحد.. الثانية والثالثة.. كل شيء كما كان قبل أن نهبط.. وصلنا حجرة الأكفان.. فوجئنا بالباب مغلقاً من الداخل!! اقتربت لأزيل المزلاج في ارتباك.. ارتفع صوت من خلفي:

ـ إلى أين أيها الطفيليون؟

أشعل ذلك الصوت الذعر في كياني.. التفتّ.. كان ذو الساق المعدنية رافعاً عكازه في الهواء.. كوبرا تهم بالانقضاض.. التصقنا بالجدار.. تركت الكيس يقع.. هوى بعكازه حاولت حماية رأسي بذراعي.. امتلأت نفسي إرادة بالمقاومة.. كنت أطول منه.. قفزت عليه.. ألقاني أرضاً.. اعتلى صدري.. غرز أصابع كفيه في رقبتي.. أستغيث بشخنما.. كاد يكتم أنفاسي.. أقدامي ترفس الهواء.. تحفزت ذاكرتي.. شريط الحياة يمر سريعاً.. لا أعرف لماذا تركته

يخنقني؟. انقطعت أنفاسي.. لم يكمل مهمته حين رأيت وجهها معلقاً في فضاء واسع.. مدت كفيها من خلفه.. كممته بقطعة قماش أسود مشبعة بالمخدر.. وجدتها تعاركه بذراعيها.. لانت أصابعه بعد أن ترك رقبتي.. استعدت وعيي.. تهاوى يهذي من تأثير المخدر.. أين أنااااه!!

تذكرت خبرتي في حزم الحطب.. تعاونّا في سحب ذراعيه.. آثار أظافري على وجهه.. الشعور بالموت جعلني أقاتل بلا وعي.. ربطنا كفيه خلف ظهره.. كانت عيناه منفرجتين.. أحكمنا الحبل حول خصره وذراعيه.. تركنا ساقه الوحيدة.. شرعت شخنما في تكميم فمه.

نقلناه إلى غرفة داخلية.. طاولة وعدة مقاعد.. رفوف الأكفان والملابس.. يا للدهشة.. مبخرة تشبه مبخرة (مولانا) على الطاولة.. التقطتها شخنما.. فحصناها.. هي نفسها.. ما زالت بقايا الفحم الميت وآثار البخور.. خيوط تلتف حول سلك معلاقها.. كان سنيدار المسجد يئن وقد بدأ يستعيد وعيه.. ينظر إلى ما حوله في بلاهة.. يحاول التخلص.. يتأمل قاماتنا.. حاول أن يتكلم.. كان صوته رخواً غير واضح.. اقتربت منه.. قلت له:

ـ لا تخف.. لا نريد بك شراً.. فقط عليك أن تجيب عن سؤالي.. أين (مولانا)؟ وإن راوغت فلا تلم إلا نفسك!

أشار برأسه علامة الموافقة.. شرعت في فك لثامه.. شخنما واقفة بعيداً شاهرة سكيناً.. واصلت همسي:

ـ هيا أجبني أين (مولانا) دون أن ترفع صوتك؟!

ـ من (مولانا).. من أنتما؟؟

تركناه حتى استعاد وعيه.. كررنا عليه نفس الأسئلة.. قال:

ـ من أنتما؟

ـ أولاً أجب عن السؤال.

ـ (مولانا) غادر صنعاء بعد أن شكا لي من ملاحقة بعضهم له!!

ـ إلى أين غادر؟

ـ لا أعرف.. لكنه قال لي بأنه لن يعود!!

كان الوقت يمر سريعاً.. خفت أن يأتي أحدهم ويكتشف ما نحن فيه.. قررت كشف بعض أوراقي.. قلت له بصوت هادئ وودود:

ـ سأحدثك بكل صدق.. وعليك أن تكون صادقاً معنا.. نحن نبحث عن رجل اسمه العطوي.. وقد زرت هذا المكان قبل عدة أيام ووجدت لحفته على تلك الرفوف.. قرأت اسمه ضمن الكشوف الموجودة بداخل تلك الملفات.

التقينا (مولانا) قبل عدة أيام.. ووعدنا بأنه سيقنعك بمساعدتنا في البحث عن مصير العطوي.. وحين حضرنا حسب موعدنا ومعه لم يحضر.. وها نحن عائدتان من السراديب السفلية وقد وجدنا بين الرماد بقايا عظام محروقة.. وكذلك أوراقاً ورقوقاً جلدية.. نحن لا نريد إيذاء أحد.. فقط نتمنى أن تساعدنا في الوصول إلى الحقيقة.

ـ أي حقيقة؟

ـ حقيقة اختفاء مولانا.. مصير العطوي.. نحن نجزم بأن العطوي قد تم اقتياده إلى هنا.. وأنت من يعرف بقية القصة.. ويجب أن تعرف أننا لن نتركك حيا إن لم تحدثنا بما حدث.

ـ لكنني مجرد فراش لهذا المسجد.

ـ لم نقل إنك أكثر من ذلك.. ولهذا أنت مطّلع على كل ما يدور.

صمت.. خلته لن ينطق.. كنت أفكر في ما يجب فعله إن راوغ إذ إننا لم نخطط لكل ما يدور.. لم تكن من فكرة محددة قد وضعناها لمثل هذه الحالة.. لكنني فكرت أن نتركه مربوطاً ونفر قبل أن يكتشفونا.. فاجأنا بحديثه يتدفق.. قال:

ـ سأحدثكم بالحقيقة.

19

فتاح

«١٦» صغيري المغرد بعيداً..

لم يعد من أمل في وصول رسائل تبعة إلينا بعد مقتل خمينة ولجوئه هرباً إلى عدن في أواخر ١٩٨٢.

أبحث عن أخباره.. أسأل جدك.. فيرد بصوت حزين:

ـ انتهى كل شيء.. لم يعد من أصحاب مبادئ.. فقط بقايا انتهازيين.. وطفيليين يتشدقون بالمبادئ الاشتراكية!!

أستغيثه:

ـ لكنني أريد عودة تبعة.

يترك لهفتي تتقد.. وأنا أعرف أنه يعرف الكثير عن حياته هناك.. لا يفضل الخوض في مواضيع تفصيلية.. كان همه انتصار المد

الاشتراكي.. لكنه أصيب بخيبة أمل لانكساره.

بعد سنوات من المتابعة تداخلت أخبار تبعة ولم أعد أميز أيها الصحيح.. قيل لي إنه كوّن أسرة وإنه مستقر في عدن.. وأضحى لديه ما يشغله. وحكاية ثانية تقول إنه غادر إلى موسكو للدراسة.. وأخبار تؤكد عودته إلى المناطق الشمالية منذ حين.. متخفياً من رجال شيخنا. أبحث عن أخباره.. أعلل نفسي بغد أكثر عدالة واستقراراً.

بعد حين أكد لي جدك أنه عاد من موسكو إلى عدن مع الرفيق عبد الفتاح إسماعيل.. زادت الآمال بهاء لوجوده حياً يرزق.

في صبيحة أحد الأيام جاء جدك إلينا حزيناً.. سألته عن سبب حزنه.. فقال: «إذاعة عدن تردد الأناشيد الحماسية والبيانات المدوية.. بدلاً عن الأغاني العاطفية..».

خلافات مُرحلة مُنذ سنين بين قيادات الحزب والجيش بعدن.. بدايتها تصفية مجموعة من أعضاء المكتب السياسي للحزب في اجتماعه الدوري يوم الاثنين ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦.. أعقبتها اشتباكات عنيفة بين فصائل الجيش.. أعلنت خلالها عدن مدينة منكوبة.. قال لي جدك:

ـ تبعة سيكون حتماً مع عبد الفتاح.

ـ ماذا تعني؟

ـ أجنحة الحكم في عدن بين مؤيد للوحدة وآخر يبطن عكس ذلك.. والرفاق في عدن أفلسوا. والكارثة الكبرى أن

الجهات الخارجية النافذة تملي إرادتها على القيادات المنقسمة هناك.

ـ لكن إذاعة عدن أعلنت استشهاد مجموعة من قيادات المكتب السياسي وبينهم (فتاح)!

ـ لم يَمُت فتاح.. لأنهم لا يملكون القدرة على فهمه.. وهناك عدة شائعات بثّها رفاقه.. منها: أن عبد الفتاح سار وحيداً في احد سراديب جبل شمسان.. وأخرى أنه سار على ممر وسط البحر حتى اختفى عن الأنظار.. والأخيرة أن رفاقه من (الطغمة) بعد أن انتصروا على (الزمرة) اقتادوه وتم إخفاؤه ولا يعلم أحد مصيره حتى اليوم. ولذلك أعلنوا استشهاده كذباً.

ـ هل سيعود؟

ـ هو موجود بيننا.. حين حاولوا صلب المسيح غريباً.. لم يكن لفكره أي انتشار يذكر بل كان نكرة وسط مجتمعه.. واليوم من يحصي أتباعه؟.

تحول القتال في عدن إلى معارك شوارع اشتركت فيها المدرعات والطيران ثم البحرية. دمرت البنية التحتية للمدينة.. تكدست الجثث في الشوارع والأرصفة.. اجتاحت القبائل المستثارة من الجبال واستباحت المدينة.. انضمت عناصر الجبهة الوطنية المتمركزة في أحد المعسكرات بعدن إلى صفوف (الطغمة) المهزومة.. لينقلب الوضع خلال ساعات وتعلن الطغمة انتصارها.. مئات الجثث تعرضت لنهش الكلاب.. كنت أسأل نفسي: هل تبعة بين تلك الجثث؟.. بعد عدة أسابيع أعلنت إذاعة عدن استقرار الوضع..

وهروب القيادات الانقلابية (الزمرة).. رددت وسائل الإعلام الخارجية قيام سلطات عدن بملاحقة العناصر المناوئة وتصفية المئات دون محاكمة.. امتدت المداهمات والملاحقات إلى كافة المحافظات الست.. وتم الفرز بالبطاقة على أساس مناطقي.. الآلاف فروا باتجاه الدول المجاورة.. ظل وضع تبعة غامضاً.. مرت أيام من الترقب.. جاء جدك يخبرني:

«إن تبعة بخير وإنه كان ضمن الحرس الشخصي لفتاح.. كان برفقته يوم اجتماع المكتب السياسي في ١٣ كانون الثاني/يناير.. استمر تبعة مرافقا له بعد إصابته وأثناء هروبه من المكتب السياسي.. وإن مجموعة من رفاقه اصطحبوه مساء يوم ١٥ يناير إلى مكان آمن.. عادوا رافعين صوره مرددين عباراته الثورية في الساحات العامة.. متباكين عليه.. لقد انهار كل شيء.»

ابني الحبيب..

لم يكن تبعة ذلك الإنسان العادي بالنسبة لي.. فهو من أيقظ مشاعر الإنسانة فيَّ.. أعطاني المفهوم لمعاني الاحترام والمساواة.. من تشربت منه مبادئ الحرية والاشتراكية.. من نقش حروف العشق الأولى على نقاء قلبي.. أعطى للأشياء رائحتها.. طعمها.. ألوانها.. معانيها.. ولهذا أتوقع أن يعمل دوماً لنصرة مبادئ العدالة والمساواة.. ولهذا أغفر له نسيانه لي كل هذه السنين.

لم أستوعب يوماً أن يكون قد ارتبط بامرأة أخرى.. أخالها شائعة لا تعنيني.. أستحضر دوماً ابتسامته.. كلماته.. تلك الرائحة التي لا تفارق أنفي.. نظراته.. أحلم به قادماً من برار بعيدة.. أحتضنه بعيداً عن أعين الناس.. أوشوشه بكلمات تعلمتها منه.. أراني معه

عند المنحدرات.. في شعاب الوديان.. المغارات.. ينابيع المياه.. تحت أشجار السواقي.. لقد أثث تبعة عاطفتي كما يريد.. وسكب بقلبي دماً غير تلك الدماء التي تجري في عروق النساء.. رسم لعلاقاتنا مساراً لا تحلم به أية امرأة.. لقد تركني في حلم غير متواصل.. خليط من الشقاء واللذة.. ولهذا كنت أنتظره صباح كل يوم فاتحاً لصنعاء باسم الوحدة.

في أيار/مايو ١٩٨٨ أذاعت إذاعة عدن خبر تسهيل انتقال المواطنين بين الشطرين بالبطاقة الشخصية.. كان ذلك على خلفية لقاء البيض وصالح في صنعاء.. تخيلت الطريق ستحمل إلينا من عدن إلى صنعاء تبعة عائداً إلينا دون عوائق.

أخبرت جدك بما سمعت.. رد علي:

ـ تبعة لا تنقصه الطرُق.. تبعة ينقصه الأمان من رصاص الشيخ الصغير.

ـ وأنت هل فكرت بالذهاب إلى عدن؟.

ـ الأمر ليس كما تفكرين.. قد تكون تلك النقاط مصيدة!!

ـ لكنهم أعلنوا أخباراً جيدة.

ـ حكومات اليمن تعلن عكس ما تبطن.

ـ وما هو الحل؟

ـ لا يزال الأمل قائماً.. وهذا الشعب لن يبخل.

ـ لا أفهمك.. لكن ما يهمني هو عودة تبعة.

ـ الموضوع أكبر من تبعة وأمثاله من المطاردين.

استعضت عن انقطاع أخبار تبعة بمتابعة أخبار إذاعة عدن.. مع توغل الأيام أضحت هي إذاعتي المفضلة.. أدمنت على أصوات مذيعيها وأصوات مذيعاتها. ألفت برامجها.. أغاني المرشدي وعطروش ومحمد سعد عبد الله وإسكندر ثابت وصباح منصر.. أحفظ كلماتهم عن ظهر قلب.. لا تزال حتى اليوم هي إذاعتي المحببة.. أبحث فيها عما فقدته من سنين.

كنت أنت قد عرفت القرية برفقة جدك.. في طفولتك.. خفت عليك.. لكنه أقنعني بأنه كفيل بحمايتك من أي مكروه.. تعود إلي محملاً بمشاهداتك الأولى لحياة الريف.. تحدثني عن احتشاد الجبال العالية.. فأرى نفسي فيك.. أستحضر لقاءاتي الأولى.. تسافر ذاكرة طفولتي إلى زرائب حصن عرفطة.. أزقّته المتعرجة.. سلالمه الحجرية.. برد لياليه.. حواريه.. أسطحه المتداخلة.. خلوة سيدنا الأعور.. الذي قدم من بلا د لا نعرفها ليعلم الصبية القرآن.. كنت الصبية الوحيدة بينهم.. أقنع جدك أمي بضرورة أن أتعلم القرآن.. تحضرني تفاصيل تلك الأيام البعيدة.. رائحة الأشياء.. تلمح أنت دمعتي حين أحتضنك.. تسألني:

ـ لمَ تبكين يا أمي؟

استعصى عليّ الرد عليك.

وصل جدك من القرية لزيارتنا.. جلسنا أمام جهاز التلفاز.. الوقت ليلٌ.. علي عبدالله صالح وعلي سالم البيض يسحبان خيط سارية العلم.. ينظران إلى السماء.. حولهما لفيف من القيادات العسكرية والسياسية يقفون بإجلال مرددين نشيد اليمن الموحد: «رددي أيتها الدنيا نشيدي.. ردديه وأعيدي وأعيدي.. واذكري في فرحتي كل

شهيد.. وامنحيه حللاً من ضوء عيدي.. يا بلادي.. يا بلادي.. نحن أبناء وأحفاد رجالك...» البعض يمسح دمعة ساخنة.. الكل يصافح الكل.. مشاعر وقبَل وزغاريد.. ابتسامات.. كان هذا خبراً تناقلته وسائل الإعلام العالمية. كخبر رئيسي. جدك.. أبحث بين الجموع عن وجهه. تبعة.. رأيت ابتسامته تتماوج على ألوان العلم الذي يعلو على الساري فوق تصفيق الجموع.. قلت لجدك الذي انزلقت دمعة حائرة على خده: أليس هذا هو اليوم الذي قاتل من أجله تبعة؟!! لم يرد عليَّ.

تحضرني رسائله.. أراه متنقلاً من جبل إلى آخر.. تشرده كل هذه السنوات.. لنرى حلمه اليوم دون أن نراه.

انتهت نشرة التاسعة.. كان مساء يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من أيار/مايو ١٩٩٠ مليئاً بالصمت.. نهض جدك.. صعد الغرفة العلوية.. لم ينم ليلتها.. انكفأ فوق مصحفه الأحمر.. كان صوت صلواته مزيجاً بين النحيب والإنشاد الشجي.

انتظرت قدوم الصباح.. سألته:

ـ هل تنتظر قدوم تبعة مثلما هي لهفتنا عليه؟

ـ ولِمَ هذا السؤال؟

ـ رحل التشطير دون عودة.. ونستطيع أن نحتفل معاً.. هل سيعود تبعة.

ـ لم يرحل التشطير.. وما نراه مجرد صفقة لا يعرف أحد تفاصيلها؟

ـ أليست هذه الوحدة هي التي ناضل الشعب من أجلها!

ـ ناضل وعليه أن يضاعف نضاله أكثر منذ اليوم.. فهم يعدون بنادقهم لمن يدفع أكثر!!

ـ لكن الوحدة تجبّ ما قبلها.

ـ قد تتعدد منابر التشطير تحت رداء الديموقراطية.

عاد الكثيرون من عدن إلا تبعة.

□ □ □

في أيار/مايو ١٩٩٤ اتسعت دائرة النار لتشمل معسكرات ذمار.. كان قبلها عمران.. ليتحول الوطن إلى ساحة قتال.. ليعلن البيض تشكيل حكومة في عدن.

ثمانية أيام من بدء الحريق الكبير.. استعانت صنعاء بالتيار السلفي.. وبجحافل القبائل. رفع شعار الجهاد.. لبس البعض أذقانهم.. جلابيبهم القصيرة.. نشروا فتاوى إباحة دماء القرامطة في عدن.. هلل البعض شاهراً سيفه.. مغيراً لاجتياح عدن.. استمر النهب ثلاثة أشهر.. سالت دماء.. ارتفع رصيد شيخنا بعد أن اشترك ضمن الميليشيات الدينية على عدن.. حشد رعيته لقتال المرتدّين.. كان قائداً لأكثر من خمسمائة مقاتل.. دخل بهم عدن.. عاد بعشرات المعدات الثقيلة والسيارات والأجهزة.. عدد كبير من الناقلات.. غنائم متنوعة من التجهيزات والأثاث سلبها رجاله من منشآت ومنازل خور مكسر ومخازن المعلى وصبر.. ومن المنشآت الخدمية.. طبقوا فتوى أحد العلماء القاضية بإباحة كل ما في دور عدن من نساء وممتلكات كغنائم للمجاهدين من حاملي كلمة «لا

إله إلاً الله محمد رسول الله».

أهّلته تلك الغنائم ليقفز إلى خانة أثرياء الوطن.. ويصبح من ذوي الوجاهة. استمرت مناظر الدخان تغطي وجه خليج عدن.. عادت الفرق بغنائمها تقرباً إلى الله.. توهم البعض أنهم جردوا عدن من سواحلها.. من أزهارها.. من كحل عينيها.. أنهم جففوا أمواج خليجها.. أسنانها العاجية.. وآخرون اعتقدوا أنهم بنوا جداراً عازلاً أمام البحر.. وأحرقوا ابتسامتها.

□ □ □

في شهر آب/أغسطس من عام ١٩٩٦ احتفلنا معاً بأول يوم دراسي لك في المرحلة الثانوية.. تأملت وجهك.. هندامك.. تسريحة شعرك.. حتى ربطة حذائك.. لحظتها أدركت أنك تقترب من اكتمال رجولتك.. تنضج كوجبة طرية لأول فتاة تصادفها.. خفت أن أفقدك.. حين تعود أفتش جيوبك.. أبحث عن رائحة أنثى.. تجاوزت الصف الأول بتفوق.. ثم العام التالي.

ذات صبح من أيام شهر كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩ سمعت صوته لأول مرة منذ ثماني عشرة سنة.. لحظة من الزمن وسماعة الهاتف تتحدث.. حلماً بطعم الضحك الدامع.. أستمع إليه كما لو كنت أحلم.. ضحكت كثيراً.. حدثته عنك.. عن وسامتك.. تفوقك.. وأنك في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية.. بدأ صوته:

ـ مساء الخير.

ـ مساء النور.

ـ أرجو أن تكوني بخير.

ـ ماذا تريد؟

ـ ميزت صوتك.. وأنت ألم تعرفي صوتي؟

ـ من أنت؟

ـ أنا تبعة يا سمبرية!!

دار رأسي.. ارتبكت مسامعي.. اصطخبت مسالك الدماء في قلبي.. تضخم لساني.. شريط من الذكريات.. آهات من الحرمان والشوق.. أحلام.. صمتُ دون إرادة مني.. نسيت اللحظة بينما صوته يدعوني من بعيد.. أخبرته بحصولك على نسبة مرتفعة.. وأنك تحلم بدراسة الطب خارج اليمن. قال لي:

ـ لا تخبري أحداً.. سأعمل جهدي أن يدرس خارج اليمن.. اجعلي محاولاتنا سراً بيننا.. أرشديه أن يعد ثلاثة ملفات طلب منحة دراسية.. يسلمهن إلى بعث دمشق.. بعث العراق.. وناصري ليبيا.. أنا على يقين من أن أصدقائي لن يخذلوني.

كانت مفرداته غير منتظمة.. أجهشت باكية.. فقدت كلماتي ترتيبها.. توقف صوته بعد أن قال: سأتصل بك لاحقاً.

عرفت بعد ذلك أن جدك من أعطاه رقم الهاتف.. وأنه على اتصال دائم به.

أرشدتك إلى إعداد تلك الملفات.. ودفعتك لمقابلة رؤساء تلك الأحزاب. ومتابعة ردودهم.. كنت تحدثني مبتسماً: من أين لك كل هذه المعارف؟.

السعادة تنضح من ملامحك وأنت تحدثني عما تنجزه.

كان أملك أن تسافر إلى ليبيا.. لكن ناصري ليبيا جاء رده مخيباً للآمال.. اعتذروا كونك غير منتمٍ إلى الحزب الناصري.. وفي نفس الوقت لم تجد أي تجاوب من بعث دمشق.. لكن بصيص الأمل جاء من بعث العراق.. عبأت استمارة انتساب.. «أمة عربية واحدة.. ذات رسالة خالدة» عادت الموافقة من بغداد بقبولك لدراسة الطب.

شعرت بقلبي يتدحرج.. وخطواتي تتعثر.. لم أتوقع أن يهزني خبر قبولك بذلك الشكل.

ـ مبروك يا حنظلة.

قلتها وأنا أغالب إحساسي بالخوف عليك.. احتضنتك وأنا أخفي رعباً لم أميزه.. لم أتوقع أن ينتقل موضوع سفرك من خانة الآمال إلى خطوات عذاب قلبي.

وهذه أنا اليوم أعيش سنوات من العذاب ولحظات صمت. لم أكن أتصور أني سأكتب كل هذه الرسائل.. اكتشفت أن الكتابة اليوم لم تعد لدي ترفاً.. أمست إدماناً للونَ البياض.. لرائحة المداد.. أمست عشقي.. حياة أتنفسها في سعادة.. أقاوم بها هزائمي.

أعيش الليالي بالكتابة.. أتعرف على نفسي.. أعدت النظر في قيمي.. علاقتي بمن حولي.. أن أكون صادقة في كل الأحوال.. لم أعد تلك التي ودعتها ذات يوم.. إن عدت فعليك أن تعمل

على اكتشافي من جديد.. حين تقرأ رسائلي ستدرك أن صمتك قد صنع امرأة أخرى.. بهجرك اكتشفت كل ما حولي.. أنت.. جدك.. تبعة.. أمي.. خمينة.. فطمينا.. البنفسج.. أحاول التخلص من الأحقاد.. أفكر في غد بلون براءتك.

□ □ □

السنة الخامسة لوداعك.. بدأت أشعر اليوم أكثر من أي يوم مضى أنك لن تعود.. عاد كل من كانوا يرسلون.. فر الكثيرون من سكان العراق.. وصل العديد من سكان بغداد فراراً إلى صنعاء.. وأنت لم تعد!!

أطرد تلك الظنون.. أقاوم أفكاراً وكوابيس مميتة.. زملاء دراستك من العائدين يؤكدون أنك على مقاعد الدراسة.. وآخرون.. أنك خارج العراق. راجعنا وزارة التعليم العالي.. أكدوا لنا وجودك في العراق.. بدليل أن مستحقاتك المالية تصرف بشكل فصلي.. لا أملك غير التشبث بالأمل.

أمي انزوت في ظلمة الصمت.. تأبى الخروج من عزلتها.. مفاصلها تورمت.. ونور عينيها خفت. لم تعد تحتمل الضوء.. ما يطمئنني أنها لا تزال على قيد الحياة.. غطيطها المتقطع.. نوبات سعالها.. لم تزرها صديقاتها منذ أربع سنوات.. أساعدها على قضاء حاجتها في دلو بلاستيك.. أغسلها صباح كل جمعة في قاع غرفتها.. تجلس القرفصاء في صمت.. كومة من العظام الهشة.. لا يكاد وزنها يتجاوز الأربعين كيلو.. ألفّها بمنشفة.. أحملها إلى فراشها.

أنفاسها.. شيء ما يشبه الأنين.. لم تعد تشعر بما يدور حولها.. تنظر إليّ مستسلمة.. تغمر عيني الدموع أحاول إخفاء وجهي.. أهرول إلى دورة المياه عند منتصف الدرج.. أخبئ نحيبي.. أفتح الصنبور.. يعلو صوت ارتطام الماء على نوبات صراخي.. أستنزف ما بداخلي من ألم.. أستنفد ما ترسب من إحباط حتى أتأكد أن بياض الابتسامة قد دنا من روحي.. أغسل وجهي جيداً.. أتأمل وجهي.. ألاحظ تكاثر اللون الأبيض في خصلات شعري.. أتمرن على رسم الفرحة.. أتلمس طريقي وسط ظلام غرفتها.. أنام جوارها.. أحتضنها للحظات.. أحكي لها ذكريات مضت لم أعد اليوم بحاجة إلى إخفائها... هكذا هي الليالي.

تجاوز الإقبال على الجمعية ما كنا قد رسمنا.. أضحت أنشطتنا يعرفها الجميع.. زارتنا عدة منظمات محلية وأجنبية.. أسسنا شراكة مع بعضهن.. وأضحى لنا أنشطة مشتركة.. تعرفنا إلى بعض المنظمات المهتمة بحقوق الإنسان.. نسقنا معها للبحث عن جدك.. سربنا إليهم بعض المعلومات عن معاناتنا.. وعن ظروف اختطافه.. قدمنا لهم بعض المعلومات التي تدل على أماكن محتملة لاحتجازه.

20

إرهاب

«١٧» وحيدي حنظلة

وقفت وشخنما نستمع لحديث ذي الساق المعدنية.. كان يتحدث بصوت عطوف:

ـ مولانا من أهل الله. عرفته مصلياً في المسجد منذ اثنتي عشرة سنة. يبات بعض الليالي في المسجد.. لا أعرف ماضيه البعيد. أخبرني ببعض الظروف التي حولته إلى شحاذ.. دوماً يحدثني عن يومه وعما يصادف من مغفلين وعن بعض النوادر التي يصادفها أثناء تجواله. سألني قبل عدة ليالٍ عن شخص العطوي.. وجدته يبرر لي سبب سؤاله عنه.. تحدث عن ماضيه.. عن علاقته بالجبهة الوطنية كأحد عناصر استخباراتهم.. تنقّله من منطقة ريفية إلى أخرى ومن قرية إلى غيرها تحت غطاء التسول.. وإنشاد المدائح في المناسبات الدينية والاجتماعية في أوساط الفلاحين.. يتحدث بعين دامعة.. وصل في حديثه إلى ظروف اعتقاله في المناطق الوسطى

واقتياده إلى عدن عام ١٩٨٤.. صمت مولانا كمن يستذكر ثم أجهش باكياً.. لم أكن بحاجة إلى أن يحكي لي عن ماضيه.. لم أطلب منه يوماً أن يحكي لي.. رجوته أ لّا يستمر.. واصل حديثه دون أن يذكر ما يبكيه.. تجاوز ذكريات سجن عدن.. لم يذكر نوع المعاملة التي كانوا يعاملونه بها في معتقل طارق.. لكن ملامحه كانت تدل على مرارته.. قال: خرجت من السجن عام ١٩٨٧ لأعود متشرداً.. لم أجد أمامي غير التسول.. اعتقلوني مرة ثانية في ذمار.. اقتادوني إلى صنعاء.. صدر أمر الإفراج عني في شتاء ١٩٩١ طلبوا للإفراج عني ضمانة.. لا أعرف أحداً في صنعاء أوفر ما طلبوه للإفراج عني.. استمر بقائي حتى ربيع ١٩٩٣ قذفوا بي بقايا إنسان إلى الشارع.. أبحث عن مأوى.. هذه المرة قد تحول التسول إلى أسلوب حياة.. لم يعد كما كان قبل عام ١٩٨٤غطاءً لنشاط سري.. لا أحب أن يتعرف أحد على مدى آلامي.. لكنني أحكي لك كي أستعطفك مساعدتي وفاء مني لرفيق يعاني ما عانيته.. وفاء لابنه الذي عرفته لأشهر محدودة.

اليوم يأتيني الماضي.. يطاردني بثوب جديد.. يأتيني ليعيد إلي بشاعة الأمس.. كيف أساعد أسرة شتتها الصراع.. وشرد أفرادها وأشقاهم.؟ أتوسل إليك أن تنقذني.. ساعدني في بعض المعلومات التي توصلني إلى إنسان اسمه العطوي.

أخذ ذو الساق المعدنية نفساً عميقاً.. ثم واصل حديثه عن مولانا.. حكى لي عن ظروف اختطاف العطوي.. جبروت الشيخ وحقده.. رجاني أن أكون صادقاً معه.. قال: أنا رجل مسن.. ولست بحاجة إلى المزيد من الشقاء.

كان صوته جريحاً.. أكمل حديثه ليتركني في حيرة.. لم أكن أعلم أن ماضيه بهذه القسوة.. أشفقت عليه وقد كشف لي أوراقه دون تحفظ.. نصحته أن لا يغامر بما تبقى له من أيام.. ونصحته أن يختفي.. وافقني على مضض.. كان على يقين من أنكم ستزورونني بشكل أو بآخر.. هكذا أكد لي حين قلت له وكيف أتواصل مع من وعدتهم؟.

غادرني صباح اليوم التالي.. ألحّ عليّ أن أبذل جهدي في موضوع العطوي..

ترك مبخرته هناك على الطاولة.. لا أدري إلى أين اتجه.. ولا متى سيعود.. صدق مولانا حين أكد لي أنكم ستأتون. قد يكون لديكم معلومات غير صحيحة عني.. وعن الحجرات الملحقة بالمسجد.. وتلك السراديب والفراغات الواسعة تحت المدينة.. وعمن يأتون بهم إلى هنا من المعتقلين.. لقد حدثني مولانا بما دار بينكم.. وحدثني بما كان يظن.. لكني سأحدثكم بكل صدق.

لا توجد هنا تصفيات.. فقط يؤتى بمن ترى أجهزة الدولة أنه بحاجة إلى إعادة تأهيل ديني.. يجلسونه بين يدي هيئة رجال دين المسجد المقدس.. في البدء يدار نقاش مع من يثبت انحرافه.. وإذا ثبت لهم إصراره على آرائه يحيلون الجلسة إلى جلسة تحقيق وقد يفتون بنفيه أو إنزال الحد عليه.. والعطوي أحدهم.. أتوا به مراراً إلى هذا المكان.. ونصبوا له عدة جلسات.

كنت أختلس السمع حين كانوا يحاورونه.. لم يكن العطوي يتبع مذهباً بعينه.. ولم يكن الحوار معه تقليدياً.. أعلن لهم منذ البداية أنه يستوعب الإسلام كما يستوعب اليهودية ومثلها المسيحية..

يصف نفسه بالمؤمن وليس بالمسلم.. ويبرر لهم أن الإسلام جزء من الإيمان وأن الإيمان اختص به أولو العلم والحكمة وسعة الاطلاع.. والإسلام اختص به العامة من الناس.. لم يكن العطوي يشبه أحداً ممن سبقوه.. كان تأثيره على من جاءوا بهم من رجال الدين واضحاً.. بل إن أحدهم طلب منه بقوله: زدنا.

ثم عقد له جلسة استتابة.. لكنه رفض وقال: بل عليكم أن تعلنوا توبتكم أنتم على ممارساتكم ودجلكم. ثم أرسلوه منذ خمسة وأربعين يوماً تقريباً إلى أحد السجون السرية داخل صنعاء.. وسمعتهم يتحدثون بأنه يحمل مبادئ هدامة وعقائد خطرة.. وقد أقروا أن يتداولوا أمره بشكل سري.

قبل أن يأتوا به إلى هنا كان أحد الشخصيات النافذة قد جمع رجال الدين في داره وتم محاجة العطوي بالأدلة الدينية إلا أنه لم يعترف لهم.. وكان مصحفه الضخم الذي يحمله معه مثار اهتمام الجميع.. حينها اكتشفوا أن ذلك المصحف يحتوي بين دفتيه على أكثر من كتاب لمعتقدات شتى.. منها مبادئ لديانات عدة.. ومنها: الزرادشتية.. الصابئة.. البوذية الكنفشيوسية.. والمانوية.

حين وجدت أنت لحفة العطوي على ذلك الرف.. كانت ضمن ملابس منسية ممن يأتون بهم إلى هنا.. تلك الكشوفات لا تخصنا بل هي لأسماء من يقتادونهم إلى هنا. ما وجدتموه في السراديب السفلية من عظام لا تخص هذا الزمن.. ما يخصنا هي تلك البقايا من الأوراق المحروقة ومنها ما يخص مصحف العطوي.. قرر العلماء حرق تلك الأجزاء.. أوكلوا إلي حرقه بعد أن نزعت منه. عجزوا عن معرفة فحواها.. معتمدين اعترافه بأن تلك الطلاسم ما

هي إلا العهد القديم بلغَته الأولى الآرامية.. والعهد الجديد بلغته السريانية.. إضافة إلى اعترافه بأجزاء لمبادئ ديانات أخرى.. قرروا إحراقها حتى لا تفسد غيره.

ولدي الحبيب..

كانت فرحتي لا توصف بعد أن تيقنت أن جدك لا يزال على قيد الحياة.. خرجت وشخنما من المسجد.. كانت الشمس قد علت عرشها.. نسير في أزقة صنعاء.. كل ما حولنا يحتفل لمشاعري الجديدة.. شعور بأن كل شيء يبعث من جديد.

بعد أيام زارت صنعاء بعثة أوروبية مهتمة بالحقوق الديموقراطية والجندر.. وكانت جمعية خمينة ضمن برنامج زياراتهم. الزيارات تتم تحت رقابة الأجهزة المعنية.. أبرزت وسائل الإعلام الرسمية زيارة البعثة لليمن وإشادتها بالمناخ الديموقراطي وما تحقق للمرأة في عصر الوحدة. أبرزت صحف المعارضة زيارة البعثة لمجموعة من السجون في عدة مدن مدعمة بالصور.. ومنها صنعاء وتقريرها عن أوضاع المساجين خاصة في السجون السرية.. زارت عدة مخيمات للاجئين الأفارقة في عدن.. بعد أن أكملت البعثة زيارتها لليمن استقبلها الرئيس.. الذي أكد بأن اليمن خالٍ من أي سجين سياسي.

نشرت إحدى صحف المعارضة تقريراً ضمنته كشفاً بأسماء المعتقلين منذ سنين.. ومواقع تلك السجون التي تحتوي أبرز المفقودين فيها.. المعركة تدور ببطء.. أستغل علاقاتي بالمنظمات الأجنبية من أنشطة جمعية خمينة في تزويدهم بكل جديد حول قضية جدك.

صَعَّدت مجموعة من الناشطين الحقوقيين من منظمات مختلفة حملتهم.. ظهرت.. خلال أيام تصدرت صور جدك ضمن صور

عدد من المعتقلين في تلك السجون.. أكثر من صحيفة. كان موقع السجن المشتبه بإخفاء عدد كبير من المعتقلين فيه منذ سنوات في شارع متفرع من شارع يربط بين ميدان التحرير وحي قاع اليهود.. تحركنا ضمن مجموعة من الناشطين الحقوقيين في خوف إلى العنوان المدون في الصحيفة.. فاجأتنا جموع من المواطنين تتجمهر في الشوارع المحيطة بالمبنى.. اصطفت أعداد كبيرة من جنود الأمن المركزي لمنع أي شخص من التقدم نحو المبنى.. ازدادت أعداد الجموع.. حاول البعض الضغط على الجنود لإيجاد ثغرة للعبور.. قنابل مسيلة للدموع.. زخات من خراطيم المياه وإطلاق أعيرة صوتية في السماء.. عدنا من حيث أتينا بعد اعتقال البعض.

كان المبنى المعني مكوناً من عدة أدوار.. جميع نوافذه سدت بالطوب والحجارة لينسجم مع الدور السكنية المحيطة به.. يعود هذا المبنى إلى عهد ما قبل ثورة ١٩٦٢.. وهو أحد قصور خاصة بإحدى الأميرات من بنات الإمام أحمد.

أقف وأنا أسمع صوت جدك يأتيني من الماضي يتلو: «ثم أفاق يعقوب من نومه وقال: حقاً إن الرب في هذا الموضع وأنا لا أعلم.. واعتراه خوف.. وقال: ما أرهب هذا المكان.. ما هذا سوى بيت الله.. وهذا هو باب السماء.. ثم بكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي توسده.. ونصبه عموداً وصب عليه زيتاً ودعا المكان بيت الله».

في الأيام التالية أذيع خبر عبر إحدى القنوات الفضائية أن نزلاء أحد السجون السرية بصنعاء قرروا الإضراب عن الطعام.. وأن بعثة من (اليو إن دبي) زارت عدة معتقلات سرية في صنعاء ومن بينها ذلك المعتقل.. تم بث شريط فيديو قصير.. ظهر جدك ضمن صور

ذلك الشريط.. لم يكن إلا شبيهاً له.. لقد تحول إلى هيكل عظمي.. إحدى عينيه معطلة.. قال الخبر إن الجهات اليمنية نفذت توصيات بعثة الأمم المتحدة وتعد لإطلاق المعتقلين بعد أيام.

□□□

تبعة انتظمت أخباره.. صحف المعارضة ذكرت قبل عدة أسابيع أن مجموعة من الأحزاب الصغيرة قد أعلنت تشكيل تحالف وطني فيما بينها.. وأنها أعدت برنامج حوار سياسي مع مختلف الأحزاب الأخرى.

لم يكن ذلك ما يهمني.. لكن أن يكون تبعة أميناً عاماً لأحد تلك الأحزاب.. ونائباً لرئيس ذلك التحالف.. فهذا خبر مثير. تابعت تطور تلك الأخبار.. فجأة ظهر تبعة على شاشة القناة الأولى ليعلن في مؤتمر صحافي عن دخول التحالف في حوار سياسي مع حزب السلطة على طريق التحالف معه. لأول مرة أشاهد تبعة منذ وداعك.. كان كالأرجوز.. كرفته حمراء.. كوت فضفاض.. وجهه استعاد عافيته أو هكذا بدا لي.. يلعن في كلماته الرفاق السابقين.. يتهمهم بالعمالة.

قرأت ردود صحف أحزاب اللقاء المشترك التي اتهمت أحزاب التحالف بالعمالة للحزب الحاكم.

ابني العزيز..

شهور ٢٠٠٦ تتهادى.. وأنا أتخيل وجودك.. أو هكذا أقنع نفسي بوجودك على قيد الحياة.. أواصل بَوْحي لابني الذي يعيش بداخلي.

في تلك الليلة كنت أنتظر شخنما.. ساعدت أمي على تناول عشائها.. بللت قطعة قماش بماء دافئ مسحت وجهها.. أصابع يديها.. وضعتها على رمل الدلو كي تتبول.. هي لا تطلب مني ذلك ولم تعد تقوى على التعبير عما تريده وما لا تريده.. أضعها على الرمل في مواعيد محددة.. حتى أن جسمها قد تعود على تلك المواعيد.. أزيل حبات الرمل الملتصقة على بشرة مؤخرتها.. أغسل ما تبقى.. أعيدها لفراشها.. أتمدد جوارها.. منذ شهور أواصل قراءة رسائلي عليها.. كشيء من التكفير والاعتراف.. أحكي لها عن نشاطي في الجمعية.. صلاتنا بعدة منظمات.. إنجازنا في تحويل قضية جدك إلى قضية رأي عام.

أُحرج من ذكر بعض التفاصيل.. وتارة أنتشي لقراءتها.. في ليلة وصولك كنت أقرأ لها صفحات ليلة الوادي.. طرق يتعالى على الباب.. أوقفت قراءتي.. عاود الطرق.. وضعت ما بيدي جانباً.. قفزت في سعادة أحدث نفسي: إنها شخنما قادمة.. اجتزت ظلام الحجرة.. نمقت كلمات عتاب.. فتحت الباب.. رأيت رجلاً ملتحياً واقفاً بين غبش الشارع.. تراجعت مرتبكة أعيد غطاء رأسي.. رجل كأنه عمود لا يتحرك.. أعدت إغلاق الباب وقلبي ينبض.. من يكون..؟ ترددت:

ـ من أنت؟

خيل إليّ أني أسمع صوته يقول:

ـ أنا حنظلة!!

تفتت تفكيري.. كأني في حلم.. كررت السؤال.. كرر نفس الإجابة.. غرقت في دوامة غير مرئية.. قدم تسير لتخبر أمي وأخرى باتجاه إعادة فتح الباب.. قادتني قدماي لإشعال ضوء الحجرة.. كنت في حلم حين دلفت الباب وخطوت إلى الداخل.. إنها عيناك.. ابتسامتك.. صوتك.. كان جسمك متماسكاً.. تحمل بين يديك جعبة.. أعتقد أنك لاحظت ارتباكي.. طويتني في صمت بين ذراعيك.. بكيت على صدرك.. شعرت بضآلة جسمي.. عادت بي الذاكرة إلى طفولتك الأولى.. سنوات دراستك.. أيام استعدادك للسفر.. تبعة وهو يتابعني عبر الهاتف.. أنقل له خبر حصولك على منحة دراسية في العراق.. أحدد له يوم سفرك.. أقنعه بالحضور لوداعك.. يتهرب.. ألح عليه.. يرضخ في نهاية المطاف.. دون أن تعلم أشاوره في كل شيء.. بعد سنوات فراق قاسية.. موت الأمل.. وها أنت تبزغ فجأة.. وأنت تعود إلى جواري كما لم تكن قسوة سنوات غيابك.. أخرج من صدرك.. تسألني وأنت تقبل رأسي.. تنظر إلى وجهي الباكي:

ـ من معك في البيت؟!

لم أرد عليك.. قدتك إلى حيث شمعة أمي:

ـ أمي.. أمي.. لقد عاد حنظلة!

أزلت عنها الأغطية بهدوء.. أدرت لك جسمها.. رأيتها في وضع جنيني.. أجلستك على حافة فراشها.. حملت الشمعة كي يرى كل منكم وجه الآخر.. فعيناها لم تعود تحتملان الضوء القوي.. تجمدت ملامح وجهك.. لمست يدها الضئيلة.. عيناها تلمعان في الفراغ.. زادت دموع عينيي.. صمت إلا من أنفاسك.. دمعة

شاردة تختبئ في شعرك الكثيف.

وجهك أكثر سمرة.. كوفية بيضاء على رأسك.. وجهك مغطى بالشعر.. ملابسك بيضاء.. حذاء جلدي أسود غليظ.. تركتك جوارها.. الفرحة تكاد تقتلني.. لم أفسر ما أنا فيه.. أعددت لك ما تتناوله.. تذكرت تلك الأطباق التي تحبها.. طبق البيض بالفلفل الحار والطماطم.. رز بالحليب والسكر.. رتبت غرفتك.. اخترت أحد الألحان التي كنت تستمع إليها.. أدرت جهاز الكاسيت.. تأملت غرفتك كما لو يلمسها أحد.. عدت أدعوك لتناول العشاء.. لم أجدك على حافة فراش أمي.. كانت وحيدة!!

بحثت عنك في زوايا البيت.. تأكدت من أن باب البيت لم يفتح وأنك لم تغادر.

طوال الليل أفكر في حياتي.. غدي.. في الماضي من الأيام.. لم تكن ذات شأن مقابل عودتك.

في الصباح الباكر نهضت.. لم أجدك في غرفتك.. فتشت من جديد غرف البيت.. لا أحد.. لاحظت أن شكل غرفتك وترتيبها قد تغير.. لم تعد على جدرانها تلك الصور.. صورتك وجدك.. أشرطة الموسيقى.. كل الدمى.. حتى ذلك الدب الصغير الذي ظل على الرف مرتدياً بنطالك الصغير طوال غيابك.

حين دخلت غرفة أمي وجدتك على حافة فراش أمي.. فزعت.. سمعتك تتمتم بدعوات لم أتبين فحواها.. مددت كفي أحتضن رأسك.. تنسكب دموعي في صمت.. أختزل حرماني.. أستعيد إحساس الأمومة.. لم أسألك عن سبب تغير ترتيب غرفتك..

إخفائك دمى طفولتك.. أشرطة الموسيقى.. أو عن مصير تلك الصور.. تركتك منشغلاً بأمي.. سمعت صوتك يأتي من داخلي:

«لمَ لا تحدثيني عن أخبار قريتنا.. كنت أتوقع أن أجد جدي هنا معكم.. زوجته!»

كنت قلقة.. أعرف مقدار تعلقك بجدك.. لا أريد أن تصطدم بأخبار الموت والضياع.. لو كنت قد سلمتك رسائلي لكفيتك عناء السؤال.. فكرت أن أدعوك كي نجلس معاً.. وضعت يدك على كتفي كما لو كنا أصدقاء.. أجلستني جوارك.. تأملت وجهي.

عطفك يغمرنا.. سعادة بطعم مختلف.. لم أحدثك عن موت زوجة جدك.. ولا إخفاء جدك.. سألتني عن سبب حالة أمي.. قلت لك.. إنه العمر.. لا أريد أن أحكي لك الأسباب.. أسئلتك تحاصرني.. لم أعاتبك في شيء.. أو أسألك عن صمتك طوال السنوات الماضية.. عن حياتك الجامعية.. أكملت تناول عشائك الأول.. تركتني أنصرف بصعوبة.. قلت لك سنتحدث غداً.. أكيد أنت متعب بعد سفر طويل. حين اتجهت إلى مهجعي لم يأتني النوم.. قلبي يفيض فرحاً وأنا أشعر أنك بقربي.. فكرت أن أعود لمسامرتك.. طرقت عليك باب غرفتك.. سحبت خشب الباب.. حدث ما كنت أخشاه: لم تكن موجوداً.. بحثت علك عند أمي.. لم أجدك.

في الصباح الباكر جاءت شخنما.. حدثتها عن وصولك.. عن لطفك في تعاملك.. كانت سعيدة لسعادتي.. بعفوية أرادت أن

تتعرف عليك.. كان صوتها الضاحك يملأ المكان.. بحثت عنك.. قلت لها إنك خرجت لقضاء بعض حوائجك وستعود.

في المساء خفق قلبي حين رأيتك جوار أمي.. خجلت أن أعاتبك على اختفائك.. حدثتك عن مجيء شخنما ورغبتها بالسلام عليك.. أشحت بوجهك بعيداً.. حدثتك عمن تكون شخنما بالنسبة لي.. عن وقوفها معي في وحدتي.. مجازفتها في البحث عن جدك.. مساعدتي في إدارة الجمعية.. قلت لي:

ـ هذا لا يعني أن أقابلها.. بل وأصافحها.. المرأة الملتزمة لا تكشف وجهها إلا أمام محارمها.. ولا تشهر صوتها أمام الغرباء.

ـ لكنها صديقتنا..

ـ الأمر يختلف.. أنتن نساء وأنا رجل!!

في تلك الثواني أدركت أنني أمام شخص لا أفهمه؟!

قلت لي: العبد منا إن لم ينذر نفسه لله فقد نذر جسده لجهنم.. على المرأة الاحتشام وترك عيشة الجاهلية.. وعليها عدم الخروج من بيتها إلا للضرورة القصوى.

كنت في حيرة مما أسمع.. كيف يمكن أن تكون جلفاً بتلك الطريقة.. وبالمقابل تحنو على أمي برقة وعطف.. بل إنك كنت تشاركني غسلها دون تذمر.. رقيق في تصرفاتك.

لم أخبرك أني تعودت منذ حين الخروج مكشوفة الوجه.. وأن لي نشاطاً في جمعيتي.. ولي علاقات مع جمعيات عديدة.. وصلات بمنظمات أجنبية.. حين كنت أسمعك قررت أن أختار وقتاً مناسباً

للحديث معك عما تجهله في حياتي.

يأتي الليل فأجدك إلى جوار أمي.. ما أن أتركك حتى تختفي.

مع مرور الأيام كانت تصرفاتك لا أفهمها.. تختفي لتغيب النهار.. تفضل الظهور ليلاً.. تقضي جل وقتك متخفياً.. ترفض أن يشاركك أحد الحديث.. تختفي عند الفجر.

لم تستمع إلي.. أو تشركني في أي رأي.. لا يعجبك الحديث عن الزواج.. تتهرب من أسئلتي:

ـ أماه أنا أجُلُّك.. أرجوك.. لا أحب أن يتدخل أحد في خصوصياتي.. أنا أعرف كيف أرضي الله.. وطاعتك علي واجب.

ـ هل من الطاعة أن تخفي عن أمك تفاصيل حياتك؟

ـ لا يوجد ما يستحق الحديث!!

ـ ست سنين ولا يوجد ما يستحق الحديث عنه.. ولا عن مستقبل أيامك!!

ـ أنا أقدرك يا أمي فلا تجعليني أرحل عنك!

حين أكملت جملتك.. خررت بجبهتك تلثم أقدامي.. كنت أندهش من أسلوبك في الخلط بين الرقة والقسوة.. كان عندي أمل كبير في أن أعيدك إلي.. أحدث نفسي: عليّ أن أتحمل.

يوماً بعد يوم أكتشف أني أجهلك.. كنت تخيفني بتسلطك.. تستعرض مفهومك لعلاقة الفرد بالله.. العلاقة بمن حولك.. حمدت الله أني لم أتسرع في تسليم ما كتبته من رسائل إليك..

أشعر برعب وأنا أتخيل تلك الرسائل بين يديك.. فكرت بإحراقها.. تبدو لي شخصاً غريباً.. لست ابني الذي غادرني منذ سنوات.

رجوتك أن نسافر إلى عدن لزيارة تبعة.. وقفت غاضباً:

ـ أنت أمي.. لكن ذلك الإنسان لا أحب أن أسمع اسمه.

ـ لكنه أبوك!!

ـ أبي كل من يحب الله.. ويتقرب في رضاه!

ـ كنت أتوقع بعد وصولك أنك ستصطحبني لزيارته!

ـ إن كنت تحترمين ابنك فلا تتحدثي مرة أخرى في هذا الموضوع!!

توصيني خيراً بأمي.. تلح علي في الدعاء لك.. لا تخبرني لماذا تختفي.. أو أين تذهب.

لا أدري كيف أمسيت في نظرك مذنبة.. كنت في حيرة مما أنا فيه.. فرضت علي عدم الخروج من البيت.. أن أقطع تواصلي بالغير.. حددت لي نمطاً جديداً لحياتي.. لبسي.. أسلوب حديثي.. صداقاتي.. نصحتني بقطع صِلاتي بكل صديقات الأمس.. كان صوتك حازماً.. وملامحك جامدة وأنت تلقي علي أوامرك.. الرعب تخلل عقلي وكياني.. شعرت بضعف وخوف لم أشعر به طيلة حياتي.

المواعظ من جهاز الكاسيت هي الصوت الوحيد الذي ارتضيته لي طوال الليل والنهار.. تخلصت من جهاز التلفاز.. جهاز الهاتف..

حتى البنفسج منعتها من زيارتي.

كنت على أمل أنك ستعود إلى صوابك.. وما أنت فيه حالة تتجاوزها.. إذ كيف يعيش شخص سنوات في مجتمع مثل المجتمع العراقي ويفكر بتلك الطريقة؟! قد قد تكون حالة طارئة.

أخذت أفكر بإنقاذك مما أنت فيه.. لأسترجع ابناً عاد للتو.. ازددت ضراوة في قسوتك معي.. كنت في حيرة من أمرك.. اخترت طريقاً لا رجعة منها.. زدت في عنفك.. لا تحب أن تسمع موضوع سجن جدك.. حتى أنك لا تحبذ أن تصفه بجدك.. ولا تريد أن تسمع تلك الصفة مني وتفضل أن أصفه بخالي فقط.. بدأت تستخدم ألفاظاً قاسية على قلبي.. يوماً بعد يوم لم يعد يهمك رأيي.. حيناً تصفني بالمنحرفة.. وأخرى بالخاطئة.. وحين تسمع احتجاجي ترفع في وجهي رسائلي.

في إحدى الليالي طلبت مني أن أعلن توبتي.. معتمداً على فتوى أفتيت بها أنت.. أخبرتني أن من لا يعلن توبته ويغير حياته ويعلن التزامه يهجره الناس! أو ينفذ فيه الحد!! كنت على يقين من أنك تناور.. وأن قلب ابني لا يمكن أن يكون بتلك القسوة.. قلت لك:

ـ أليست الجنة تحت أقدام الأمهات؟

ـ بلى.

ـ فكيف تجيز لنفسك كل تلك الألفاظ الجارحة؟

ـ لست أنا من يقول ذلك.. هو الله الذي خلقنا جميعاً!!.

ـ اتركني وشأني.

ـ حين أتركك وأنت مذنبة.. سأتحمل وزرك يوم لقاء الله؟

ـ أنا أبرئك.

ـ لن يقبل منك ذلك.. لا أريد أن يسألني الله عنك يوم القيامة!

ـ ابني لا أريدك أن تشقى وتشقيني معك.

ـ الشقاء ما أنت فيه.. وعليك بالتوبة.. والاستسلام لأوامر الله.

ـ لكنني مسؤولة أمام الله عن نفسي.

ـ أماه.. طاعة الله ليست بالكلام.. طاعة الله بالأفعال.

أدركت لحظتها أن حوارنا وصل إلى طريق مسدود.. وأن حياتي في خطر.. وأنك تعتقد بكل ما تنطقه.. وأنك تعتقد أن الله معك وحدك.

قررت أن أعطي نفسي وقتاً للتفكير قبل أن أتخذ أي قرار.. أن أبحث عن طريقة للتعايش.

مرت الأيام وأنا صائمة عن الحديث.. كنت أنت قد اختفيت من البيت.

مرت الأيام وأنا أنتظر أن أجدك أمامي كما كنت أجدك فجأة.

مرت ليالٍ كثيرة.. لم أجدك أمامي.. حاولت أن أتخيل طرقاتك على الباب كما كنت أفعل.. أن أسمع صوتك.. وها هي السنة العاشرة وأنا أحاول في كل ليلة أن أجدك إلى جوار فراش أمي.. حتى رحيلها هي الأخرى.. شخنما أخبرتني أنها سمعت بأن

اسمك ورد ضمن أشخاص أعلنت أجهزة أمن إحدى الدول عبر وسائلها الإعلامية عن رصد جائزة مالية مغرية لمن يدلها على أماكنهم.. أو يقدم معلومات عنهم.. وقالت لي بأنهم نشروا صوراً لمجموعة من الشباب كانت إحداها لك.

طفلي الغالي..

لم يعد لوجودي معنى إلا بوجودك.. سأظل أبحث عنك بعد مغيب كل شمس عند فراش أمي.. وسأواصل الكتابة إليك.. سأكتب كل التفاصيل الصغيرة دون تنميق.. ولا خوف.. كل مشاعري.. وسأتخيل طرقات كفك على الباب.

المؤلف

محمد الغربي عمران

ولد في صنعاء عام ١٩٥٨.

دبلوم ماجستير تمهيدي آداب.

أمين العلاقات الداخلية ـ الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين.

رئيس نادي القصة

صدر له:

* **الشراشف**، دمشق، إصدارات اتحاد الأدباء والكتاب العرب.

* **الظل العاري**، صنعاء، الهيئة العامة للكتاب.

* **حريم أعزكم الله**، القاهرة، مركز الحضارة العربية.

* **ختان بلقيس**، صنعاء، نادي القصة (إلـ مقه).
* **منارة سوداء**، صنعاء، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.

العنوان

algarby@gmail.com

zamel12-@maktoob.com



مصحف أحمر

محمد الغربي عمران

«حاولت أن أجاريه رقة الكلام.. مناغاة الجسد.. كان يدهشني.. أشعر بأني طوع أصابعه.. طغت غلمتي.. جعلني أطير فوق نشوته.. عاملني كما لو كنا في معركة من الكر والفر.. التحام وفك.. استبد بي الجوى.. أتلوّى تحته.. رغبة تجتاح صهيل قلبي.. احتضنته.. علوت عليه.. استدار ليطرحني أرضاً.. لأول مرة يئن من دون اكتراث.. ثم يعوي بصوت يخترق الأسماع.. أدركت بأن شبقه يسحقني.. وشوشته بكلمات استعرتها منه.. كل ما عليّ هو تلبية ما يقول.. قطرات العرق المخلوط بروائح دافئة.. النشوة ترفعنا إلى ذرى المتعة.. أعقبها خدر مسكر».

(من الرواية)



